

ما لم تقله الوظيفة

صفحات من حياتي

منصور بن محمد الخريجي

٢٠١٤ هـ (ح) منصور محمد الخريجي،

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخريجي، منصور محمد

صفحات من حياتي - الرياض .

٣٦٧ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٣-١٦-٣٤-٩٩٦٠ .

١- السعودية - التراجم الذاتية

أ- العنوان

١٨/٠٠٠١

ديوي ٩٢٠

ردمك : ٣-١٦-٣٤-٩٩٦٠ . رقم الإيداع : ١٨/٠٠٠١

١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م

حقوق الطبع محفوظة للناسر

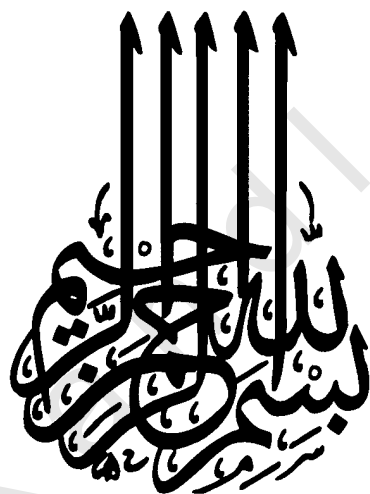
نشر وتوزيع

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



obeikandi.com

مقدمة الطبعة الأولى

لا أريد أن أعتذر عن الإقدام على كتابة هذه المذكرات، فهي موجهة - أساساً - إلى أبنائي والمقربين مني، ولكن إن كان هناك مبرر لكتابتها فلأنني وأبناء جيلي، ممن هم في مثل سني، نعتبر آخر جيل من الذين عاشوا حياتين مختلفتين تماماً؛ حياة آبائنا الذين عاشوا قبلنا ثم حياة أبنائنا الذين أتوا بعدنا. فأنا من الجيل الذي عرف الفقر وشظف العيش والبيوت القديمة التقليدية التي كانت تضاء بالفوانيس والسرّج، الجيل الذي سار في شوارع ترابية ضيقة غير مضاعة، واقتصر في قوته على طعام قلما زاد عن خبز يُطرى ببعض الإدام المتواضع، الجيل الذي كان يسعد الفرد منه لو وجد عنده ثوبين، أو لو أن الثوب الوحيد الذي لديه لم يكن أحياناً ممزقاً ومرقعاً. أجل لقد عشنا ذلك كله، وأكثر منه، إلى أن لطف الله بعباده وبدّل حالاً بحال. لهذا أكتب حتى يقرأ أولادي ولا ينسوا جذورهم.

لا يعقد الكتاب مقارنة بين جيلين، أو بين عصرين، بل يسجل بعض لمحات من حياة إنسان عاش في زمنين متباينين أشد التباين، زمن بقى ثابتاً لم يتغير لقرون عديدة، عاش الناس فيه حياة متقاربة، متكررة، يتوارثها الأبناء عن الآباء، جيلاً بعد جيل، وزمن آخر غلبت عليه سرعة التغير والتقلب، وتتابع فيه صفحات جديدة، وأحياناً عنيفة في كل مجال من مجالاته؛ الفكرية والاجتماعية والصناعية وغيرها.

ولا أود الدخول في الحديث عن القلق والتوتر وكل الأمراض النفسية والجسدية التي باتت تهدد الإنسان الحديث ، كما لا أريد أن أتحدث عن الأزمات النفسية التي تصيب الإنسان في عصرنا الحاضر ، في كفاحه وكده وعرقه ليهيئ لنفسه وأهله مستوى من المعيشة يتساوى به مع جاره ومع الآخرين ، هذا شيء أتركه لأبناء هذا الزمان أنفسهم ليتعاملوا معه ، فهذا الكتاب يسجل لمحات من حياة إنسان عادي عاش زمنين متباينين أشد التباين ، وعلى الرغم من مضي ما يزيد على خمسين عاماً على ما سيجده القارئ مدوناً في الصفحات الأولى من هذا الكتاب إلا أنني حرصت على الحفاظ على التسلسل الزمني الذي يربط ما دونته من أحداث وعلامات تستحق التسجيل ، آملاً أن أكون قد وفقت إلى الهدف الذي رميت إليه وهو كما ذكرت في البداية إعطاء أبناء جيل اليوم صورة عن كيف كان آباؤهم يعيشون قبل أن يشاركوهم حياتهم الحاضرة .

المؤلف

محرم ١٤١٧هـ

مقدمة الطبعة الثانية

عندما قلت في مقدمة الطبعة الأولى من كتابي "صفحات من حياتي" :
 إن الكتاب موجه لأبنائي والمقربين مني كان ذلك نصف الحقيقة فقط ، أما
 الحقيقة كلها فهي أنني كنت أخشى أن يظهر الكتاب ولا يحس أحد بظهوره
 ثم يعود منزوياً على استحياء ليستقرّ مع كتب كثيرة أخرى تملأ رفوف مكتبي
 ولم أقرأها أبداً ويبقى هناك قابلاً بينها منسياً . لهذا قلت : إن الكتاب موجه
 لأبنائي وأهل بيتي والذين عزمت أن أرغمهم -بحكم القوامة- على قراءته
 عندما لا يقرؤه أحد غيرهم .

لم أضطر -لحسن حظي- أن ألجأ إلى ذلك الأسلوب "الديموقراطي" من
 الإقناع ؛ لأن الكتاب أصبح بين عشية وضحاها حديث الناس . لم أكن
 أتوقع -ومهما اشتط بي الحلم- أن يجد الكتاب ذلك الصدى الإيجابي وذلك
 الاستقبال الحافل من القراء والنقاد ، ولم تطل حيرتي لمعرفة سرّ ذلك القبول
 الطيب بعد أن بدأت أتلقى الاتصالات من القراء وأقرأ ما يكتبه النقاد ، فقد
 أدركت أن العامل الرئيسي وراء ذلك التقبل السريع للكتاب هو ببساطة
 شديدة ليس أكثر من مجرد الالتزام بشيء من الصدق والصراحة البسيطة في
 سرد الأحداث بأسلوب "الراوي" الذي تكلم عنه الأخ الصديق الدكتور
 عزت خطاب في نقده للكتاب . ولقد أعطاني ذلك شعوراً طاعياً بالسعادة
 ورضى النفس ؛ ولا أقصد هنا انتشار الكتاب بالسرعة التي انتشر بها ، وإن
 كان ذلك مما أسعدني وأرضاني ، ولكنني أقصد أن الناس عامة لا تزال تتقبل

الكلمة الصريحة الصادقة الخارجة من القلب ، وتتفاعل مع صدق الرواية وتتوحد مع المعذنين . الناس باختصار ما زالوا بخير . لقد أكدت لي تجربتي في كتابي أن الحكمة القائلة : أن ما يخرج من القلب يصل إلى القلب ، هي مقولة صادقة قيلت مثل غيرها من الحكم نتيجة خبرة الناس وتجاربهم في الحياة .

كثير من الإخوة الذين أهديتهم كتابي بدؤوا بقراءة المقدمة ثم لم يتركوا الكتاب إلا بعد أن أنهوا آخر صفحة فيه ، ولو استغرقهم ذلك معظم ساعات الليل . لا أريد أن أسمي أحداً من هؤلاء حتى لا أتهم بأنني أقوم بدعاية للكتاب ؛ ولكنني لا بد وأن أذكر بالشكر والامتنان أن عدداً من الأصدقاء الكرام والأدباء البارزين وأخص منهم أستاذنا الفاضل معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر والصاديق الدكتور منصور الحازمي والصاديق معالي الأستاذ عبد الرحمن السدحان لفتوا نظري إلى بعض القصور والغلطات التي جاءت في الطبعة الأولى ، وأرشدوني وساعدوني بالقول والعمل على تلافي تلك الهفوات التي حاولت جاهداً أن لا أكررها في هذه الطبعة . فلهم جميعاً ولكل الذين شجعوني منذ البداية وساعدوني على تخطي ما اعترضني من صعوبات ، لهم مني كل الشكر والثناء العاطر . والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

محرم ١٤١٨ هـ

مقدمة الطبعة الثالثة

أعلن لي الأخ الدكتور عزت خطاب بعد فترة وجيزة من نشر كتابي هذا، أعلن بحماس أن الكتاب أصبح بين عشية وضحاها Best Seller، وهذا يعني بالعربية الفصحى أنه حطم كل مقاييس المبيعات!! الحقيقة لا أعرف ترجمة حرفية للكلمة الإنجليزية التي أوردتها هنا ولا أقصد إطلاقاً أن أتباهى بلغتي الإنجليزية لسبب بسيط هو أن أغلب الناس الذين يدرسون لغة أجنبية بعمق ينتهي بهم الأمر أن يفقدوا المقدرة على إجادة لغتهم الأصلية بينما لا يصلون بلغتهم الأجنبية إلى درجة الإتقان المطلوب ولا أستثنى نفسي من هذه القاعدة.

المهم أن التعبير يعني أن الكتاب لاقى رواجاً والناس يتهافتون عليه. هذا الكلام يعني شيئاً في الآداب الغربية مثلاً حيث قد يباع من كتاب واحد ملايين النسخ. أما في عالمنا العربي فأقل ما يمكن أن يقال أن الحالة مأساوية. وأسرع فأقول أنني لا أقصد - يعلم الله - الجانب المادي من ريع الكتابة كما يدرك كل الذين كتبوا من قبلي لكنني أقصد صدود الإنسان العربي عن القراءة. إن أعظم الكتب رواجاً في عالمنا العربي كما يخبرنا الذين يتبعون توزيع الكتب، لا يزيد عن بضعة آلاف قليلة. وقليلة جداً تلك الكتب التي يصل توزيعها إلى بضعة آلاف. فمعظمها لا يزيد توزيعه على أعداد هزيلة يخجل كتابها وناسروها من الإفصاح عن أعدادها. وهنا في بلدنا ربما بصفة خاصة لا يعتقد الناس أن الكتب تشتري من المكتبات ولكن إذا سمعوا

بكتاب ناجح فإنهم يطلبونه من مؤلفه . ليس ذلك طبعاً لأنهم لا يرغبون في صرف بضعة ريالات لشراء الكتاب ولكن لأنهم أو لأن معظمهم يعتقد وبحسن نية أن الكتب توهب مجاناً وأن الكاتب يهدي كتبه للقراء . على كل حال قليل من الكتاب في أيامنا هذه يرجو ثراء أو حتى الحصول على القليل مما بذل من ماله وجهده في سبيل إخراج كتاب واحد وهكذا يبقى طلب كتاب ما من مؤلفه عملاً يثلج صدره ودليله الوحيد أن الكتاب يجد صدى طيباً وأنه استقبل استقبالاً حسناً .

أما والحالة هذه فقد يسألني سائل لماذا إذن أبادر بطبع هذا الكتاب للمرة الثالثة ! والجواب هو أنه على الرغم من أنني أهدي الكتاب لمن يطلبه مني ويسعدني ذلك جداً فإنني حريص على أن تبقى هناك نسخ منه في المكتبات طالما هناك رغبة لدى الناس في قراءته ، وهو ما يشهد له نفاذ طبعته الأولى والثانية . وأحمد الله تعالى أن هناك سبلاً أخرى أكسب عيشي منها فأنا لازلت موظفاً ولا أعتمد على ريع بيع الكتب وإلا كنت كمن قيل عنهم في تراث العرب من قديم " أدركته حرفة الأدب " وغرقت في فقر مدقع . والحمد لله أولاً وآخراً

منصور محمد الخريجي

ربيع الآخر ١٤٢٠ هـ

الهجرة إلى الشمال

لم يترك النوم في تلك الليلة من ليالي الشتاء الباردة عيني السيدة مريم الهديان، بقيت مستلقية على فراشها الخشن في منزلها بالرس، إحدى قرى القصيم، تتقلب على جنبها كل بضع دقائق، عبثاً ذهبت كل محاولاتها للنوم. في الغرفة المجاورة كان ولدها محمد الصالح الخريجي يغط في نوم عميق سابحاً مع الأحلام الزاهية والرؤى البراقة، ولم لا وهو يعد لرحلة العمر التي ستأخذه بعيداً عن قريته إلى حيث طيب العيش والمستقبل الزاهر. وبينما هو يغط في نومه كانت راحلته التي اشتراها بعدد من الجنيهات الذهبية استدانها من واحد من جماعته الموسرين تروح وتجيء في فناء الدار الواسعة، وبين الفينة والفينة تقترب من باب الحجرة التي نام فيها وكأنها تنبهه إلى أن أوان الرحيل قد أزف، وأن عليه أن ينهض من نومه ليهيئ نفسه للرحلة الطويلة إلى الشمال. كان محمد الخريجي مثل غيره من شباب الرس يتطلع إلى مستقبل ينقذه من الفاقة التي كانت سائدة في ذلك الوقت والتي دفعت كثيراً من شباب المنطقة إلى الارتحال في طلب الرزق إلى البلاد المجاورة أو حتى التي تبعد عن الجوار.

كان محمد وحيد أمه بعد أن مات أخوه الأصغر من جراء مرض ألمَّ به ولم يمهله طويلاً. حزنّت الأم لوفاة ولدها الصغير أشد الحزن، ومنذ ذلك الوقت راحت تنظر إلى محمد على أنه عالمها الوحيد الذي تعيش فيه وتعيش من أجله. وازداد تعلقها به بعد أن تزوج زوجها بامرأة ثانية سرعان

ما استأثرت بصحبته واهتمامه . حاولت الأم بكل الوسائل أن تشني ابنها عن الرحيل : ذرفت الدموع ، استعطفت ، توسلت ، لكن ذلك كله لم يأت بنتيجة . كان محمد قد عقد العزم على السفر ولا مجال للتراجع . ومع أن وجهته لم تكن من حيث المسافة بالبلاد البعيدة عن الرس بمقياس اليوم ، لكنها في تصور الأم كانت أرضاً غريبة مجهولة . كان أي مكان خارج الرس والقصيم بلاداً الذهاب إليها مجهول المصير لا أحد يضمن عودته سالماً إلى أهله ، وكان اعتقاد أم محمد أن ولدها عندما يغادر الرس يكون قد أسلم نفسه لمصير مجهول لا يعلم إلا الله إن كان سيعود منه سالماً ، وكأي أم لم تكن لتمنح رضاها وموافقتها على هجرة ولدها ، كان كل همها أن يبقى معها وتحت نظرها ولو جاع .

كان السفر في تلك الأيام مغامرة غير مضمونة النتائج ، كان الخارج مفقوداً ولو ضمته عصبه الأم ، ومن أراد الحفاظ على ذويه كان عليه أن يقيهم تحت ناظره ، إلا أن محمداً بالرغم من ذلك كله سار على ما سار عليه أقرانه ، كلهم يبعثون السفر والهجرة إلى حيث الحياة الرغدة والعيش الهنيء ، لم يعد البقاء في القصيم مطمحاً لذي طامح ، بخلت الأرض على الناس ولم تعد غلتها تؤمن لهم حتى حياة الكفاف ، لم يعد من خيار أمام الشباب سوى الارتحال بعيداً عن الأهل والبلد على ما في ذلك من ألم عميق وحزن لا يساويه حزن . ولكن قال محمد لقلبه : إنها الدنيا التي تضطربنا إلى أن نكون قساة على من نحب ، نفارقهم وقلوبنا تنفطر عليهم ، ونبتسم ونحن نودعهم بينما قلوبنا تنزف دماً ، عندما تقسو الحياة تصبح العواطف الإنسانية ترفاً نتخلي عنه مكرهين .

لم تكن الطموحات في تلك الأيام بالشيء الذي يصعب تحقيقه، إذ إن أقصى ما كان يطمح إليه أولئك المهاجرون هو إيجاد أعمال تضمن لهم مستوى معيشياً مقبولاً، وكان معظمهم ينخرط في سلك الجندية، وكانوا شباباً يسعدون أيما سعادة بالبزة التي تأتي مع المهنة والتي تعطيهم إحساساً كبيراً بالأهمية. ولم يشذ محمد الخريجي عن القاعدة؛ فالتحق بالهجانة في سوريا وكان ذلك إبان الاحتلال الفرنسي لها. كانت فرق الهجانة في ذلك الوقت تتكون غالباً من رجال القبائل البدوية المنتشرة في سوريا مع من ينضم إليهم من رجال قادمين من الجنوب من الجزيرة العربية، كانت مهمتهم التنقل في البراري والقفار لحفظ الأمن ومعالجة أي مشاكل تحدث بين القبائل البدوية، وكانوا إذا استقروا في مكان ما فهو قرية على حدود البادية قريبة من مواطن البدو. كان هذا العمل يمثل لهم وظيفة تعطيهم راتباً معلوماً في نهاية كل شهر يتعيشون به، ولهذا كانوا يدركون جيداً أن رؤساءهم هم الفرنسيون الغرباء الذين جاؤوا إلى سوريا مستعمرين، ولهذا كان من النادر أن تجد بين أولئك الأفراد من الهجانة من تصفو نفسه أو يخلص لأولئك الأجانب المستعمرين، كانت عواطفهم ومشاعرهم مع أولئك الناس الذين وضعوا لمراقبتهم ولحفظ الأمن بينهم، وكانت أوامر الرئيس العسكري الفرنسي يضرب بها - غالباً - عرض الحائط؛ ولذا فقد كانت أكثر المشاكل والصعوبات تنشأ بين أولئك الجنود ورؤسائهم من الفرنسيين. ومن كانت تكثر مشاكله كان يفصل من الخدمة، وهذا ما حصل للوالد الذي لم يستطع أن يرى نفسه مرئوساً لضابط أجنبي، كما أنه لم يستطع أن يحتمل سجنه المتكرر نتيجة لكثرة الخلافات؛ ولهذا لم يلبث أن خلع بزته العسكرية وغادر موقعه دون أسف كبير.

أسقط في يد الشاب محمد الخريجي ولم يدر ما يفعل بعد أن خرج من الخدمة خالي الوفاض . كانت القريتين إحدى القرى السورية التي استقر فيها فترة طالت قليلاً أثناء خدمته ، وهي تقع على أطراف بادية الشام في منتصف الطريق بين دمشق وتدمر إلى الشمال من دمشق . اختار أن يعود إلى القريتين ، فقد تذكر طيبة أهلها والعلاقة الجيدة التي أنشأها مع عدد منهم عندما كان هجاناً . عاد إلى القريتين ولم يكن يملك شيئاً ، استضافه أحد معارفه وقدم له غرفة في منزله ليقيم فيها إلى أن يجد له عملاً يقوم به . ولكن ما هو العمل الذي يمكن أن يجده إنسان غريب في بلدة تقوم على بعض زراعة البعل وبعض الكروم التي يتعيش الناس من فاكهتها؟ تذكر محمد مهنة أبيه وهي المتاجرة بالجمال . استدان بعض النقود وابتدأ تجارته . اشترى في البداية جملين من البدو القرييين من البلدة وسار بهما إلى حمص وباعهما وحصل على بعض الربح . عاد واشترى أربعة جمال وسار بهما هذه المرة إلى شمال سوريا قرباً من القامشلي وباعها ، وهكذا صار يشتري ما يحتاجه الناس والبدو في مكان ويبيعه ثم يعود ويشتري بضاعة أخرى يذهب بها إلى حيث يجد سوقاً لها . ولم تمض سستان إلا وقد أصبح يملك ثروة صغيرة ، وكأنما شعر أنه حقق حلمه في الثراء فاستقر نهائياً في القريتين بعد أن انتقل إلى منزل يليق بوضعه المالي .

والبيت المناسب لا بد له من زوجة ؛ خاصة وأن الأوضاع قد تحسنت وتسمح بأن يكون المنزل متكاملًا . وتزوج محمد من ابنة إحدى العائلات بالقريتين . تحكي والدتي - رحمها الله - أنها عندما تزوجت ذلك الأجنبي كانت قريناتها من الفتيات يحسدهن على العثور على ذلك الشاب الغني

القادم من بلاد بعيدة. عاش الزوجان الجديدان حياة هائلة رغبة. وكتيجة لهذه المصاهرة فقد كثر معارف الشاب محمد الخريجي وأصبح منزله وقهوته الحاضرة دائماً عوامل جذب للكثير من الضيوف، وازدادت المصاريف والالتزامات دون أن يكون لها ما يوازنها من الدخل.

حاولت الوالدة أن تجعل زوجها يعود إلى تجارته إلا أنه كان قد تعب من السفر الطويل الشاق وراء الجمال والذي كان يأخذه مسافات لأيام وأسابيع مع ما في ذلك من المخاطر، ومن ثم ركن إلى حياة الدعة والهدوء. حثه بعض أصدقائه على شراء بعض المزارع والكروم وأن يقيم عليها من يخدمها إلا أنه تقاعس في هذا أيضاً ظاناً - والله أعلم - أن ما كسبه في تجارته السابقة سيكفيه طوال حياته.

ولا أعرف يقيناً إلى الآن السر الذي جعل محمد الخريجي يتوقف نهائياً عن العمل سواء في التجارة أو في غيرها. حاول الذين حوله أن يذكوا من جديد حب العمل فيه ولكن دون جدوى، كان عنده قدر طيب من المال بمقياس تلك الأيام يكفيه دون شك ويزيد ولمدة طويلة، إلا أن الرجل القادم من القصيم جعل منزله دار ضيافة! فهو لم يكن أبداً يتناول غداءه أو عشاءه إلا بحضور أصدقائه، وظل ذلك ديدنه حتى بعد أن كبرت مسؤولياته مع ولادة الأطفال الذين رزقه الله بهم، فكان إذا تأخر أحد من ضيوفه الدائمين عن الحضور أرسل ابنه الأكبر أخي صالح لاستدعائه، تلك خصلة يفتخر بها ولا شك، ولكن كانت نتيجتها في النهاية أن ذلك الرجل الشهم الكريم صحا ذات يوم ليجد نفسه وقد نفدت كل مدخراته. قام بعد ذلك بعدة

محاولات لإعادة بناء نفسه وإحياء تجارته القديمة إلا أن المجهود كان أكبر من أن يتحملة كيانه الضعيف أصلاً خاصة أن اعتلال صحته لم يمكنه من بذل المجهود الكبير الذي كان يتطلبه ذلك العمل الشاق، عاد فأخلد إلى الراحة في بلدته القريتين، وامتدت إقامته بها هذه المرة حوالي خمس عشرة سنة. وأتته الفرصة في هذه الأثناء فسافر إلى مكة المكرمة حاجاً غير مرة. وكان يحرص في هذه السفريات على أن يعرّج على الرس لزيارة والدته. لم يكن بإمكانه أن يمكث عند والدته طويلاً نظراً لوجود زوجة وأولاد له في سوريا ولا بد من العودة إليهم. لاحقته خطابات والدته على فترات متباعدة، كما كان إخوته يحكون له عندما يزورونه في سوريا عن معاناتها الأليمة من جراء بعده عنها، وعبثاً حاولت جدتي أن يعود ولدها إليها، وفي النهاية لاقت وجه ربها وهي تعاني عذاب الفراق.

لم يعيش محمد الخريجي طويلاً بعد أمه فقد تكالبت على الجندي السابق الأوجاع التي لم يتحملها جسده النحيل، وما لبث هو الآخر أن لبي نداء ربه وهو لم يتجاوز العقد الرابع من عمره، ودفن في القرية التي اختارها وطناً ثانياً له، ورزق من الأبناء ستة: ولدان وأربع بنات وكان ترتيبي الرابع بينهم.

في الكتاب

على الرغم من أن الإنسان يذكر أحياناً تفاصيل صغيرة جداً في طفولته إلا أن ذلك لا يعتبر قاعدة ثابتة أو حقيقة ليس لها استثناءات، فأنا - مثلاً - أذكر كثيراً من أحداث حياتي عندما كنت طفلاً، ولكن هناك شيئاً هاماً أساسياً لا أذكره وهو كيف ومتى تعلمت القراءة والكتابة. وإذا كان الطفل يبدأ تعليمه الآن على وجه العموم في السادسة من عمره فنحن في وقتنا كنا قطعاً نعرف طريقنا إلى "الكتاب" بعد السادسة بسنة أو اثنتين. ولم يكن الأطفال في القريتين وغيرها من القرى يلتحقون بالمدرسة منذ البداية بل كان أهلهم يعهدون بهم إلى أحد الشيوخ الذين يعلمونهم القراءة ثم يدرسونهم أو يحفظونهم القرآن الكريم، كان بالقريتين اثنان من هؤلاء الشيوخ وكان منزل أحدهما قريباً من بيتنا، كان من الطبيعي أن ألتحق "بزاويته" كما كان يطلق على تلك الحجرة من منزله، أو منزله كله، حيث يستقبل أطفال الحارة. كان رجلاً قصيراً ممتلئاً أحمر الوجه، يرتدي قفطاناً أسود ويضع على رأسه الأضلع طربوشاً أحمر تلفه عمامة بيضاء. وكان نظره ضعيفاً ودائم العبوس وكأنه على وشك أن ينفجر غاضباً لأي سبب، أو دوغماً سبب، واسمه الشيخ أحمد. يأتي الشيخ صباحاً فيجلس على دكة مرتفعة قليلاً عن أرض الغرفة التي فرشت بحصيرة خشنة ويتجمع الأطفال حوله. كان يمسك بيده خيزرانة طويلة يومي بها نحو الطفل الذي يريده أن يقرأ وإن كانت الإيماءة تتحول أحياناً إلى ضربة بسبب طول العصا ولينها. لا أذكر الآن - كما ذكرت آنفاً - متى بدأت أقرأ وكيف تعلمت القراءة أو الكتابة؛ كل

ما أذكره أنني تعلمت قراءة القرآن على يد ذلك الشيخ العصبي - رحمه الله .. لم نكن نحفظ القرآن غيباً وإنما نقرأه من المصحف دون اقتراف أخطاء، ومن أتم قراءة القرآن بهذا الشكل فقد أنهى تعليمه في زاوية الشيخ أحمد . كان السائد في تلك الأيام، كما يذكر أبناء جيلي، أن أبا الطفل يؤكد للمعلم عندما يلحق طفله بكتابه أن له مطلق الحرية في اتباع الأسلوب الذي يراه ليجعل من الطفل رجلاً يفخر به ذووه، ويؤكد للشيخ أنه يسلمه الولد بشحمه ولحمه ولا يأبه بعد ذلك في سبيل تربيته وتعليمه أن يعود إليه عظاماً!! ..

لسوء حظنا في تلك الأيام لم يكن الشيخ بحاجة إلى تلك التوصية، وكأن الاعتقاد الذي ساد بين أولئك المعلمين الأوائل أن التلاميذ البؤساء لم يكونوا يملكون حاسة الألم التي يملكها أبناء اليوم، لم يكن الطفل منا يتلجج قليلاً أو يقترف غلطة ما، كأن ينصب مرفوعاً أو يسكن متحركاً، إلا وتنال العصا على أي جزء من جسمه تطله . كان للشيخ أحمد طفل في مثل سننا اسمه إدريس، كان إدريس هذا يتمتع بكم هائل من الدعوات لله أن يحفظه ويقيه من كل مكروه؛ إذ لا تكاد عصا الشيخ تنزل على أحدنا إلا أسرع من بين بكائه ونحيبه المتقطع يطلب الرأفة من الشيخ والدعاء لله أن يحفظ له إدريس مقابل ذلك . كان إدريس هذا يدرس معنا، ولا بد أنه كان يسعد بكل تلك الدعوات له، ولو أنها لم تنفعه، إذ إن القدر لا يُرد فقد مات منذ بضع سنوات بعد أن جاء إلى المملكة يطلب العلاج وأدخلته في مستشفى القوات المسلحة بالرياض وعولج إلا أن المرض الذي كان يشكو منه كان قد استشرى بجسمه وعاد إلى القريتين وتوفي بها بعد فترة . رحمه الله ورحم أباه .

كان ختم القرآن يمثل حدثاً هاماً واحتفالاً من نوع ما للتلميذ المحتفى به وباقي زملائه في الكتاب . يعين الشيخ اليوم الذي يقرأ فيه الطالب بداية سورة البقرة إلى أن يصل إلى كلمة " ختم الله على قلوبهم " ولا أدري لماذا اختيرت هذه الكلمات من القرآن الكريم ولو أنني لا أشك أن اختيارها جاء بسبب كلمة " ختم " التي تعني من جملة ما تعني - طبعاً - فرغ من الشيء وأتمه ، وهو ما يهم الشيخ وتلاميذه ، وليس المعنى الواضح للآية الكريمة والذي يعني جعلهم لا يفهمون .

يوم ختم القرآن هذا يوم سعيد من أيام " الزاوية " ، ليس فقط للتلميذ المحتفى به بل لكل زملائه لأنه يعتبر يوم عطلة . تجدد البسمات وعلامات البشر على وجوه الجميع ، خاصة وأنهم مطمئنون أنه لن يكون هناك عقاب بعضا الشيخ أو فرك شحمة الأذن بعد وضع حصوة داخلها ، أو ربما " فلقة " تتورم على أثرها أرجل الصغير . كان أهل الطفل المحتفى به - أيضاً - يتهيؤون للمناسبة الهامة ويعدون لها ما تيسر من الطعام للشيخ وأطفاله الدارسين . في مثل تلك المناسبة يكون الشيخ أشد الجميع ابتهاجاً ، إذ إنه اليوم الذي يجني فيه ثمرة مجهود بذله في تعليم الطفل حتى أتم قراءة القرآن الكريم . كان الاحتفال ومكافأة الشيخ يعتمدان على الإمكانيات المادية لعائلة الطفل وغالباً ما تكون تلك الإمكانيات متواضعة فلا ينال الشيخ شيئاً ذا بال .

في صباح اليوم الذي حدد لي للاحتفال وصلت إلى الكتاب مع انبثاق نور الصباح . كنت فرحاً جداً متمشياً بما أنجزته ولأنني - وهو الأهم - على وشك أن أفارق " زاوية " الشيخ أحمد إلى غير رجعة . كان من ضمن

مراسم الاحتفال بالمناسبة أن يعين التلميذ المعني صديقاً له يقف خلفه متهيئاً وقد شمر ثوبه إلى ما فوق ركبتيه واتخذ وضع الاستعداد للانطلاق . مهمة ذلك الصديق هي أن يصفع المحتفى به على رقبته صفعة قوية وينطلق هارباً في اللحظة التي ينطق بها الآخر كلمة " ختم " . وعلى المصفوع أن ينهض من فوره ويحاول اللحاق به فإن أمسكه ردّ إليه الصفعة وإن فشل في اللحاق به سقط حقه . والركض يكون من منزل الشيخ إلى منزل التلميذ الذي أكمل القرآن . ولقد كانت صفعة قوية تلك التي وجهها صديقي إلى رقبتي ولم أستطع اللحاق به لأردها له .

لم تكن الصفعة على أي حال لتقلل من شعوري بسعادة غامرة بما حققته من إنجاز وبأنني أصبحت أخيراً طليقاً أطلع إلى الانضمام إلى مدرسة القريتين الابتدائية . كنت أظن أن ذلك ما سيحدث وأن أيامي في زاوية الشيخ أحمد قد انتهت ؛ إلا أنني سرعان ما اكتشفت أن ذلك كان وهماً كبيراً . كان من عادة معلمي القرآن في القريتين وغيرها من المدن ، بل والبلاد العربية كلها ، أن يعهدوا إلى أشخاص معينين من تلاميذهم ممن يأنسون فيهم المقدرة والكفاءة على تدريس زملائهم ممن هم أصغر منهم سناً أو أقل حظاً من الذكاء . ولم يكن شيخنا أقل حرصاً على الاحتفاظ بتلميذ وجد فيه خير معين له في تحمل أعباء تلقين زملائه الصغار ما تعلمه هو بيسر وسهولة . كنت أقوم طبعاً بمهمة التدريس للآخرين قبل أن أحتفل "بتخرجي" من زاوية الشيخ ، وظننت لسذاجتي أن مهمتي تلك انتهت بانتهائي من قراءة القرآن كله . لم أذهب إلى "الزاوية" في اليوم التالي والذي تلاه ، ولم يخطر لي أن أعود للشيخ بعد أن انتهت دراستي عنده .

كنت أنتظر انتهاء العطلة الدراسية لألتحق بالمدرسة . ويبدو أن الشيخ عجز أن يجد تلميذاً آخر يحل مكاني ، وهو عادة يحتاج إلى عدد من الأطفال "المدرسين" يكاد يتساوى مع عدد الأطفال الآخرين الذين يحتاجون مساعدة زملائهم . بعد مضي يومين جاء الشيخ لزيارة والدتي رحمها الله وأقنعها أن أعود للدراسة بدلاً من اللعب في الشوارع . ولم تحتج الوالدة إلى جهد كبير لإقناعها ووافقت على الفور أن أعود لكتاب الشيخ أحمد .

وقع قرارها هذا عليّ وقوع الصاعقة كما يقول التعبير الشائع ، ولم يكن ذلك لأنني أكره الدراسة إلى ذلك الحد أو أنني مللت صحبة زملائي الذين تركتهم ؛ كان السبب شيئاً مختلفاً تماماً . كان تلاميذ الشيخ أحمد من الجنسين أولاداً وبناتاً ، وكان قد عهد إلي بفتاة صغيرة أقوم على تدريسها . كانت طفلة جميلة ، أذكر أن لون شعرها كستنائي أو هو لون الشعر الأسود إذا ما صبغ بالحناء ، شديد التجاعيد يشبه شعر تماثيل عظماء الرومان في أوج مجد امبراطوريتهم ، ولكنها كانت أغبى ما يمكن أن يصل الغباء بإنسان ، لم تكن تستوعب شيئاً ولا أعتقد أنها فهمت كلمة أو حرفاً مما ابتدأه الشيخ معها أو عندما رزأني أنا بها ، أمضيت شهوراً قبل انتهائي من دراستي أحاول أن أعلمها شيئاً دون جدوى ؛ كنت أتولى تدريسها من لحظة وصولي للكتاب ، وكانت تلك مهمة كرهتها أشد الكره وكنت أنتظر الخلاص منها بعد أن أترك الزاوية لغير رجعة . إلا أن شيخنا كان أذكى من أن يحرم نفسه من معلم بالمجان . شعرت بالحزن والغضب وأنا أعود لبيت الشيخ لأنني كنت أدرك أنني عائد لغرض واحد فقط هو تدريس تلك الفتاة الصغيرة . ولم تكن هي نفسها أقل رغبة مني في الخلاص من عذاب تعليمها ، إذ إن أمها كانت تحييء

بها قسراً كل يوم إلى " الزاوية " . كررت على الشيخ مرات ومرات أنني يمكن أن أغرس بعض كلمات الأبجدية في مخ حمارة صغيرة على أن أغرسها في مخ تلك الطفلة ، وكنت كل مرة أنال ضربة بخيزرانة أو توييخاً علياً . كنت أنا بدوري أقسو على الصغيرة بالكلام والتقريع وأؤكد لها أن أي أتان يمكن أن تفهم بعد المرة المائة ، ولكنني لم أرها قط تهتم بكلامي بل كأن التقريع كان موجهاً لإنسان غيرها .

أخيراً طفح الكيل عندي وأعلنت لنفسي أن تلك الطفلة غير قابلة للتعليم وأنني لن أقوم بتدريسها بعد الآن ، وحيث لم يكن هناك شيء آخر أؤديه بالكتاب غير معاناتي مع ذات الشعر الكستنائي المجعد فقد مكثت في المنزل وأعلنت العصيان . لم يطل اعتصامي في البيت فقد أرسل الشيخ من يخبر والدتي أنني هارب من الكتاب وأسرعت الوالدة وأخذتني بنفسها ورمت بي بين يدي الشيخ الذي ازداد وجهه احمراراً مع تزايد غضبه مني وأشار إلى اثنين من أقوىاء التلاميذ فهما الإشارة في الحال وقاما برفع رجلي إلى أعلى وانهاال الشيخ عليهما بخيزرانه ، وكانت المرة الأولى والأخيرة التي ذقت فيها ألم الفلقة .

في إحدى زياراتي الحديثة للقريتين حاولت أن أتعرف على تلك التي كانت طفلة والتي عوقبت بسببها ولكن أحداً لم يدلني عليها لأنني لا أذكر اسمها ولم يميزها لدي في تلك الأيام البعيدة إلا غباؤها المطلق وشعرها المجعد ولم تكن هاتان الصفتان لتدلا على امرأة تجاوزت الآن الخمسين من عمرها ولم يعد شعرها مجعداً! . .

يتيم بأحضان خالي

عندما قررت تسجيل هذه الذكريات عن حياتي عزمت من البداية على أن أكون أميناً وصادقاً في ما أكتب ، وعزمت أيضاً على ألا أكتفي بتسجيل ما وقع لي وللمقرئين من حوادث ، وصادفنا من مواقف ، بل أن أتوسع في تسجيل بعض مشاعري وتفاعلات نفسي سواء ما مر منها سريعاً أو مر وئيداً وبقيت آثاره محفورة في خبايا النفس إلى الآن . من العلامات البارزة في حياتي والتي تركت بصماتها الدائمة على شخصيتي هي أنني نشأت يتيماً ، لقد مات أبي وعمري لا يتعدى سبع سنوات ، وهي سن لا يدرك المرء فيها فداحة المصاب الذي يسببه الموت . ودعني أقل هنا -ولا أقصد أن أستدر عطف القارئ- إن أكبر مأساة تقع لإنسان هي موت أحد أبويه وهو لا يزال صغيراً ، لا أذكر شيئاً عن حياتي مع والدي ولكن أذكر جيداً عندما مات . . أذكر أننا ونحن عائدون من المقبرة أنني كنت أتحدث مع بعض أقراني من الذين حضروا الدفن معنا وسرعان ما نسيت ما أنا فيه وأخذت أضحك مع صديقي بصوت عال . . ثم لم ألبث أن تذكرت أن أبي قد مات وأن عليّ أن أبكو حزناً متجهماً . . ولكن سرعان ما عدت مرة أخرى إلى الضحك والمزاح وكأن شيئاً غير عادي لم يحدث .

لم أكن قد بلغت السن التي أستوعب فيها فداحة المصاب الكبير الذي ألم بنا ، فقد مات والدي وأكبر إخواني كان لا يزال ينطبق عليه وصف اليتيم ، ولست متأكداً أن القارئ يستطيع أن يتصور ما يمكن أن يكون عليه

حال اليتيم في تلك الأيام العجاف ، إذ يصعب على من لم يمر بالتجربة أن يدرك أبعادها وما يتخللها من معاناة بسبب شظف العيش وضيق ذات اليد .

كان أقرباء والدتنا أشد فقراً منا وأقل حيلة ، وكان على الكبير والصغير أن يسعى في طلب العيش واتقاء الفاقة . يروى عن واحد من السابقين - ولعله الخليفة الراشد علي بن أبي طالب - أنه قال : " لو كان الفقر رجلاً لقتلته " ، وأنا لا أشك للحظة واحدة أن كل فقراء الدنيا يشاركون الخليفة الراشد أمنيته تلك . لا يوجد شيء في الحياة أسوأ من الفقر ، ولا يوجد شيء يحول الحياة إلى كابوس دائم من الحزن والشقاء مثل الفقر . وعلى الرغم مما كتب وقيل عن فلسفة الصبر على الشدائد والرضا بالحياة حلوها ومرها والادعاء بأن الغنى لا يجلب السعادة إلى آخر ما هنالك ، إلا أن الفاقة شيء كرهه وعدم المقدرة على توفير ضروريات الحياة شيء يجلب للنفس التعاسة والحزن . وأرجو أن يفهم القارئ هنا أن ما أعنيه هو الفقر الحقيقي الذي يعاني من جرائه الناس ألواناً عديدة من الحرمان وعدم الحصول على الحد الأدنى من المعيشة الكريمة ؛ الفقر الذي لا يجد رب الأسرة ما يقيم به أود أولاده ، الفقر الذي يعيش الصغير تحت وطأته في حالة حرمان دائم فلا يتمتع يوماً بثوب جديد مثلاً ولا بقرش يشتري به ما تتوق إليه نفسه ، ويعيش الكبير من جراء ذلك في غم دائم . هذا هو الفقر الذي أقصده ، والذي عشته عندما كنت صغيراً ، والذي كلما ذكرته تخرج من أعماقي كلمات الحمد والشكر لله تعالى الذي استبدل تلك الحياة الماضية حياة فيها الكثير من النعم نعجز عن أن نوفي ما لله تعالى من حق الشكر عليها مهما حاولنا . كنت مثلاً أتمنى أن ألبس ثوباً جديداً في المناسبات ، ولكن نادراً ما كانت تلك

الأمنية تتحقق؛ وإذا حدث وتحققت فإن ذلك كان يتم في الغالب في أحد العيدين، ولم يكن يحصل في كل عيد أو حتى في كل عام. الأثواب التي كنت أرتديها كانت في الغالب بقايا ثياب أخي صالح تحال إلي عندما تصبح أصغر من حجمه بعد أن تعدّل بعض الشيء لتناسب جسمي. لم يكن ذلك يزعجني كثيراً، إنما الذي كان يضايقني حقاً هو الرقع التي كانت والدتي رحمها الله ترتق بها ما تمزق من الثوب دون أن تكون في الغالب من نفس لون قماشه. كانت الأثواب الجديدة تفصل غالباً من الخام السميك لتعيش أطول مدة ممكنة.

وكانت "الكشخة" الحقيقية تحصل عندما يؤتى بثوب الخام وينقع لمدة أيام، ولعلها أسابيع، في منقوع من قشر الرمان. كانوا يجمعون قشر الرمان ويضعونه في وعاء كبير ويصبون عليه ماء ثم يأتون بالثوب الخام الجديد ويغطسونه فيه. كان الثوب بعد هذه العملية يكتسب لونا عجيباً لا أعتقد أنه يوجد له مثيل الآن بين كل الأصباغ الحديثة، كان لوناً فاقعاً شديداً الاصفرار. ولكن الأغرب من اللون هو شكل الثوب نفسه الذي يصبح بعد أيام من غمسه في ذلك السائل مثل بقعة من الأرض الوعرة التضاريس، إذا نظرت إليها من خلال صورة التقطت بواسطة قمر صناعي يحلق على ارتفاع شاهق، أو إذا شئت مثل ذلك الجزء من الكرشة المغطى بالخرافيش عندما تخرجه للتو من بطن خروف مذبوح. وحيث إن المكواة كانت في تلك الأيام اختراعاً لم يصل بعد إلى القريتين فقد كان الأولاد يلبسون تلك الثياب كما هي. وكم كانت سعادتني عارمة عندما أعدوا لي ذات يوم ثوباً على الطريقة المذكورة. وحين ارتديت ذلك الثوب الأمنية وخرجت به إلى طرقات الحارة أسير متبخرأ في عجبٍ كانت الدنيا تكاد لا تسعني من شدة الفرح.

شيئاً فشيئاً بدأت كلمة "يتيم" تطرق مسامعي ، كانت هي الصفة التي اقترن بها اسم منصور بن محمد الخريجي في أذهان الناس . فكانوا يستعملون الكلمة أحياناً بشعور صادق من العطف ، وأحياناً أخرى كحقيقة لا تعني لقائلها شيئاً كثيراً . ومن يظن أن الصغير لا يزن كلام الآخرين مدركاً لمغزاه ولما يحمله من معان ومختزناً ذلك كله في ذاكرته فهو واهم . وإذا أردت الدليل على صحة ما أقول فما عليك إلا أن تجرب فقط أن تقول لحفيدتك مثلاً أو لابنتك أو لابنك أو لصغير لا يزيد عمره على ثلاث سنين إنك غاضب عليه أو عليها ، وإنك لا تحبه أو لا تحبها وانظر ماذا تكون النتيجة ! سوف يبادلک الصغير نفس التجهم والغضب الذي تدعيه خاصة إذا لم يكن هناك سبب لغضبك هذا ، وسوف ينفجر بالبكاء ، وعليك بعد ذلك أن تجد الأسلوب الأمثل لاسترضائه وإعادة البسمة الحلوة إلى محياه ، وقد قيل : إن العلم في الصغر كالنقش على الحجر ، وهذا صحيح بدون شك ، وينطبق أيضاً على كثير من الانطباعات والتجارب التي تختزنها ذاكرة الصغار في علاقاتهم بأهلهم والمجتمع من حولهم .

قد لا ندرك دائماً مدى ما تتمتع به ذاكرة الطفل من قوة ، إن ما يجري لنا أو يدور حولنا ونحن صغار يحفر بقوة في الوجدان ولا تنال منه الأيام والسنين . . وما شخصياتنا كلها إلا مجموعة من حوادث وتجارب عشناها أطفالاً ، يضاف إلى ذلك طبعاً مقومات الشخصية التي تولد مع الإنسان والتي يختارها الله تعالى له ساعة خلقه في رحم أمه .

أقدم شيء أذكره في حياتي هو ليالي الشتاء القارس البرودة حيث كان

أفراد العائلة يلتفون حول موقد النار الكائن في ركن من أركان الغرفة . كنا نتكوم في المكان الصغير على شكل نصف دائرة تتلاصق أجسادنا الصغيرة بعضها ببعض طلباً للدفء ، كانت تلك هي السويغات الحلوة التي ننتظرها جميعاً . وكان الشعور بالتقارب العائلي والانتماء هو الذي يعطينا القوة لتحمل شظف العيش وقسوة الحياة وقلة ما تجود به علينا ، ربما جعلني كل هذا أفضل فصل الشتاء على بقية فصول العام ، وأفضل الليل على النهار .

يطلع النهار ويأتي معه الذهاب إلى المدرسة بالنسبة للمحظوظين الذين تهيات لهم أسباب الدراسة ، أما بالنسبة للآخرين الأقل حظاً فهم ينتزعون أنفسهم بصعوبة شديدة من فرشهم الدافئة لكي يتجهوا إلى أعمال أشق على الجسم من الدراسة . . أعمال جسيمة تحتاج إلى بذل مجهود يكون غالباً أكثر مما يستطيع الطفل أن يتحمله . . نعم فبعض الأولاد لم يعرف باب المدرسة أبداً في ذلك الزمن الذي أكتب عنه والذي يبعد عنا الآن بحوالي نصف قرن! . . كانت الحياة في معظمها قاسية لا ترحم ، وكان حتى على الصغار من أبناء العائلة أن يساهموا في تهيئة أسباب المعيشة للأفواه التي تحتاج إلى القوت لتبقى على قيد الحياة .

كان وضع عائلي اجتماعي يحتم علي بعد أن أعود من المدرسة أن أحمل فأساً ليست بالصغيرة وأتوجه بها إلى خارج البلدة لاقتلاع بعض الجذور والحشائش لاستعمالها مؤونة للموقد في المساء ، أو لجلب بعض الحشائش لعلف شاة أو حمار . كان ذلك كابوساً ثقيلاً ما أطقته قط ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فأنا - حسب ترتيب أسرتي - كنت ثاني ولدين ، ولا

أحد يتوقع أن تذهب فتاة للاحتطاب أو لغير ذلك من المهام الصعبة التي على الرجال والأولاد أن يقوموا بها . وأنت إذا كنت الطفل الثاني ستري أن عليك أن تخضع وألا تناقش لعدم جدوى المناقشة ، وعلى الولد الأصغر يقع عبء أداء الواجبات التي تكون دون كرامة الأخ الكبير . هذا طبعاً حسب مفهوم التربية المتوارثة والمقبولة دون جدال ، لا شك أن أخي الأكبر كان له نصيب الأسد من العمل الشاق الذي كان يأخذه بعيداً عن القرية في طلب العيش مع أنداده من اليافين . وقد يغيب ليلة أو اثنتين في طلب حمل من الحطب ، أو ربما غاب أياماً طويلة في فلاحه أرض بعل أمطرت وأصبحت جاهزة لبذرهما بعد شقها بالمساحي التي تجرها الثيران أو الحمير .

لم أكن قد بلغت السن التي تؤهلني لمرافقة أخي الكبير حينما كان يقوم بمثل هذه المهمات ، وعلى الرغم من ذلك فقد اصطحبني مرة إلى واحدة منها ، وهي فلاحه أرض وتهيئتها للزراعة . رأى هو ومن معه من الكبار أن أقوم أنا بجلب الماء لهم من مكان يبعد بضعة كيلومترات عن الأرض التي يفلحونها . كنت أقفز فوق ظهر الحمار مع بزوغ الشمس متجهاً إلى العين التي أستسقي منها والتي تبعد عن الموقع بحوالي سبعة كيلومترات . لم يكن في الرحلة ذهاباً وإياباً ما يسبب لي أو لذوي أي قلق لولا أن بعض الجيران ممن كانوا أيضاً يقومون بتهيئة أرضهم للزراعة كان لديهم كلب شرس ضخم ، وكنت ولا أزال أخاف الكلاب وأكره أن أقرب منها ، خاصة تلك التي يلتمع في عيونها بريق الشر ؛ ولما كان من أكبر العيوب أن يخاف الرجل من الكلب فقد طويت خوفاً بين أضلعي ولم أفاتح به أحداً ، وقبلت القيام بالمهمة دون اعتراض .

صرت أذهب كل يوم لإحضار ما يحتاجون إليه من ماء، حيث أملاً قربة أو اثنتين وأتي بالحمل الثمين على ظهر حمار كسول يمشي الهويناء ويستغرق معظم النهار في الذهاب والعودة. كان ذلك الكلب الأشرف يودعني بنباحه الشرس عندما أبدأ رحلتي، ويستقبلني مكشراً عن أنياب حادة وكأنه يستعد للفتك بفريسة. كنت أستعيذ بالله من شره، وأتنفس الصعداء عندما أجتاز المنطقة التي اعتبرها ضمن مناطق نفوذه. سارت الأمور في البداية على ما يرام حيث كان الكلب يقابلني في الذهاب والعودة على الطريقة التي ذكرتها. وذات يوم بينما كنت عائداً بحماري، وهو يتهادى بحمله النفيس من الماء وأنا أسير مزهواً وراءه، إذا بالكلب -وكانه وجد أن الوضع زاد على ما يمكن التجاوز عنه- ينقض علي فجأة من الخلف وينشب أنيابه في فخذي. لم تكن الصدمة قاسية كما هو متوقع، لأنني كنت أنتظر شيئاً مثل ذلك سيحدث. ويظهر أن الكلب كان في المرات الأولى يختبرني فلما أحس أنه يمكن له أن يقرن تهديده بالنفاذ لم يتردد في الهجوم. لم أدخل في عراك مع الكلب لأنه نفذ فعلته وسارع بالفرار، والعجيب أنني لم أعد أراه أبداً بعد ذلك.

كان قائدنا وموجهنا في تلك الرحلة وغيرها من شؤون حياتنا وخاصة بعد وفاة الوالد هو خالي محمد فهد المحجل رحمه الله. وخالي هذا لو كان كل الأخوال مثله لما احتاج الناس إلى آباء!.. إن التيتم مأساة تترك آثارها على الصغار ولا يستطيعون منها هرباً إلا أن خالنا هذا كان قطعاً بمثابة أب لنا، كان يحاول ما استطاع من جهد أن يعوضني وإخواني عن فقد أبنينا. كان ذلك الرجل يفيض حباً وحناناً، لم يكن يفرق بيننا وبين بناته -لم يكن

له ولد- وكان يفعل ذلك بعفوية غير متكلفة وكأنما ذلك هو السلوك والشعور الطبيعي لمثله تجاه من هم مثلنا . ما إن توفي والدنا رحمه الله حتى غمرنا بحنانه ؛ لم يكن غنياً بل لم يكن حتى فوق خط الفقر . لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئاً سوى قوته البدنية وقدرته على تحمل الشاق من الأعمال التي لا يقوى على حملها سوى الأشداء من الرجال . كان رجلاً ضخماً يقارب طوله المترين وكانت له مشية مميزة ، فهو يمشي كالجمل . كما كانت له صفات أخرى يشترك فيها مع الجمل مثل اتساع الخطوة ورتابة الحركة والصبر على الشدائد ، ولهذا فقد كان يلقب بالجمل ! . . إلا أنه ولد ولا شك توأماً للفقر . فقد ولد فقيراً ، وترعرع فقيراً ، وكافح كفاح الأبطال ضد الفقر ، ثم مات أخيراً وهو فقير . لم يكن وضعه هذا على أي حال فائق الغرابة في مجتمعه ، ولكن إن وجد إنسان أكثر فقراً من غيره فهو خالي هذا . ومما زاد في عوزة أنه ابتلي بنا أنا وأخوتي وأمي -أخته- إضافة إلى بناته وزوجته . لم يكن يملك عقاراً أو أرضاً زراعية ، بل كان عليه أن ينحت الصخر ليوفر للأفواه الجائعة التي تعتمد -بعد الله - عليه قوت يومها . كان دائم السفر والتجوال في البراري والقفار محتطباً أو متنقلاً بين منازل البدو ومرابعهم يقايضهم بضاعته البسيطة ، ويحصل منهم على ما زاد عن حاجتهم من مؤونة وغذاء . كان يشعر بسعادة قصوى إذا ما رجع بمؤونة بضعة أيام يسد بها رمق الصغار الذين ينتظرون أوبته بعيون متلهفة .

كان خالي هذا من شجعان الرجال الذين لا نجد أمثالهم كثيراً أيامنا هذه بعد أن اعتاد الناس حياة الدعة والراحة . كان مسافراً يوماً على ظهر حماره قاصداً مضارب البدو في مكان ما في القفار ، وبينما هو يسير في ظلمة الليل

ظهر له ضبع ضخم في الطريق ، والضبع عادة عندما يلمح فريسته يبدأ في اختبار قدرتها على المقاومة ، اقترب الضبع من خالي وهو راكب حماره دون أن يحرك ساكناً! ثم اقترب أكثر فأكثر ليرى كيف ستصرف فريسته . بقي خالي ساكناً فوق دابته وعصاه التي لا تفارقه بيده ، وهي بالمناسبة عصا غليظة لها رأس محدب تستعمل في الدفاع عن النفس ، وهي بيد الشجاع بمثابة بندقية . ترك خالي الضبع يقترب ويقترب حتى كاد أن يلامسه وهو يمني نفسه بصيد سهل ! وعندما تأكد الخال أن الضبع اطمأن إلى أن الهدف سهل عاجله بضربة واحدة من عصاه أصابت منه مقتلاً .

عندما روى خالي القصة صباح اليوم التالي لأناس كانوا في الموقع الذي كان يقصده لم يصدقوا ما أخبرهم به ، ولم يقتنعوا أنه قتل الضبع بضربة واحدة من عصاه إلا بعد أن قادهم إلى المكان الذي حصلت فيه المواجهة ورأوا الوحش ميتاً! .

وفي مرة أخرى كان في رحلة من رحلات الشقاء التي أمضى عمره يعانيها ، وقد جن عليه وعلى رفاقه الليل في يوم شتاء اشتد برده وغزر مطره ، وكان القوم على مقربة من قصر الحير التاريخي في بادية الشام . وعندما أروا إلى المكان وجدوا ركناً صغيراً يمكن أن يقيهم من خطر المطر المنهمر . لجؤوا إلى المكان الضيق ، ولكنهم كانوا أكثر عدداً من أن يتسع لهم . جاء وقت النوم وقد بلغ بهم التعب مبلغاً ؛ وجدوا أنهم لكي يناموا جميعاً في المأوى الضيق كان على واحد منهم أن يتمدد فوق هوة عميقة كانت في يوم ما بئراً غنية بالماء . ولما دارت العيون في محاجرها بحثاً عن

الرجل الذي يخاطر بقضاء ليلة فوق فوهة البئر تقدم خالي فوازن بين طوله وفوهة البئر، وما إن تمدد فوق الهوة حتى راح في نوم عميق إلى الصباح.

وكان مسافراً في إحدى المرات مع أخي صالح وواجهتهما مضارب البدو، وجاء الليل وهطل المطر الشديد فطلب خالي من أخي أن يحضر بعض الأعشاب لإشعال نار يصطلون بها. كان الوقت شديد الظلام، وكان المطر ينهمر مدراراً، وكان البر موحشاً مقفراً وكل ما في الكون يبعث على الخوف والكآبة. وذهب الغلام ليحضر الحطب وهو لا يجروء على القول إنه خائف من الظلام الدامس في تلك الليلة التي غضبت فيها السماء، وأرسلت مطرها شلالات تفرع رؤوس من دفع بهم الحظ العاثر إلى التعرض لهياجها.

وما إن ابتعد صالح بضعة أمتار حتى لاح له نور من بعيد، بعد لحظات اتضح أنه ضوء سيارة كانت متجهة نحو القريتين. ولحسن حظه صادف أن اتجهت السيارة نحوه، ولما اقتربت أوماً بيده فراه سائقها وسأله عن الطريق إلى القريتين؛ لم يصدق أخي أذنه وسأل الرجل إن كان قد ذكر القريتين. ولما أجاب السائق أنه يقصد القريتين فعلاً لم يضع الفتى وقتاً طويلاً في التردد بل سأل صاحب السيارة أن يأخذه معه إلى القريتين. رحب هذا به طبعاً لأنه وجد رفيقاً ودليلاً في الوقت نفسه. وقفز الولد داخل السيارة ونسي خاله وما أرسله له. بقي خالي المسكين يبحث عنه طوال الليل، وإلى مساء اليوم التالي حين عاد إلى البلد وهو يبكي معتقداً أن صالحاً فقد أو أن الوحوش قد آتت عليه!..

وقصص أخرى كثيرة تُروى عن ذلك الرجل الشجاع المكافح الذي بقي يصارع الحياة فتصرعه في أغلب الأوقات . فهو لم ير من دنياه إلا جانبها البائس ، لم يعرف الدعة ولم يعرف لين الفراش ، كان يومه صراعاً وليله استعداداً لصراع جديد . لم يكن ينتهي من مهمة شاقة إلا ليبدأ بمهمة أخرى أكثر صعوبة ، كل ذلك لنيل ما يكفي فقط ليقيم أوده وأود أولاده وأولاد أخته . إلا أنه كان يعمل كل ذلك بنفس راضية قانعة وهمة لا تعرف اليأس . كان يخرج من بيته والأمل يحدوه وكأنه ذاهب لاصطياد كنز ، كان يعرف مسبقاً ما سوف يحصل عليه ، ولكنه كان يراه قمة الإنجاز . لم يكن يركض وراء ثروة أو غنى فقد كان هذا خارج حدود أحلامه ، كان عملياً وكان أقوى وأشجع من الأسد في الحصول على ذلك الحد الأدنى من العيش ، كان يرى أن ذلك حقاً طبيعياً له ولأولاده ، وكان مستعداً أن ينحت الصخر للحصول على ذلك الحق . . حق العيش .

لم يكن لخالي هذا - رحمه الله - أولاد ؛ كان له بنات فقط ، ولذلك بقي يكد ويكدح إلى أخريات عمره ، إلى الوقت الذي أصبح فيه غير قادر حتى على الوقوف على قدميه ! . . ياله من رجل صلب ! . . لكم تمنيت لو أنه عاش إلى الوقت الذي أستطيع أن أعوضه فيه عن جزء يسير من الآلام والمشاق التي عاناها من أجلنا ونحن صغار ليوفر لنا عيشة كريمة تدفع عنا ذل الفاقة .

طالما سرحت بي أفكارى وصورت لي أن خالي ما زال حياً ، وأني سوف أسافر إليه في سوريا ، وأني حين أسأل عنه يأتيني الجواب بأنه في البر

كما هو ديدنه يتجول بين مضارب البدو ، أو يحتطب ، أو يفلح أرضاً بعلية استعداداً لزراعتها . تصورت أنني أقصده حيث يكون ، وأفاجئه بوقوفه بجانبه ، وقبل أن يفيق من دهشته أكون قد دعوته للعودة معي إلى منزله في سيارة مريحة مؤكداً له أن أيام الشقاء قد ولت إلى غير رجعة ، وأن يديه لن تلمسا بعد اليوم محراثاً يجره حمار هزيل ! كانت أحلاماً جميلة لكنها لم تتحقق ، فقد مات خالي عندما كنت مبتعثاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة . رحمه الله وجزاه أجمل ما يجزي به عبداً صالحاً بخلت عليه الدنيا بمناعها فلم يحقد عليها بل مات عبداً شكوراً قانعاً بما قسمه له رب الأرزاق .

طفل المهمات الصعبة

طبعاً لا يعني انتهاء الشتاء وقدم الصيف نهاية العمل والسعي لطلب الرزق، فكل فصل له مستلزماته ومتطلباته، والسعي الدائم لطلب المعيشة هو ما يميز حياة أغلب البشر على أي حال. ذات صيف طلب مني أخي صالح أن أستعد لرحلة "تجارية" معه. كانت البضاعة عبارة عن صندوقين ملئاً عنباً ووضعاً على ظهر حمار كسول. كان علينا أن نبدأ رحلتنا في فجر أحد الأيام حتى نصل إلى مضارب البدو في ضحى اليوم نفسه، ولأن المسافة كانت كبيرة ولا يمكن قطعها في بضع ساعات فقد استقر الرأي على أن نسافر قبل اليوم المحدد ليلة واحدة على أن غمضي تلك الليلة في مزرعة تقع تقريباً في منتصف الطريق بين القريتين وبين مضارب البدو الذين نقصدهم. غادرنا البلد عصر اليوم السابق وبتنا ليلتنا في المزرعة المذكورة. ولأن صالحاً كان قلقاً، ولم يكن هو نفسه صاحب خبرة كبيرة في مثل تلك السفرات، فلم يمض سوى جزء يسير من الليل حتى هب قائماً من فراشه وأيقظني ظاناً أن النهار على وشك أن يتنفس، وأن علينا أن نبدأ الرحلة.

لم نكن نعرف الساعات في تلك الأيام!.. كان الاستيقاظ صعباً خاصة وأنني لم أتم إلا ساعة أو ساعتين، ارتديت ملابسني كيفما اتفق وسرعان ما أصبحت مستعداً لبدأ الرحلة، وبمساعدة بعض أصحاب المزرعة - وهم أبناء خالتنا - وضع أخي الحمل فوق ظهر الحمار ووجهناه الجهة التي نقصدها. وبدأنا الرحلة. كان حمارنا كسولاً وكان الوقت ليلاً شديداً الظلام لا يرى

الناظر خلاله أبعد من مترين أمامه ، وكان الجو كله يوحى بوحشة مخيفة . .
 بدا لي أن الحمار نفسه كان خائفاً فقد كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى! . .
 وعندما لم يستطع صالح أن يجعله يسير بسرعة أكبر طلب مني أن أسير أمامه
 لعل ذلك يشجعه على أن يغذ السير لنصل مبكرين إلى الوجهة التي كنا
 نقصدها . والعجيب في الأمر أنني عندما أفكر في القصة الآن لا أتمالك
 نفسي من الضحك ، لأن المكان الذي كنا نقصده كان قريباً منا لدرجة أنه ما
 كان علينا إلا أن نعبر بعض التلال التي كانت أمامنا لنجد أنفسنا بين مضارب
 البدو . ولكن وحشة الليل ، وسكون الكون من حولنا ، ووجودي مع أخي
 وثالثنا حمار أكثر خوفاً منا في وسط أرض قفراء ، كل ذلك جعل من
 الموقف شيئاً أشبه بمغامرة غير مأمونة العواقب .

عندما طلب مني أخي أن أسير أمام الحمار أسقط في يدي . كان ذلك
 الحيوان المسكين خائفاً ، أو هكذا على الأقل خيل إليّ عندما كان يسير في
 المقدمة ، أما الآن وقد أخذت مكانه وتراجع هو إلى الوسط ، فقد انتقل
 الخوف إليّ! . . وعلى الرغم من ذلك لم أجروء على الرفض أو الاحتجاج
 حيث على الصغير دائماً السمع والطاعة . . هكذا علمونا وليت أولادنا
 يحافظون دوماً على هذا التقليد المجيد . . سرت أمام الحمار وسار صالح
 خلفه . كان البرد قد بدأ يسري في أوصالي ، وكان الجو لا يزال يعكس
 صورة مخالفة تماماً للسماء فوقنا وقد أضاءتها آلاف النجوم التي أخذت
 تتلألأ والتي خيل إليّ وأنا أنظر إليها أنها تغمز لي الواحدة بعد الأخرى بمكر
 ودلال محاولة أن تسري عني بعض ما أعانيه من رهبة الواقع الذي أعيشه .

لم تكن هناك طرق مطروقة واضحة فنسلكها، بل كنا نتجه إلى مكان بعينه وصفوه لنا وعلمنا أن نسير في اتجاهه . ولذا فما إن طلب مني أخي أن أقود الركب الصغير حتى بدأت تدريجياً أحيد عن الوجهة المقصودة . وعندما أمرني صالح أن أرجع إلى مكاني السابق خلف الحمار على أن يسير هو أمامه سمعت وأطعت طبعاً، ولكن خوفاً الآن تضاعف إذ كنت دائماً الالتفات إلى الخلف خشية أن اختطف فجأة بواسطة غول يكون ماراً مصادفة من ذلك المكان، وتصح تحذيرات العجائز لنا نحن الأولاد من أن الغيلان الرهيبة تتربص بأي طفل يتعد عن أعين الكبار! . .

صحح أخي مسارنا واتجهنا الوجهة الصحيحة نحو خيام البدو . وما إن بزغت الشمس حتى كنا بين مضاربهم نوزع بضاعتنا ونسلم مقابلاً لها نقوداً، أو نقايضها بمادة غذائية أخرى نحتاجها مثل التمر . وحدث أثناء وجودنا في مضارب البدو أن مررنا بامرأة تجلس في صدر خيمتها، وقد أحاط بها أطفالها، ما إن رأيتني حتى استنكرت على أخي أن يُعرض أخاه الصغير لمشاق السفر، وبسرعة اشترت كل ما كان قد بقي من بضاعتنا حتى يسرع صالح - كما طلبت منه - ويردني إلى أمي .

هناك حكاية أخرى أحرص على ذكرها بسبب ما فيها من ذكرى مضحكة مبكية الآن على الرغم من أنها وقت حدوثها كانت مبكية فقط أو هكذا كانت بالنسبة لي . ذكرت في القصة السابقة أن المزرعة التي أمضيها فيها الليلة قبل استئناف الرحلة إلى مضارب البدو، كانت في حوالي منتصف الطريق بين القريتين ومضارب البدو وأظن أنها أقرب إلى البدو منها

إلى القريتين، وهي تبعد عن القريتين بحوالي خمسة عشر كيلو متراً. المزرعة هذه عبارة عن واحة صغيرة فيها ينابيع ضحلة هزيلة، إلا أن ما تجود به من ماء قليل ساعد على زراعة بعض البقول والخضار الموسمية ونمو بعض الأشجار. المنطقة ذاتها تسمى "الجباة" وكان يقوم على زراعتها والعناية بها أبناء خالتي، أما المزرعة ذاتها فهي تستمد جمالها وجاذبيتها من عذريتها وبعدها عن العمران، ولأنها بقعة خضراء في بر واسع شبه قاحل. كان ماؤها مورداً لأسراب القطا وغيرها من الطيور في النهار وللغزلان وبعض الوحوش المفترسة مثل الضباع في الليل. ولقد وقعت في حب الجباة منذ أن عرفتها لأول مرة في حياتي وأنا لا زلت طفلاً. كنت أنتهز أي فرصة لأرافق أحد أبناء خالتي وهم يروحون ويجيئون إليها. وحتى بعدما رجعت إلى القريتين لأول مرة بعد أن التحقت بجامعة القاهرة وسافرت في الصيف إلى سوريا، كان من أوائل اهتماماتي أن أزور الجباة حيث قضيت عشرة أيام لا تزال من أجمل ما أتذكر من أيام الشباب، فلا أجمل من أن يتحرر الإنسان من القيود والالتزامات الاجتماعية وينطلق حراً يتجول في وهاد وهضاب ويستريح تحت ظل شجرة قامت على حافة بركة ماء ضحلة واسعة طبيعية لم تعبث بها ولم تهذبها يد إنسان، بل نبتت فوقها الحشائش البرية التي حامت فوق وريقاتها الدبابير ذات الأجنحة المزدوجة، وارتفعت في سمائها العصافير تنشد شربة ماء وتزقزق جذلاً بعد أن تروي ظمأها. كنت أتجول معظم ساعات النهار في المنطقة وقد حملت على كتفي بندقية صيد أعدها لي ابن خالتي وأعطاني درساً مختصراً في كيفية استعمالها. كنت أرى أحياناً -وهنا أتكلم عن الجباة بعد عودتي إليها من القاهرة في عام ١٩٥٥م وليس

عندما كنت لا أزال بالقريتين - كنت أرى أحياناً قطاة أو اثنتين وأصوب بندقيتي نحوهما و لقد عرفت: لم يحدث أن أسقطت طيراً قط وأنا الآن سعيد بذلك ؛ لأنني من أشد معارضي الصيد بجميع أنواعه وفي كل الأوقات .

ولكن كان للبندقية عندي هدف آخر هو أن أزهو بها عندما أقرب من واحد من بيوت الشعر التي ينصبها البدو الذين يقيمون في بعض أوقات الصيف حول المناطق المحيطة بالجباة . كنت أتمنى دائماً أن تشاهدني فتيات البدو الرشيقات وأنا أحمل البندقية ؛ ولا أعرف إلى الآن إن حدث أن رأتهن إحداهن أم لا ؛ أما أنا فلا أذكر إلا أطيافاً كنت أراها تتحرك من بعيد ولم أكن أجروء على الاقتراب من القوم لأسباب كثيرة أحدها أنني أخاف الكلاب .

أعود إلى السبب الذي من أجله أتكلم عن الجباة في مراحل حياتي الأولى ، لا أعرف تماماً كم كان عمري وقت حدوث القصة التي أسوقها الآن ، إلا أنني - قطعاً - لم أكن قد تعديت العاشرة . كما لا أذكر كيف وصلت إلى الجباة ، إنما الذي أذكره أنني وجدت نفسي هناك وكان عليّ أن أقوم بتوصيل حمل كبير من الحطب إلى القريتين . الذي يحمل الحطب هو الحمار طبعاً وليس أنا . سألني أكبر أبناء خالتي إن كنت أخشى السفر بمفردي مع الحمار والحطب إلى القريتين . ولأنه من العيب أن يظهر الإنسان خوفه حتى وهو ما زال طفلاً فقد أكدت لهم أن السؤال بحد ذاته غريب إذ كيف يظنون أنني أخاف من مجرد السير في طريق بين لمدة أربع ساعات وبوضوح

النهار! . . وضع الحمل الضخم على ظهر الحمار وأمسكت أنا بطرفه السفلي حيث طالت يدي ووجهونا أنا والحمار نحو القريتين؛ سرت عدة أمتار فقط ونظرت خلفي ورأيت أبناء خالتي يديرون ظهورهم ويختفون داخل الحوش وهو المبنى الوحيد الموجود في الجبابة ويحتوي على غرفتين بدائيتين . أدركت فجأة أنني أصبحت وحيداً، وكنت أعرف أن طريقي هذا يأخذني عبر المنطقة التي تعيش فيها الضباع . صحيح أن الوقت ضحى والشمس ساطعة والقنابر ارتفعت في السماء تغني ألحانها الصباحية ، إلا أن كل ذلك في تلك اللحظة لم يكن له وجود عندي ؛ شعرت أن كل ذلك الفراغ الهائل من حولي أطبق على رقبتني وحبس أنفاسي بينما أنا أتشبث بطرف الحمل الذي كان الحمار ينوء به . لم يأت الخوف والرعب بالتدريج بل هبطا عليّ بسرعة صخرة تتدحرج من فوق جبل ؛ استطعت أن أمسك نفسي عن الانخراط في البكاء لبضع دقائق فقط حتى لا يسمعي الناس الذين تركتهم خلفي . وعندما تأكدت من المسافة التي تفصلني عنهم تركت لنفسي العنان ودخلت في نوبة بكاء حزين ؛ رحت أبكي دون توقف وأنا ممسك بالحمل أتعثر بخطواتي في الحجارة التي تملأ الطريق . كان بكاء صادقاً حاراً يخرج من أعماق قلبي ، لم أستطع ولم أحاول أن أسيطر عليه ؛ صرت أتلفت يمنة ويسرة وإلى الأمام أنتظر متى سأرى الضبع يسير بالقرب مني قبل أن يلتهمني . كان نحبي يزداد وخوفي يتضاعف كلما اقتربت من المنطقة التي تقطنها الضباع ؛ والغريب أنني كنت أكلم نفسي أثناء انتحابي ، أرثيها مقدماً على قرب نهايتي صاباً جام غضبي على الظروف التي لم ترحم سني . كان يتخلل بكائي صيحات خافتة أدعو بها أمي كي تأتي وتنقذني مما أنا فيه ،

ثم أعود وأتذكر أن أُمي حتى لو كانت معي فلن تستطيع حمايتي ولا حماية نفسها من الضبع فأرفع صوتي منادياً خالي . كنت أرسم في رأسي صوراً عديدة عن كيفية التهام الضبع لجسمي الهزيل وبأي جزء سيبدأ وليمته ، ولا شك أن صدى بكائي كان يتردد في الفضاء الخالي وخاصة في منطقة من الطريق قريبة من جبلين توأمين يطلق عليهما السن الكبير والسن الصغير ، حيث يكون صوت الصدى قوياً جداً ؛ وأحمد الله الآن أن الصدى لم يصل إلى أذني ضبع نائم فيوقظه ويقوم برحلة استكشاف ! .

الآن وقد مرت سنينٌ عديدة على قصتي هذه أكاد أجزم أن الحمار كان يرثي لحالي ! فقد سار ذلك المسكين بهدوء وتؤدة لم أعهدهما فيه من قبل ، فلم يتعثّر ولم يسقط الحمل من فوق ظهره كما يحدث أحياناً ، ولم يلجئوني إلى حثّه أو ضربه ؛ كان يسير ساكناً هادئاً وقد أرسل أذنيه إلى الخلف يستمع لبكائي الحزين ويشاركني الحزن هو أيضاً ، لأنه عاجز عن أن يخفف عني ما أعانيه .

عبرت منطقة الضباع ولم يظهر لي أي ضبع ، ومع ذلك فقد استمر بكائي نشطاً قوياً متواصلاً طيلة ثلاث ساعات ؛ ولم أتوقف إلا بعد أن صرت فوق ظهر حزم يشرف على القريتين . عندها توقفت فجأة عن البكاء كما بدأت فجأة ، ومسحت دموعي وما سال من أنفي بطرف كم يدي الطليقة وتنحنحت لأعيد أوتار البكاء إلى مكانها مع باقي الحبال الصوتية ومططت نفسي قليلاً ليستقيم جسمي بعد أن كان منحنياً ، و . . . ابتسمت وربّت على مؤخرة الحمار امتناناً " لتعاطفه " ومذكراً إياه أن رفاق السفر لا

يفشون الأسرار .

في المجتمعات القروية الفقيرة ، وعندما تكون الحياة قاسية والحصول على لقمة العيش صعباً ، يصبح كل فرد قادر على العمل مطالباً بأن يعمل ، ويكلف كل شخص بما يستطيع إنجازه من مهمات تساعد على تأمين رغيف الخبز . وبسبب صعوبة الحياة في تلك المجتمعات القروية وقسوتها فإن ثمة كل ذلك الكد والجهد لم تكن لتزيد عن رغيف عيش وقليل من إدام يساعد على ابتلاع اللقمة . كان ذلك هو غمط الحياة السائد بين الناس في معظم القرى والأرياف في الفترة مدار هذا الحديث ، لم يكن هناك شيء أكثر من ذلك ، فلم يكن كثير من الناس يتمتعون بحياة أفضل من تلك التي عشتها ، كان هناك قطعاً بعض أناس يعيشون بصورة أفضل وأهنأ نسبياً ، ولكن غالبية الناس كانوا متساوين في الفقر وضيق ذات اليد .

وكما ذكرت كان على كل فرد في العائلة أن يساهم بقدر ما يستطيع من مجهود في متطلبات الأسرة الحياتية ، وعادة ما كان الأبناء الذكور يرسلون للعمل في الحقول وغيرها وهم لا يزالون صغار السن . وكان التعليم يعتبر ترفاً لا يستطيع الكثيرون أن يوفروه لأبنائهم . لم يكن غالبية أبناء القرية يدرسون إلى ما هو أعلى من مستوى الابتدائية . وهذا ما كاد أن يحدث لي لولا أن قيض الله لي مصيراً مختلفاً كما سأبين فيما بعد ؛ وحتى قبل الحصول على الشهادة الابتدائية كنت أكلف كغيري من الأولاد بأعمال كانت في مقاييس اليوم ، بل ومقاييس كل الأيام ، أكبر من أن يحتملها صبي في مثل سني . وأرجو أن يدرك من يقرأ هذه السطور أن الحديث عن الماضي

هدفه فقط أن يدرك أننا اليوم أنهم - بحمد الله - يعيشون حياة هنيئة مترفة سهلة لينة غير مثقلة بالمسؤولية اللهم إلا مسؤولية الدراسة، وهي مسؤولية سيدركون بعد حين أنها أسعد وأجمل المسؤوليات التي سوف تمر عليهم ويخوضون تجاربها؛ كما سيدركون أن يوماً سيأتي يفتقدون فيه أيام الدراسة، ويحنون إليها متمنين لو أنها لم تنته. وقد منّ الله تعالى على أبنائنا بأن جعل الحصول على أعلى الدرجات العلمية وعلى المراتب العليا من المعرفة أمراً متاحاً، ولا تطلب من الدارس سوى شحذ الهمة، فالتعليم في بلادنا - والحمد لله، وفي كل مراحل - ميسر وفرصه متوفرة للجميع، وما على أبنائنا إلا أن يقبلوا عليه.

عندما تكون الحياة قاسية أصلاً يصبح الناس أيضاً قساة - ولو ظاهرياً فقط. فكم أمّاً تقبل الآن أن ترسل ولدها الصغير على ظهر دابة، وقبل بزوغ الفجر، وبالبرد القارس، ليحتطب في فلاة قفراء قد تأخذه عدة كيلو مترات بعيداً عن العمران؟ هذا ما كانت تفعله بنا أمهاتنا ونحن صغار. فكم من مرة ومرة كانت أمي يرحمها الله توقظني من لذيذ نومي في ليلة اشتد بردها لأهيب نفسي لرحلة جمع الحطب بينما الليل لا يزال يلف الدنيا بظلامه الدامس، والرياح تلفح الوجوه وكأنها السياط بللت أطرافها بماء ثلجي البرودة.

كان أصعب شيء على نفسي هو أن أنتزع جسمي الهزيل من بين طيات الغطاء الساخن، وأسلمه لجو الغرفة المعتم الشديد البرودة والتي تكاد تسمع أنين جدرانها العارية وهي تتأوه من قسوة سياط ريح الشتاء القاسية التي

تصفعها وهي تحاول أن تجدد لنفسها منفذاً من خلال شقوق الباب العتيق الذي يفتح مباشرة على فناء الدار . كنت أستوي فوق المرتبة وأنا لا أزال مغمض العينين أرتعد من زمهرير قبيل الفجر الذي يصفعني حالماً أستوي جالساً، كانت اللحظات تمر سريعاً وعليّ أن أتهياً لأبدأ يوم عملي هذا مع باقي الصبية الذين كان حظهم كحظي في مثل ذلك الصباح الكئيب .

كانت تمر لحظات قبل أن أعي تماماً أين أنا وماذا يراد مني ، وما إن أدرك ما يواجهني وما عليّ أن أقوم به ، وأنه لا مفر من مغادرة فراشي الدافئ ، حتى أبدأ في استدعاء كل ذرة جهد في كياني لأنتزع نفسي من الفراش ؛ هل بالإمكان التخلص من هذا الكابوس بادعاء المرض أو باختلاق عذر ينجيني من ذلك الواقع الحزين . . ؟ من تجاربي السابقة كنت أعرف أنه لا فائدة من المماطلة . . كان الأسلم أن أستيقظ ولو اضطررت إلى فتح عيني بيدي . . . أغادر السرير في الظلام ، وتتركني والدتي بعد أن اطمأنت إلى أنني قد صحوت ، وأبدأ البحث عن ملابس لي وهي قليلة ومحدودة ، متوخياً أن يكون بين ما أرتديه شيء ثقيل يقيني عضات وحش البرد الذي يترصد لي خارج الغرفة . ولكن تبقى دائماً مشكلة قدمي والأطراف عموماً هي أكثر أعضاء الجسم تأثراً عندما يتعرض الإنسان لبرد شديد . ومعروف أن البرد يجعل أعضاء الجسم والأطراف خاصة قاسية صلبة صعبة الحركة ، ولهذا كنا نحن الصبية نتبارى في ذلك الجو القارس البرودة من منا يتمكن من أن يبرز يده من مخبئها وأن يللم كل أصابعه معاً!! . . كان أهلونا عموماً يعلموننا الصبر وقوة الاحتمال ، وألا نفتح أفواهنا بالشكوى أمام الآخرين ، فليس من الرجولة أن تشتكي من البرد أو من أي مشاكل أخرى ، ولكن على

الرغم من كل المثل الفاضلة التي حاول الأهل أن يغرسوها في نفوسنا فلم يكن بيننا في فجر يوم كالذي وصفته من أحد إلا وتمنى من صميم فؤاده لو لم يخلق حياة كهذه تحرمه من متعة النوم بقية ليله في دفء الفراش ، وتفرض عليه أن يسري مع خيوط الفجر الأولى وسط الصقيع وعاتيات الرياح في طلعة أخرى ضمن هذا الصراع الذي لا ينتهي من أجل لقمة العيش . ولا بد لي هنا أن أضيف أن حزن أُمي وهي تدفع بي في مثل ذلك الصباح إلى العمل في جو عابس مكفهر كان صامتاً كما أنه كان أكثر عمقاً وإيلاماً من معاناتي التي كنت سرعان ما أنساها بعد أن يدفأ الجو وأستقبل البر الرحب .

لا تمر بضع دقائق إلا ونكون قد امتطينا ظهور الحمير التي تكون هي الأخرى لا شك تعاني من شدة البرد وقسوة الطقس خاصة في رحلة الذهاب التي غالباً ما تكون الأرض خلالها متجمدة صلبة يكثر بها انزلاق حوافرها فتسقط مع حملها . كانت الرحلة تستغرق بضع ساعات ، وكانت عادة تضم عدداً من قاصدي الاحتطاب يشكلون قافلة صغيرة تبدأ باختراق الحواري الضيقة ثم ما تلبث أن تخرج إلى الخلاء . وعلى الرغم مما هو معروف عن الحمير من عناد وغباء فإنها ، وإن كان بعضها يجنح إلى الحران أحياناً قبل الانضمام إلى المجموعة ما إن تنتظم في قافلة حتى تبدو وكأنها في سباق غير معلن فتسرع الخطى دون أي حث ظاهر من ركابها . أما نحن الصبية الذين شاء حظنا أن نكون فوق ظهورها فلا نكاد نبلغ أطراف القرية متجهين خارجها حتى تأخذنا حمى الصراع الخفي الدائر بين الحمير فنأخذ من جانبنا بهمزها وحثها على المزيد من الإسراع دون أن يبدو علينا أننا ندرك

التنافس القائم بين مطايانا . ويدب الحماس في النفوس وشيئاً فشيئاً ننسى الألم والتعاسة اللذين نعانيهما - ونسيان التعاسة سهل عندما لا نكون وحدنا التعساء - وتعود الروح فتدب في أوصالنا كلما قارب الليل على الانتهاء وبدأت تبشير النهار بالقدوم . وأجمل ما ترى العين هو منظر الشمس وقد بدأت ترسل أشعتها الذهبية فوق الروابي والهضاب وفوق أغصان الأشجار العالية البعيدة . إنه منظر جميل ، ولعلي الآن - وأنا أكتب عنه بعد كل هذه السنين - أتخيله أجمل وأكثر رومانتيكية . في تلك الأيام التي أتحدث عنها كنا نعتبر الجمال في منظر كهذا الذي أتحدث عنه قضية مُسلماً بها ليس فيها جديد وليس فيها ما يثير ، فهذا هو الجو الذي عشنا فيه وهذا هو ما تفتحت عليه عيوننا .

ونغذ السير بركابنا وقد أشرقت الشمس وبدأت ترسل دفئها إلى أطرافنا المتجمدة ، وشيئاً فشيئاً تعود الحيوية ويبدأ كل واحد منا يجرب أن يحرك أصابع قدميه حيث هي دائماً الأكثر برودة ، وعندما نصبح قادرين على تحريك أصابع أيدينا يخرج كل منا ما معه من زاد لإفطاره . لم يكن الفطور يزيد عن رغيف من الخبز يكاد يكون مثلجاً ، والمحظوظ من كان معه أيضاً شيء يؤتدم به مثل حبة بندورة أو رأس من البصل مع بعض حبات من الزيتون ؛ ولعل شبابنا الآن يظن أن مثل هذا الطعام لا بد أنه كان غير مستساغ أو غير لذيذ ، إلا أنه لا شيء أبعد عن الصواب من مثل هذا الظن لأن الحكم على جوانب الحياة أمر نسبي يختلف مع اختلاف الحال والأشخاص . والذي أفهمه من النسبية هو أن الناس ينظرون ويقيمون نفس الأشياء بنظرات وتقديرات مختلفة ، فأنا وأنت نختلف حول تقدير الشيء الواحد

نفسه ، وهذا التقدير أيضاً يختلف الشخص نفسه حوله في أوقات مختلفة .
وإذا كنا بحاجة إلى مثال لإيضاح ما أعني فإن الساعة الفخمة التي تطوق
معصمي الآن مثلاً لا تعطيني أي شعور بالسعادة فهي قد أصبحت شيئاً
عادياً ، مجرد آلة لمعرفة الوقت ، بينما الساعة البدائية التي ملكتها لأول مرة
أعطتني من السعادة ما كدت أعجز عن استيعابه ، وقس على ذلك الأشياء
الأخرى التي نمتلكها .

أعود إلى رغيف العيش البارد وحبات البندورة لأقول إن اللذة التي كان
يشعر بها كل واحد منا أثناء تناولها ممتطين على ظهور الحمير - هذه اللذة
كانت أقصى ما يمكن أن يتمتع به إنسان في عملية الأكل ، وأن مقارنتها الآن
بأي نوع من الطعام الفاخر لن تكون ذات معنى . قد يسأل سائل عن السرف في
تلك المتعة - متعة تناول خبز بارد مع حبة بندورة أشد برودة منه !! السبب
بكل بساطة هو قلة الطعام . . نعم ، فالطعام في تلك الأيام لم يكن بالوفرة
التي نعرفها اليوم والتي نشأ عليها أبنائنا ، ولهذا فنحن مهما حاولنا فلن
نستطيع أن نؤدي بالكامل واجب الحمد والشكر لله تعالى على ما حبانا به
من نعم كثيرة جداً لا يمكن للإنسان أن يعرف قيمتها ما لم يكن قد عاش أيام
القلة والحرمان . لم يكن الطعام في ذلك الوقت من حيث الكثرة والتنوع
بالصورة التي نعرفها اليوم ، على الأقل هذا ما عشته أنا وأعرفه ، وهو أيضاً
ما عاشه كثير من أبناء جيلي . كنا نجد أي طعام لذيذاً مهما كان متواضعاً ،
وكنا نأكل ما يقدم لنا ، وغالباً ما كان المعروض يقل عن الحاجة الفعلية مما
كان يستدعي تنبيه الكبار من الأولاد إلى ضرورة ترك بعض الطعام للصغار
الذين لا يستطيعون مجاراة الكبار في سرعة التهام الأكل .

لا بد أن أذكر هنا أيضاً ما كنت أشعر به من السعادة والبهجة والقناعة عند حضوري من المدرسة إلى البيت في فترة الغداء، وكانت الدراسة في المرحلة الابتدائية على مرحلتين: صباحية وبعد الظهر، حيث يرجع الأولاد إلى بيوتهم لتناول وجبة الغداء ثم يعودون إلى المدرسة. كنت أعود إلى المنزل لهذا الغرض وكلي أمل أن أجد مثلاً شيئاً مطبوخاً حاراً أتناوله، ويمتلكني الفرح عندما أرى بخاراً يتصاعد من قدر على نار لظني أنه لا بد وأن يكون أكلة تطهى لأفاجأ بأن ما في القدر لا يعدو أن يكون ماء لغلي الملابس المتسخة! . . كنت في مثل تلك الحالات أكتفي بما تجده والدتي من طعام بسيط تضعه أمامي. ولكن حتى لو لم أجد شيئاً مطبوخاً طازجاً فقد كانت أميتي الثانية غالباً ما تتحقق، وهي أن تأخذ والدتي قليلاً من السكر البني - وكانوا يوزعونه أيام الحرب العظمى الثانية بثمان زهيد أو ربما بدون ثمن - وتذيبه في الماء ثم تعطيني شيئاً من الخبز لأجعل من الأول إداماً للثاني!! كانت تلك أكلة لذيذة جداً. لا أزال أذكر أن ذلك المحلول السكري أشهى ألف مرة من أي شيء آكله الآن. بل لم يعد مذاق الطعام بنفس اللذة التي كنت أحس بها وأنا صغير، وهذا على الرغم من أن السكر كان بني اللون داكناً تراه ينساب في الوعاء ويسيح وكأنه يشتهي من الوهن والضعف! .

كان تناول الفطور هو الجزء السار من الرحلة حيث نبدأ بالتهام ما حملناه معنا من طعام، وقد بدأت الشمس ترسل بأشعتها إلى مخلوقات الله على الأرض، ومع الأشعة كان يأتي الدفء الذي سرعان ما كنا نحس به يسري في أوصالنا فنصبح قادرين على تحريك أصابعنا بحرية. وما إن نشعر

بالدفء والراحة حتى نبدأ في الحديث والحكايات والضحك وكأننا مقبلون على فرح! . . ولكن هذا الشعور لا يطول . . فما هي إلا سويعات قليلة حتى نكون قد بلغنا المنطقة التي نقصدها والتي تتوافر فيها جذوع الأشجار وبعض النباتات الأخرى التي تصلح وقوداً في مدافئنا . ويتوقف الركب ويتفرق الصبية ويقصد كل منهم إلى بقعة يحتطب فيها . ومع انتصاف النهار يكون كل محتطب قد جمع ما يكفي لتعبئة " الخيشة " التي أحضرها والتي تشبه الخيمة الصغيرة! غالباً ما كان يحدث أن تضم المجموعة واحداً أو أكثر من الكبار الذين يعرفون الأماكن الصحيحة للاحتطاب ، ويعرفون كذلك الطرق والأماكن الآمنة ، وهم الذين عليهم الاعتماد في النهاية لتأمين العودة بالركب سالماً إلى القرية . وينتهي جمع الحطب ويعبأ المحصول في تلك " الخياش " الضخمة ويتعاون الجميع على تحميلها فوق ظهور الحمير .

يأتي بعد ذلك الدور الصعب وهو إيصال هذه الأحمال إلى القرية . وحيث إن الأحمال الكبيرة لا يمكن أن تثبت فوق ظهور الحمير دون أن يمسك بها صاحب الحمار فلا بد إذن من أن يلازمها صاحبها من اللحظة التي تُحمَل فيها إلى أن تصل إلى نهاية الرحلة في المنزل . ولك أن تتصور منظر المحتطبين وقد استوت الأحمال فوق ظهور الدواب وأمسك كل واحد بطرف حملة وسار بجانب حماره وكأنه نقطة في نهاية علامة استفهام كبيرة . وتبدأ رحلة العودة التي تستغرق عادة ما بين ثلاث ساعات إلى أربع ساعات ، ولا تسأل عن التعب والإرهاق اللذين يتتابان الصبي وهو متعلق بطرف الحمل الضخم لا تكاد أطراف أصابع قدميه تلامس الأرض ولا يستطيع أن يفلته ولو للحظة واحدة لثلا يسقط! . كنا نصل إلى البلدة وقد

تصلبت شرايين أيدينا فلا يكاد الواحد منا في نهاية الرحلة يقوى على ثني أو تحريك ذراعه بعد أن اتخذت وضعاً مستقيماً إلى أعلى . ويصل الركب إلى نهاية رحلته وقد شعر كل صبي بأنه رجل مهم يعمل ويكد ويعرق ويساهم في معاش أسرته . . إنه شعور لذيق يبعث على الفخر والاعتزاز ليته كان يدوم ، فما إن تبدأ كومة الحطب تتناقص بسرعة مؤذنة بقرب النفاد حتى يبدأ هم التفكير في القيام برحلة أخرى ، وتكرر المعاناة نفسها ولا تزول إلا بانقضاء فصل الشتاء ومقدم الربيع ومن بعده الصيف حيث الدفء فلا حاجة إلى نار أو حطب .

كانت البيوت في السابق صغيرة ضيقة الغرف سيئة التهوية ، وحتى في حال وجود مساحة كبيرة من الأرض فإنه كان يُكتفى ببناء بعض الغرف الصغيرة لإيواء قاطني الدار ، كانت تضاف غرف أخرى حسب احتياج السكان فكان إذا تزوج أحد الأبناء أضيفت غرفة جديدة له ولعروسه . لم نكن نسمع أن أحداً من غير المتزوجين يمتلك غرفة خاصة به فهذا لم يحدث إلا في عصرنا الحاضر ، كان ذلك من الكماليات التي لم نكن نحلم بها . وللناس في القريتين تقليد لطيف لا أدري إن كان لا يزال سائراً إلى الآن أم أنه تغير بتغير الزمن ، فهم إذا تزوج أحد أبنائهم قاموا بإعداد فراش للعروسين يجعلونه من عدد كبير من الطراحت ترص فوق بعضها البعض بحيث يحتاج الزوجان إلى مساعدة للصعود إلى أعلاها ! . . ولكن هذا الترف ما كان يدوم إلا ليلة أو ليلتين هما كل شهر العسل ، وعلى العريس أن يعود بعد ذلك إلى عمله وعلى عروسه أن تقوم بواجباتها المنزلية .

كانت عائلتنا كلها تعيش في غرفة واحدة في بيت صغير لا تتعدى مساحته مائة متر مربع ، كانت الغرفة واسعة بعض الشيء وتقوم مقام غرفة النوم وغرفة الجلوس والمطبخ في آن واحد . ففي الليل كانت ترص الفرشات بجانب بعضها البعض حيث يعرف كل واحد مكانه ، وفي الصباح تطوى وتعاد إلى الركن المخصص لها لتنقلب إلى ما يمكن أن نسميه عالم العائلة الصغير ، فهي للعائلة غرفة العيشة وغرفة الضيوف والمطبخ إلى جانب دورها الأهم كغرفة للنوم . كانت أمسيات الشتاء جميلة عندما نتجمع حول موقد النار الموجود بأحد أركان الغرفة ونستمتع بدفء ألسنة اللهب المنبعثة من الحطب المشتعل بينما تواصل الريح الباردة صفيها الذي لا ينقطع خلف الباب الموصل . وكانت المتعة كبيرة عندما يقرأ علينا أحد الكبار شيئاً من سيرة عنترة بن شداد أو من ألف ليلة وليلة أو من بعض كتب الأدب الشعبي الأخرى . وكم كانت تعمنا الفرحة كلما خرج عنترة سالماً من أزمة أو مبارزة حامية! . .

لم يكن الراديو قد انتشر في ذلك الوقت ، وإن وجد فهو عند قلة قليلة من الناس والغالبية لم تكن تعرفه ، ولذا فقد كانت التسلية في الأمسيات الشتوية تأتي من سرد الحكايات والقصص ، وكنت أنتظر بفارغ الصبر أحد الأقرباء من العائلة ليأتي في المساء ويقص علينا واحدة من حكاياته الكثيرة . كنت أجلس مصغياً بكل جوارحي ، وهكذا كان يفعل الصغار والكبار في الواقع . لم نكن نعرف السهر الطويل كما يفعل كثير من الناس الآن ، فقد كان المساء يبتدئ بعد غياب الشمس وينتهي حوالي الساعة التاسعة مساءً بتوقيتنا الآن . . وهو وقت قصير حسب مفاهيمنا الآن لكنه كان كافياً لسرد حكاية تمتد إلى ساعتين أو ثلاث .

كانت الإضاءة في الليل تعتمد على سراج يعمل بالكيروسين وله فتيلة ذات أحجام مختلفة، فالموسرون كانوا يستخدمون " اللبة غمرة أربعة " ، وهذه تعطي نوراً أكثر توهجاً من مثيلاتها ذوات المقاس الأقل . لم يكن السراج ذو الفتيلة العالية يزيد على ما نسميه اليوم " نواصة " ، ولأبنائنا الشباب الذين لم يعيشوا تلك الأيام أن يتصوروا أي ضوء يمكن أن توفره لمبة جاز صغيرة! . . أتمنى أن يجرب أحد شباب جيلنا الآن أن يشعل واحدة من تلك اللمبات ويرى ماذا سيحدث ؛ لن يستطيع أن يمكث في الغرفة دقائق قبل أن يفر منها أو يغلبه النوم . ولهذا لا نندهش الآن عندما نتذكر أننا كنا نخلد إلى النوم في وقت هو الآن بداية السهرة . فالنور الضعيف الناعس المنبعث من السراج سرعان ما يهدد الأعصاب المتعبة من شقاء النهار ويسلم الساهرين إلى نوم عميق .

كان سرد القصص والحكايات فناً ممتعاً له أهله الذين برعوا فيه وأصبحوا بفضل هذا الفن رياحين المجالس والسهرات ، كان الواحد منهم إذا أتى مجموعة من الساهرين في منزل ما هبّ الجميع إلى الترحيب به مصرين عليه أن يأخذ مقعده في صدارة المجلس ، كان يجلس وكأنه خالي الذهن لماذا دعي ولماذا أجلس في مكان الصدارة ولا يفتح فمه حتى تتعالى أصوات الكبار والصغار طالبة منه أن يتمتعهم بإحدى حكاياته المسلية . وبعد تردد مدروس يتنحى ، وينظر حوله ليرى أن العيون كلها متجهة إليه ، وأن المكان قد خيم عليه الصمت ، وعندئذ يبدأ بسرد حكايته . لقد اختفى هذا الفن الآن ، كما اختفت بعض العادات والتقاليد الأخرى التي كان حرياً بنا أن نحافظ عليها .

كيف كنا مثلاً ونحن أطفال نقضي أوقات فراغنا؟ لم تكن هناك كما ذكرت وسائل التسلية الحديثة التي كثيراً ما يكون ضررها أكثر من نفعها. كانت هناك أنواع كثيرة من الألعاب الرياضية التي تبني الجسم والعقل معاً. كنا مثلاً نلعب لعبة أشبه ما تكون بلعبة "البيسبول" الأمريكية، كذلك كانت هناك لعبة أخرى تشبه إلى حد كبير "الجولف"، إلى جانب العديد من الألعاب الأخرى التي لا أجد لها الآن شبيهاً، وكلها تتطلب مراناً ومهارة، وتعد من أنماط الرياضة التي حبذا لو تتولى رعاية الشباب إحياءها وتعميمها.

ومما أذكره جيداً الآن عن مرحلة الصبا أنه لم يكن أحد منا يلتقي بقرين له في مثل سنه حتى يقترح أحد الكبار جولة مصارعة!! والغريب أن يختفي كل ذلك من حياتنا وبهذه السرعة، فأنا لا أذكر مثلاً أنني طلبت من ابني نزار أو من أخيه إياد أن يصارع ندأله في مثل سنه عندما كانا طفلين طبعاً! والأغرب من ذلك أنني أرى أن جيلنا ومن أتوا من بعدنا يظهرون من الحرص والحنان على الأولاد أكثر مما ينبغي. طبعاً أنا لا أنكر دور المدرسة والنوادي الرياضية المنتشرة في أنحاء البلاد والتي تتكفل ببناء جسم الطفل كما تبني عقله، ولكن كما ذكرت أتمنى أن لا تموت أنماط الرياضة التي كنا نمارسها ونحن صغار وراثه عن أجيال سبقتنا.

لا أقول إن كل ما عرفناه وكنا نفعله في زمن مضى ينبغي أن يبقى كما هو، فهذا ضرب من المحال، ثم إن سنة الحياة هي التطور، فليس من المعقول مثلاً أن نجتمع الآن في سهرة لتُقصَّ علينا حكاية على غط ألف ليلة

وليلة، أو لتقرأ علينا قصة عترة أو سيف بن ذي يزن . . فهذه أصبحت الآن جزءاً من التراث، ويكفي أن لا ندعها تموت لتبقى جزءاً من الموروث الشعبي . أما بعض أنواع الرياضة فبالإمكان إحيائها ليمارسها أبناءنا في المدارس وفي صالات رعاية الشباب، ولا شك في أن راعي نهضة الشباب وأميرهم صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الذي نذر نفسه وجهده للنهوض بالرياضة وإنشاء جيل من شباب هذه البلاد الطيبة من ذوي الأجسام والعقول الصحيحة، لا شك في أنه سوف يستمر في بذل كل جهد ممكن لتحقيق أهدافه الرياضية السامية يساعده ويشد عضده شقيقه صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن فهد بن عبدالعزيز وكل الرجال الطيبين الأكفاء الذين يعملون معهما .

الموت يطرق باب المنزل الصغير

عاشت العائلة العربية قروناً طويلة متماسكة متلاحمة، كان ذلك جزءاً من التقاليد الموروثة، وكانت الظروف المعيشية أيضاً تساعد على ذلك التقارب والتماسك؛ فقد كانت الأسرة جميعها تعيش تحت سقف بيت واحد هو عبارة عن دار كبيرة تضم عدداً من الغرف تكفي لعموم أفراد العائلة. وكان الأبناء إذا أقدم أحدهم على الزواج أتى بزوجته لتعيش معه في غرفته ضمن البيت الكبير الذي يضم الجميع، كانت الألفة والمحبة تنمو بالعبادة الدائمة والمشاركة في الكفاح من أجل المعيشة؛ وكانت عائلتنا واحدة من تلك العائلات المتماسكة المتحابّة، جمع بينها وجود أفرادها الدائم مع بعضهم البعض، ومشاركتهم جميعاً في مقارعة قسوة ظروفهم الصعبة. ولا شيء يجمع القلوب وينمي الحب والعلاقة الحميمة بين الناس مثل مشاركتهم بعضهم البعض في السراء والضراء، ذلك أن مجرد انتماء الأفراد إلى أسرة واحدة لا يعني كثيراً ما لم ينشؤوا ويعيشوا معاً؛ ومثال على صدق ذلك ما شاهدناه على إحدى قنوات التلفزيون الأجنبية عن طفلة استبدلت بطفلة أخرى عند ولادتها، وعاشت الطفلة بين أفراد عائلتها التي ضمتها إليها باعتبارها ابنتهم؛ وعندما تكشف الحقيقة للطفلة التي أصبحت فتاة، لم يغيّر ذلك من موقفها أو شعورها نحو العائلة التي نشأت في كنفها، ورفضت أن تعود إلى أبويها اللذين أنجبها. . . ولم يكن ذلك شيئاً مستغرباً، بل كان هو المتوقع.

اتسعت الآن المنازل وصار كل فرد يعيش بمعزل عن الآخر ، فللولد جناحه أو غرفته ، وللفتاة كذلك ؛ ضعفت العلاقة تبعاً لذلك ولم تعد كما كانت سابقاً ، كان الفرد من العائلة إذا سافر مثلاً خرج لتوديعه أهل الحارة كلهم ، أما اليوم فلا يعرف باقي أفراد الأسرة الواحدة إن كان أحدهم حاضراً أم مسافراً ، وهذه ربما كانت الضريبة التي يدفعها الإنسان ثمناً للتطور والحياة العصرية .

أقول هذا لأدلل على مدى حجم المأساة التي يشعر بها باقي أفراد أسرة صغيرة يعيشون متقاربين متلاصقين متحابين ، كل فرد منهم يُكوّن جزءاً من كيان العائلة ، عندما يختطف الموت أحدهم . كان هذا ما حصل لأسرتي عندما كنا لا نزال بالقريتين ؛ كان عمري يومها لا يتعدى عشر سنوات ، وكانت لدي أخت تكبرني بحوالي ستين ، فتاة جميلة رقيقة لطيفة ؛ كانت بحق الزهرة العطرة التي يفوح شذاها على كل من حولها ، صامتة عندما يتحدث الجميع ، رقيقة كنسمة الربيع لا يكاد أحد يشعر بوجودها . فجأة مرضت ؛ لم يكن هناك طبيب يعالجها ، ولم تعرف البلدة في ذلك الوقت المستشفيات ؛ وراحت الوالدة رحمها الله تدور على الجيران وأهل المعرفة بحثاً عن وصفة طبية تنقذ بها حياة ابنتها ؛ وجاء بالوصفة المنشودة رجل ادعى أنها هي الشافية بإذن الله ، وأجبرت أختي المسكينة على شرب خلطة لا يعلم سرها إلا الله تعالى ؛ شربتها أثناء النهار ولم يأت المساء إلا وكانت المسكينة قد ودعت الحياة وأصبحت في رحاب الله حيث الجنة مأواها إن شاء الله .

كان ذلك أول مواجهة لي مع الموت ؛ كان شيئاً رهيباً مخيفاً أن أرى أختي ، وهي التي كانت ممتلئة حياة وجمالاً ، تتحول فجأة إلى جثة هامدة مسجاة على الفراش نفسه الذي كانت تنام عليه بالأمس . كان علي أن أنام في فراشي الملاصق لها ، ويا لها من ليلة لم أعرف مثلها من قبل . كانت الوالدة تبكي ، ونحن - أبناءها - نبكي معها ، ثم يحاول أحدنا أن يهون المصاب عليها ، ولكن كيف يتأتى ذلك وابنتها ميتة ممددة أمامها ؟ كنا نحن الباقين نجلس القرفصاء حول الفقيدة الغالية ينخرط الواحد منا في البكاء إلى أن يغلبه النعاس ، فيميل برأسه يميناً أو يسرة ، ثم يتنبه فجأة فيفتح عينيه ويدرك ما هو فيه فيعود إلى البكاء من جديد ؛ كان المصاب أشد ما يكون وطأة على الوالدة المسكينة حتى لقد ظننا جميعاً أنها ستفقد رشدها ، فقد بكت وبكت حتى جف دمعها ؛ لا أدري كيف بتنا ليلتنا تلك ولكنني أذكر أنني عندما صحوت من نومي المتقطع في الصباح وجدت أن القوم قد أعدوا العدة لتجهيز المتوفاة ودفنها ، وأنهم قاموا بغسلها وإلباسها ملابس جديدة فبدت وكأنها عروس ستزف عما قليل إلى عريس ينتظرها ! ومرة أخيرة حاولت إقناع نفسي بأن كل ما شاهدته كان مجرد كابوس مرعب وأن فاطمة لم تمت ، وأنها ستستيقظ لتعود إلينا بابتسامتها الآسرة ولكن هيهات ! وسرت مع السائرين في جنازتها ، وبكيت كما لم أبك من قبل ، فقد كانت فاطمة أقرب أخواتي إليّ فهي بترتيب السن تأتي قبلي مباشرة .

obeikandi.com

الشهادة الابتدائية

كان من حسن حظي أنني أكملت دراستي الابتدائية ، ولم أنقطع عن التحصيل في منتصف الطريق ، خلافاً لعدد من زملاء ممن أكرههم شظف العيش على ترك الدراسة مبكراً ، والسير مع الكبار في قافلة الكادحين الباحثين عن لقمة العيش . وأذكر أن التلميذ منا كان مطالباً - قبل الجلوس لامتحان الشهادة الابتدائية - بأن يكون قد أنجز تصميم مجسم جمالي صغير كزهريّة أو ملاحّة يقوم بنحتها من حجارة بيضاء هشة يطلق عليها أهل القريتين اسم " النحيت " ، وكان ذلك جزءاً من مادة دراسية مقررة تهدف إلى اكتشاف ما قد يكون لدى التلميذ من مهارات يدوية معينة وتشجيعه على صقلها وتنميتها . ولم يكن التلميذ بحاجة إلى أكثر من (شاكوش) صغير و(إزميل) لإنجاز المطلوب بالإضافة طبعاً إلى الحجارة ، وهذه الأخيرة كان من الممكن الحصول عليها من واحد من مصدرين : المقالع الواقعة في ظاهر القرية ، أو الفنائض عن احتياجات مبنى تحت الإنشاء . وإذا تعذر ذلك ، لسبب أو لآخر ، كنا نحصل على بغيتنا من مكان مختلف لا يمكن أن يخطر على بال ، مكان يقشعر جسمي إذ أذكره الآن - المكان هذا هو المقبرة ! أجل المقبرة . ذلك أن الموسرين من أبناء القريتين كانوا يستعملون حجارة النحيت ، الواحدة منها في حجم طوبة عادية ، في بناء أضرحة لموتاهم إلى جانب طائفة أخرى من الاستعمالات ؛ وكان الضريح المبني من النحيت يقوم في الغالب داخل غرفة ذات باب يكون في العادة محكم الإغلاق ،

لكنه كان يحدث أحياناً أن يكون الباب مكسوراً أو في الإمكان فتحه بطريقة ما .

كنت أتسلل مع زميل لي هو الأخ الصديق محسن السوعان وهو الآن من الرجال الموسرين في القريتين ورب عائلة كبيرة كريمة . كنا نتسلل تحت جناح الظلام ، متوجهين في هدأة الليل إلى المقبرة بعد أن يكون الناس قد أواوا إلى منازلهم واقفرت منهم طرقات القرية . كنا نقصد الغرف التي نعرف أن قبورها مشيدة من حجر النحيت لنحصل على حاجتنا منها . أذكر ذات مرة أننا خرجنا في ليلة احلولك ظلامها ، حتى لو أن المرء مرَّ بيده أمام ناظريه لما رآها . سرنا قاصدين المقبرة في طلب النحيت . دلفت أنا إلى إحدى الغرف ورحت أتلمس جنباتها كما يفعل الضيرير وهو يبحث عن شيء افتقده إلى أن وقعت يدي على طوبة من النحيت كان من حسن حظي أنها فاضت عن حاجة البناء . وما إن بدأت يدي في تحريك الطوبة لرفعها حتى هبَّ عصفور من مكمنه بالجوار مرفرفاً بجناحيه وكأنه حسب يدي عدواً متطفلاً جاء ليفسد عليه سباته . اصطدم العصفور بوجهي مباشرة أثناء محاولته النجاة بنفسه . لم يدر بخلد ذلك العصفور الضعيف أن أحداً يمكن في مثل ذلك المكان أن يفسد عليه نومه أو أن أي إنسان يملك ولو قدراً ضئيلاً من الإدراك يمكنه أن يعث بحرمة المكان الذي اختاره لرقاده وجاء في ظلام الليل الدامس ينشد قطعة حجر !!

والغريب في الأمر أنني لم أجزع ، ولم أفقد برودة أعصابي وسط هذا الظلام الدامس والمفاجأة التي أحدثها الطير في مكان موحش كهذا ، بل مضيت أحقق ما أتيت إلى المكان من أجله ، فحملت طوبة النحيت على

كتفي ووليت خارجاً . وأتعجب الآن كيف كانت تواتيني الشجاعة أو قل اللامبالاة بحيث أذهب في ظلام شديد السواد إلى مقبرة وأدخل غرفة أشد ظلاماً لأحصل على قطعة حجر ، ولن أتجراً الآن على القيام بعمل كهذا إذ أخشى أنه حين تمتد يدي لتمسك بقطعة الحجر أن تخرج لي من داخل القبر يد من عظام تمسك بيدي وتهزها ! . . لم أكن في ذلك الوقت قد عرفت أفلام الرعب .

كنت - فعلاً - في تلك الأيام لا أعرف الخوف بتاتاً فقد اعتدت مثلاً أن أذهب بمفردي بعد منتصف الليل إلى منزلنا بالمحمودية بالمدينة المنورة بعد العودة إلى المملكة ، فأنام إلى الصباح قرير العين . وللذين لم يعرفوا حي المحمودية أقول إنه كان حياً صغيراً قديماً يقع على طرف المناخة الجنوبية ، وتشرف بعض منازلهم من الخلف على منطقة باب قباء . كانت شوارع الحي ضيقة متعرجة مظلمة انتصبت على جوانبها بيوت صغيرة من طابقين ذات دهاليز مظلمة حتى في وضوح النهار . كان كل ذلك يجعل المنطقة تبدو موحشة لا سيما وأنها كانت تخلو من المارة والحركة من بعد العشاء (أزيل حي المحمودية مع ما أزيل من أحياء قديمة بالمدينة المنورة) . اعتاد بقية أفراد العائلة أن يقضوا عدة أيام بلياليها من الأسبوع في بيت آل الخريجي الكبير بالعنبرية وكنت أنا أصر على النوم في منزلنا ؛ غالباً ما كنت أمضي بعد السهرة إلى المنزل . كنت ألجُ وأبدأ في الظلام الدامس أتلمس طريقي وأبحث عن الكبريت لأشعل الفانوس ومن ثم أحمل فراشي وأصعد إلى السطوح حيث كان المكان الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يقضي فيه ليلته هرباً من الحر الشديد في الصيف . لا أذكر أن شيئاً غير عادي حدث في تلك

الليالي التي كنت أذهب فيها إلى البيت للمبيت فيه باستثناء ليلة واحدة فقط . في تلك الليلة ، وبينما كنت أصعد الدرج إلى الدور الثاني في ظلام دامس لا يرى فيه شيء على الإطلاق ، أحسست بشيء ما " ينزل " الدرج أثناء صعودي ! تقابلنا في منتصف الطريق ، وأحسست بشيء يشبه هبة نسيم خفيف كالتي يحس بها المرء عندما يمر بجانبه في الاتجاه المعاكس شخص يلبس ملابس فضفاضة ! . . كل ما فعلته هو أنني ميّلت جسمي إلى أقصى ما يمكن نحو الجدار على أحد جانبي الدرج الضيق حتى لا أصطدم بذلك الشيء الذي شعرت أنه ينزل بينما كنت أنا أصعد . أكملت صعودي ، ووجدت الكبريت ، وأشعلت الفانوس ، وحملت فراشي إلى السطح ، وغمت ملء جفوني إلى أن أيقظتني حرارة شمس الصيف الملتهبة .

كان اختبار الشهادة الابتدائية يعقد في حمص ، أقرب مدينة كبيرة لقريتنا . وجاء وقت الامتحان النهائي للشهادة ، وكان على والدتي ربحها الله أن تهيب لي مبلغاً من النقود يعينني على السفر وأداء الامتحان . حاولت أن تتدبر الأمر إلا أنها لم تستطع أن توفر أكثر من خمس ليرات سورية ! . . رأيته قليلة لا تكفي للسفر ولسد حاجاتي في بلد كنت أراه أبعد مكان في الدنيا على الرغم من أن المسافة بين قريتنا وحمص حوالي سبعين كيلو متراً . ورفضت السفر بسبب ضالة المبلغ المتوفر ؛ وحاولت الوالدة أن توفر أكثر من هذه الليرات الخمس بيد أنها لم تستطع ؛ وأصررت على موقفي ولم أسافر لأداء الامتحان . وتكررت نفس الحكاية في السنة التالية ، المبلغ المتوفر لم يزد على الخمس ليرات ! . . اضطررت هذه المرة إلى قبول المبلغ على مضض مع ما وفرته الوالدة من بعض الزاد أخذته معي لأوفر شراء الطعام ، ومرت الرحلة بسلام ، ونجحت في امتحان الابتدائية .

يقول المثل : التعليم في الصغر كالنقش في الحجر ، والأمثال في معظمها حكم ، وأغلبها يكون صحيحاً قیل عن تجربة وخبرة ، وإلا فما الذي يجعل الطفل يعي ويحفظ ما قرأه ولو مرة واحدة؟ فأنا أذكر جيداً أننا ونحن أطفال لم نكن نقرأ ما نكلف به أكثر من مرة واحدة ، ومع ذلك كنا نحفظه عن ظهر قلب وبسهولة . ومما أذكره أننا حتى ونحن نؤدي الامتحان كنا نذهب إلى السينما كل ليلة ، ذلك أنه لم يكن لدينا في قريتنا دار للسينما وكانت صور الممثلين والحوادث وهي تتحرك أمامنا شيئاً مبهرأ حقاً . أذكر جيداً أنني وزملائي كنا نجلس في صف واحد ولكن ما إن تمضي بضع دقائق من بداية الفيلم حتى نروح في نوم عميق لا نستيقظ منه إلا على صوت العاملين بدار السينما وهم يوقظوننا بعد أن يكون العرض قد انتهى وجاء دور تنظيف الدار وإغلاق أبوابها استعداداً لليوم التالي .

كانت فرحتنا كبيرة عندما ذهبنا جميعاً لالتقاط صور شخصية فوتوغرافية لوضعها على بطاقة دخول الامتحان . ومن حسن الحظ أن الجو لم يكن ربيعاً وإلا لكنت طريح الفراش مصاباً بالرمد الربيعي كما هي العادة في مثل ذلك الوقت من كل عام ، وكان هذا المرض إذا ضرب ضربته أصاب عيني بالانتفاخ والتورم والانغلاق ، فلا أستطيع أن أرى ما حولي أو حتى فتح عيني لمدة قد تمتد أحياناً شهراً كاملاً . وعندما أذكر الرمد ومشاكله أشكر الله تعالى أن أبقى لي نظري ولم أفقده بسبب أنواع الأدوية والوصفات الشعبية التي كانت والدتي تداويني بها عملاً بمشورة عجائز الحي !! . يقال عن بعض الناس إن وجوههم " فوتو جينيك " ، أي أنها قابلة للتصوير بحيث تظهر مقبولة أكثر من الحقيقة ، ويبدو أن وجهي واحد من تلك الوجوه ،

حيث إنني عندما تصورت - وكانت المرة الأولى في حياتي - بدت صورتي أكثر قبولاً من شكلي الحقيقي، يعني أكثر وسامة من الأصل! وحدث عند عودتي من حمص أن وقفت أُمي مع جاراتها تريهن بفخر صورة ابنها الذي أدى امتحان الشهادة. كنت واقفاً غير بعيد عن النساء وقد أخذن يتناقلن الصورة بينهن، إلى أن وصلت إلى سيدة أعتقد أنها لم تكن تدرك أنني كنت على مسمع مما يقلن حيث بعد أن شاهدت صورتي قالت: "شوفي ياختي كيف طالعة صورته حلوة مع أنه مثل العفريت!!" كانت صدمة أن أسمع مثل ذلك التعليق من تلك السيدة، فانسللت بسرعة من المكان، وظللت فترة أفكر فيما قالته.. صحيح أن الصورة كانت أجمل من الأصل، ولكن ليس إلى الحد الذي يقال فيه بأنني أشبه العفريت! رحمها الله وسامحها.

الحياة عموماً تشبه إلى حد كبير نهراً عظيماً مهيباً يسير من منبعه إلى مصبه المحتوم، والمخلوقات تتقلب على سطحه مندفعة نحو النهاية تعلو وتهبط مع أمواجه؛ قد يخرج بعضها عن المجرى الرئيسي ليدخل في فروع تنحرف يميناً أو شمالاً لكنها ما تلبث أن تعود إلى الأصل، إلى نهايتها المحتومة. ودون أن ألجأ إلى شطحات فلسفية لا أتقنها أصلاً أجد نفسي مدفوعاً إلى التبصر في فلسفة الحياة وتقلباتها كلما فكرت في خط حياتي وكيف تصدق علينا جميعاً الحكمة التي تقول: «أنا أريد وأنت تريد والله يفعل ما يريد». وسوف يدرك القارئ بعد قليل لماذا أسمح لنفسي بأن ألجأ في بعض الأحيان إلى الضرب على وتر لا أتقن العزف عليه، ولكن تدفعني إليه تصاريف الحياة التي قد لا نذكر دائماً أننا لا نملك إزاءها أي إرادة أو سيطرة. هو قدر مكتوب قدره العلي العظيم لكل حياة منذ الأزل.

عندما هدأت فرحة النجاح في امتحان الشهادة الابتدائية، وماتت ابتهاجات التهاني والتمنيات بالحصول على شهادات أكبر، وجدت نفسي وقد وصلت فجأة إلى نهاية ما يمكن لي أن أحصل عليه من تعليم! . . كانت الدراسة في سوريا في تلك الأيام على ما أذكر مجانية إلى نهاية المرحلة الابتدائية، أما بعد ذلك فعلى طالب العلم أن يدفع رسوماً ليلتحق بالمراحل الأعلى. وعلى الرغم من أن الرسوم المطلوبة في تلك الأيام لم تكن شيئاً كبيراً إذا ما قورنت بما هي عليه الحال اليوم، فإنها كانت شبه مستحيلة بالنسبة لغلام لم تستطع أمه على مدى سنتين أن توفر له أكثر من خمس ليرات ليغطي بها تكاليف السفر والإقامة لبضعة أيام في بلد قريب من قريته.

وعلى هذا فقد كان أي أمل في إكمال الدراسة يبدو مستحيل التحقيق، ومن ثم فقد بدا أن ما كان عملاً جسمانياً إضافياً أقوم به وأنا تلميذ قد يصبح هو العمل الأساسي الذي عليّ أن أؤديه لأساهم في تكاليف معيشة الأسرة. لم يكن مثل هذا الاحتمال بالشيء الذي كنت أتوق إليه؛ لذلك كان من الطبيعي أن أتوجه بالدعاء إلى الله تعالى في الغدو والأصال أن يشملني برحمته ويجنبني ذلك المصير المهول. وأود أن أوضح أنه ما من أحد سوى غلام طري العود جرب الصقيع أيام الصقيع والزمهرير في القريتين، يستطيع أن يتصور ماذا يعني أن يستيقظ إنسان لم يتعد الثانية عشرة من عمره في الساعة الرابعة صباحاً من فجر يوم عاصف شات كالذي سبق أن وصفته، يُسمع لرياحه صفير وهدير، وتتغلغل لساعات سياطه الصقيعية داخل الكيان الصغير الهزيل فتتهز الجسد النحيل كله، وتكاد تدفع به إلى التجمد. لم يكن نصيبي من دنياي على هذه الشاكلة كل يوم طبعاً، ولكن

حدث أكثر من مرة أن استيقظت قبل الفجر لألتقي بالطبيعة المزمجرة الغاضبة وجهاً لوجه لا من موقع الدفء وراء زجاج النافذة بل وسط الأرض الفضاء أرسلتُ لأبحث فيها عن عيدان وأغصان يابسة أعود بها إلى المنزل . ولكم حدثت نفسي وتساءلت : ماذا لو كان عليّ أن أعيش حياتي حتى النهاية حبيس هذا الواقع المرير؟

الناطور

مضت أشهر الصيف ، وابتدأ العام الدراسي الجديد ، والتحق المحظوظون من أبناء القادرين على تحمل مصاريف الدراسة بالمدارس المتوسطة التي كانت بحمص . مضى نصف السنة الأول وعاد الأولاد لزيارة ذويهم ، ولم ينسوا أيضاً أن يزوروا بعض أصدقائهم ممن لم تسمح لهم إمكانياتهم بإكمال الدراسة ، وأنا منهم . . كانت الشهور التي مضت ، وقد انقطعت خلالها عن التعليم أوقاتاً بئسة في حياتي ، فقد كانت لدي في الحقيقة رغبة عارمة في إكمال الدراسة ، ليس فقط خوفاً من العمل اليدوي الشاق الذي ينتظرني ، ولكن أيضاً حباً في التعليم نفسه ؛ فمنذ أن استطعت القراءة وأنا لديّ نهم شديد لأطالع كل ما كانت تقع يدي عليه ، وهذا لم يكن غريباً على جيلنا في تلك الأيام حيث لم تكن الوسائل البديلة للقراءة قد وجدت بعد . أدهشني أن أرى زملاء الأوس وكأنهم قد كبروا فجأة في ملابسهم الفرنجية الأنيقة وقيافتهم الجديدة . . كنت أراهم وكأنهم أتوا من عالم جديد غريب لن أتمكن في يوم من دخوله ! بعد السلام دار الحديث طبعاً حول ما يتعلمونه في المدرسة الجديدة ، وكيف يختلف ذلك عما درسناه في المدرسة الابتدائية ، وكم سنة سيمكثون على مقاعد الدراسة . وطوال حديثي مع زملائي السابقين ظل حزن عميق يعتصرني لشعوري بأنني طائر وحيد يغرد خارج سربه .

لم يطل مكوث زملائي عندي فقد كان لديهم الكثير مما سيفعلونه وزيارة

العديد من الزملاء الذين لم يكن حظهم أحسن من حظي . كما ذكرت آنفاً كانت الدراسة لأي مرحلة أعلى من التعليم الابتدائي وقفاً على قلة من المحظوظين الذين يستطيعون دفع مصاريف الدراسة والذين رزقهم الله بآباء يدركون أن التعليم هو أحسن وسيلة للخروج بالإنسان من حياة الفاقة والفقر إلى حياة واعية متفتحة تتعامل بكفاءة مع الظروف .

في القرى ، وفي مجتمع الفلاحة عامة ، تكون الأراضي الزراعية والبساتين دلالة على ما لصاحبها من جاه وعلو مرتبة في السلم الاجتماعي ، خاصة إذا كانت كبيرة ومتنوعة الإنتاج . كانت غالبية السكان في القريتين هذه من متوسطي الحال الذين هم أقرب إلى الفاقة منهم إلى أي شيء آخر ، ولكن يجب أن يدرك أبناء اليوم أن مسألة الغنى والفقر نسبية إلى حد كبير ؛ حيث إن من كان يعتبر غنياً في مفهوم السنوات الخمسين الماضية يعتبر اليوم فقيراً ، فالغنى في تلك الأيام كان يعني قدرة الرجل على أن يوفر لنفسه وعائلته كميات من المواد الغذائية تكفيهم لفصل الشتاء وحتى قدوم موسم الغلال في الصيف ، وهذه المواد الغذائية لم تكن تتعدى بعض الحبوب والزبيب ودبس العنب والزيتون وبعض أنواع من الفاكهة المجففة ؛ هكذا كانت الحياة في الماضي .

وكما يعرف أي شاب من أبنائنا ، فإن الغنى الآن هو من يملك البيوت الفسيحة والفلل الحديثة والسيارات الفارهة ؛ هو من يستطيع قضاء إجازة الصيف وإجازات أخرى خارج بلده . . في الماضي لم يكن المرء ينظر إلى أكثر من أن يجنب نفسه وأهله غائلة الفقر ، والآن اختلفت المفاهيم . ولكل زمان مقاييسه ومستوياته .

على الرغم من كل ما ذكرته فقد كان في القريتين بضع عائلات تمتلك عدداً غير قليل من البساتين والمزارع وكانت بكل المقاييس تعتبر غنية، ما عدا هؤلاء كانت العائلة من عامة الناس تملك في معظم الحالات ما يسمى "كرم"، وهو بستان مزروع عنباً، وكان العنب هذا ما تشتهر به القريتين ومن أجله يؤمها المصطافون والمشترون. لم تكن نحن نملك بستاناً أو كرمًا، لذلك كنا نختار بستاناً ما ونتفق مع صاحبه على أن يأذن لنا بالانتفاع بشماره لغرض الأكل أو التجارة طول فصل الصيف مقابل أجر معلوم، وما أزال أذكر أننا، لأعوام عديدة، قمنا بعقد مثل تلك الصفقة في شراء المحصول الصيفي لكروم كثيرة وفي مواقع مختلفة من البلدة؛ وكما أن المساكن كانت تتفاوت فخامة وتواضعاً كذلك كان الحال بالنسبة لتلك البساتين: فبعضها كان يقع في مناطق زاهية بهيجة على الهواء وارفة الظلال تكثر فيها أشجار الزينة مثل الحور والصفصاف، وبعضها الآخر كان عبارة عن بقعة صغيرة من الأرض يحيط بها سور من الطين وتضم عدداً من دوالي العنب، لكنها كانت تخلو حتى من موضع يمكن للإنسان أن يستظل فيه من شمس الصيف اللاهبة، وكان البستان المستأجر يكبر أو يصغر تبعاً لإمكاناتنا المالية في العام الذي يتم فيه التعاقد.

ومهما صغر البستان المتعاقد على ثمره فقد كان يمثل لنا حدثاً خطيراً وسعيداً، وكنت أستقبله مع أخواتي الصغيرات بالمرح والابتهاج. كانت فرحتنا تتم عندما نذهب لأول مرة لاكتشاف المكان والتعرف عليه، كانت أيام الصيف هذه تمثل لي قمة السعادة وتنقلني إلى عالم رائع من الرضا والقناعة، وكانت سعادتني تزداد عندما يعهد إليّ بمهمة "الناطور" حيث

جرى العرف أن يرباط شخص في البستان طوال أربع وعشرين ساعة ويسمى الناطور . كانت مهمة الناطور هذا ليست أكثر من شيء شكلي ، فلم يكن المقصود من وجوده حماية المحصول من السرقة ، إذ لم أسمع أبداً أن لصوصاً سطوا على كرم أو دخلوا بستاناً عنوة ؛ لأن البساتين والكروم كانت مشرعة الأبواب لمن يريد أن يقطع من ثمارها لياكل ، ولأن سكان القرية جميعاً يعرف بعضهم بعضاً ولا يوجد بينهم لصوص ؛ ولكن لو افترضنا جدلاً أن لصاً ما سطا على الكرم ، وخطف عنقود عنب ، فكيف كان من الممكن لغلام هزيل قصير القامة والنظر حافي القدمين أن يتصدى له ويحمي العنب من عدوانه ؟

كان المبيت بالكروم في الصيف إحدى الوسائل التي يلجأ إليها الناس للتمتع بالطبيعة الخضراء والهروب من حرارة الجو في المنازل ، فالناس هناك يأخذون أمتعتهم البسيطة وفرشهم ويقضون الليالي في بساتينهم وكرومهم ، والبعض منهم قد يمكث هناك طيلة أشهر الصيف . ولا أجمل من المبيت تحت سماء الصيف الصافية بين شجيرات العنب حيث الهدوء التام إلا من سقوط وريقات جافة بعد هبة نسمة خفيفة رقيقة لا تكاد تشعر بها ، أو ديب جرذ أو قنفذ خرج متلصصاً من مكمته طلباً للطعام ، وحيث السماء من فوقك وقد انتشرت على صفحتها النجوم الساطعة المتألئة تحاول عدها لكنك سرعان ما تجد أنك لا تستطيع ، وتعيد الكرة من جديد غير أنك تتوقف في منتصف المحاولة إذ تثير انتباهك حركة خفيفة قريبة منك ناتجة عن تحرك غصن من أغصان الدوالي المسترخية هي أيضاً على الأرض وكأنها تستعد للنوم ، ولا تلبث أن تنسى ما حولك وتحاول أن تعود من جديد لعد

النجوم إلا أن المحاولة هذه المرة تبدأ بعينين نصف مغمضتين ووعي بدأ يختلط فيه الواقع بالحلم . . . وتستيقظ في الصباح على خيوط أشعة الشمس وقد تسلت من خلال جفونك إلى حيث يكمن المنبه السريّ المخبأ في خلايا المخ فينطلق جرسه معلناً بدء يوم جديد .

كنت قبل أن أنهض من الفراش أحرص على أن أتلمس قطرات الندى وقد غطت اللحاف وتجمع بعضها في بعض تجاويهه . كانت السعادة تعود فتغمرنني مع صباح كل يوم ، فما إن أستيقظ وأدرك أنني في الكرم حتى ينتابني ذلك الشعور بالرضا ، فأنا أعرف سلفاً ما سوف أفعله طوال اليوم ؛ وأول شيء هو أن أبقى مسترخياً في فراشي الذي بلله الندى أطول مدة ممكنة إلى أن تلسعني حرارة الشمس ويصبح البقاء تحت أشعتها اللاهبة مجازفة غير محمودة . لاشيء في الحياة يضاهي المتعة التي يشعر بها المرء وهو يستيقظ تَوّاً من نومه ليدرك ، بعد طرد الكرى عن جفونه ، أن باستطاعته أن يبقى في فراشه الدافئ دون أن يتعارض ذلك مع واجب عليه أن يغادر فراشه من أجله ، ولا غرو إذا كنا جميعاً نحب نهايات الأسبوع . أبدأ يومي ، بعد مغادرة الفراش ، باختيار أشهى عنقود عنب من بين مئات العناقيد المتدلية من أغصانها وقد غطتها هي الأخرى قطرات الندى . ذلك كان أول نشاط لي أقوم به .

أتساءل الآن كيف كان النهار يمضي وماذا كنت أعمل طوال الوقت الباقي في كرم لا تزيد مساحته في معظم الحالات عن مساحة فناء بيت متوسط الحجم بمقاييس اليوم ! . . ومع ذلك فقد كانت تلك أجمل أيام

حياتي على الإطلاق . وأغلب الظن أن مثل هذا القول لن يثير استغراب الآخرين ، فأيام الطفولة والصبا المبكر هي أجمل وأهنأ الأيام التي يعيشها الإنسان ، وما ذكرها والكتابة عنها إلا محاولة لاسترجاع بعض مباحثها وإعادة تجربة معاشتها من الذاكرة ما أمكن ذلك ؛ تلك هي أيام البراءة والبساطة والخلو من المشاكل والطموحات وخيبات الأمل والألم والعذاب والهموم التي تأتي مع تقدم العمر . لا أقصد هنا أن أدبج موضوعاً إنشائياً عن بديهيات يعرفها كل الناس ، ولكن الذي أؤكد ويوافقني عليه الكثيرون هو أنه من نعم الله تعالى على كل إنسان طفولته وصباه المبكر ، ففي تلك المراحل من حياة الفرد يكون همُّه هو اللحظة التي يعيشها ، ولا يحلق العقل الناشئ إلى أبعد مما تصل إليه اليدان . قال الشاعر :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
وهو ينطبق على الصغار كما ينطبق على الفئة الأخرى التي ربما عناها الشاعر .

كان عالمي لا يتعدى جدران البستان ، وكنت بذلك في قمة القناعة والسعادة ، لم يكن يهمني أن أتساءل عما يوجد في العالم الكبير الواسع خارج الدائرة الصغيرة التي أعيش فيها ، ولم أكن أريد شيئاً غير الذي لدي . كنت أمضي اليوم بأكمله متنقلاً من ركن إلى آخر في البستان لأؤكد من أن دالية العنب الأثيرة لدي ما تزال تحتفظ بعناقيدها وأن حبة الخيار أو الطماطم قد نضجت لأصنع منها مع رأس بصل أشهى سلطة يمكن أن يطمح إلى مثلها صبي في مثل ظروفه .

نشأ حب جارف بيني وبين آخر بستان اشترينا إنتاجه الصيفي قبل عودتنا إلى المملكة . كان بستاناً كبيراً يقع في منطقة مختارة بين الكروم تصل إليها المياه الغزيرة مما مكن أصحابه من غرس تشكيلة متنوعة من الأشجار المثمرة على جوانبه بالإضافة إلى أنواع عديدة من الخضراوات - فكان الكرم مثالياً بكل معنى الكلمة . كان فيه مبنى صغيرٌ مخصصٌ لسكن الناطور؛ وكان المبنى مؤلفاً من طابقين بحيث يمكن للجالس في أعلاه أن يشرف ليس فقط على بستانه بل على البساتين المجاورة أيضاً . لقد همت حباً بذلك الكرم لدرجة أنني لم أستطع عندما انتهى الموسم أن أقنع نفسي بأن البستان قد عاد لأصحابه ولم يعد لنا . كنت حتى بعد نهاية الصيف أعود لزيارته بدافع الحنين ، وأتمشى حوله ، فإذا وجدت فجوة في السور أرسلت عبرها إلى الداخل نظرات حب ووله تجعل قيس بن الملوخ يخجل من سذاجة حبه ليلي ! . . إلا أنني أذكر بألم ما حدث في إحدى المرات التي عدت بها إلى الكرم ، وكالعادة كنت فقط أتمشى خارج سوره . لكن صدف أن صاحبه الأصلي كان متواجداً فيه . وما إن رأيته حتى صاح بغلظة ماذا تفعل هنا وقد انتهى الصيف؟ ولم ينتظر جواباً بل التقط حجراً رماني به وأسرعت بالهروب . كانت تلك آخر مرة أزور بها مرتع الصبا ذلك ووادت الحنين الذي كان يشدني بقوة إلى ما كان منذ أيام قليلة فقط لبستاني العزيز .

وتدور الأيام وأسافر إلى القريتين ذات صيف لأجتمع بالمصادفة مع من أخبرني أن فلاناً -صاحب البستان- مريض ، بل ويعاني سكرات الموت . ذهبت أعوده عصرًا ، ودخلت حجرة في منزل صغير ، حجرة مظلمة باردة عارية من الأثاث ، كان الرجل ممدداً على فراش قذر بال وقد غدا شبحاً لما

كانه يوماً من قوة وعنف . تذكرت عصر ذلك اليوم عندما طردني دون أن أقترف ذنباً وها هو الآن ممددٌ على فراشه يعاني سكرات الموت ؛ ولا أعتقد أن الرجل عرفني . رحمه الله وأبدله ببستان الدنيا بستاناً في الجنة .

من الأشياء التي تؤلمني ذكرها الآن أشد الألم ما كان يصيب فراخ العصافير التي يشاء سوء حظها أن تكون أعشاشها قد بنيت في أماكن منخفضة يسهل على أيدي الصبية أن تصل إليها . كان الواحد منا إذا ما رأى عشاً من هذا القبيل اقترب منه ، ونظر إلى زغب الحواصل داخله ، فإذا كان عددها ثلاثة أو أكثر تهلل وجهه استبشاراً بصيد ثمين . وكانت أيدينا تمتد إلى الفراخ التي لا حول لها ولا قوة فنقبض عليها الواحد تلو الآخر ، ونترك العش فارغاً تصفر فيه الرياح . أستطيع الآن أن أتصور الأم وقد عادت إلى العش وفي منقارها بعض الطعام للصغار ولكن لا صغار ! أستطيع أن أتصور حالها وهي تطير فوق العش حيرى مرتبكة لا تعرف ما جرى ، أستطيع أن أتصورها في حالة الذهول تلك : تارة تحوم حول العش ، وتارة تحنو عليه وجناحها يرفرفان على حوافه ، وتارة تهبط داخله تتفحص القش والعيidan بحثاً عن مفقود ذهب ولن يعود ، ثم تصدر عنها تلك الزقزقة العذبة التي اعتادت أن تنادي بها الفراخ ، لكن هذه المرة لا سميع ولا مجيب ! .

لو كان الأمر بيدي الآن لفرضت حظراً على اصطياد الطيور ، هذه المخلوقات الجميلة التي تجعل الحياة على الأرض لبني البشر أكثر متعة وجمالاً بما وهب لها الله من أصوات مغردة وألوان زاهية بديعة ، وكم يسعدني الآن عندما أرى بعض الطيور وقد بنت أعشاشها على أغصان

الأشجار في حديقة منزلي ، ومضت تغدو وتروح بكامل حريتها سعيدة بما هي فيه من أمن وطمأنينة لا يعترضها أحد ولا يتربص بها متربص .

كنت في ذلك الوقت أمشي مسلحاً دائماً بـ "نُبَيْلَة" وهي كما يعرف أبناء جيلي عبارة عن قطعتي مطاط تنتهيان من ناحية بعود من الخشب على شكل الحرف «Y» ، ومن الناحية الأخرى بجلدة صغيرة توضع بها حصاة . كنا نشد قطعتي المطاط بالإمساك بالجلدة الصغيرة وبها الحصاة ، ثم نرخي فتمر الحصاة من بين فتحتي الخشبة نحو الهدف المقصود الذي غالباً ما يكون عصفوراً صغيراً يبحث عن غذاء له أو لصغاره فيفاجأ بالحصاة القاتلة ! . . ومما يخفف الآن من شعوري بالذنب من تلك القسوة غير المقصودة التي كنت أمارسها ضد العصافير البريئة أنني لم أكن صياداً ماهراً . غير أنني برعت في الصيد بالفخ ، والفخ هذا أيضاً لا شك معروف ولكن دعني أصفه لأبنائي وأقرانهم . إنه عبارة عن قطعتي سلك حديد على شكل نصف دائرة ينطبقان على بعضهما البعض بواسطة سلكين حلزونيين رفيعين لهما خاصية الارتداد السريع عندما تفتح إحدى قطعتي الفخ وتطلق فجأة . . يغطي الفخ بطبقة رقيقة من التراب بحيث لا يرى منه إلا الطعم الذي يبقى ظاهراً لجذب الطيور إليه ؛ وما إن يحاول الطائر المسكين أن يلتقط الطعم الذي ربما كان دودة حية أو حبة قمح أو شعير إلا وينفلت السلك المثبت لنصفي الفخ بحيث ينطبق النصفان فجأة على رقبة الطائر .

كنت أقضي معظم وقتي عندما لم أكن مكلفاً بشيء آخر أمارس الصيد بهذه الطريقة ؛ كان معي بعض رفاقي الذين لهم نفس الهواية ، وكنا نجوب

البراري حفاة الأقدام مهلهلي الثياب جرياً وراء إشباع رغباتنا تلك . كان الطعم الذي نضعه غالباً نوعاً من الديدان نستخرجه من باطن الأرض حيث تكثر القاذورات والنفايات! . . والحقيقة عندما أفكر في كل هذا الآن أجد له جانباً إيجابياً واحداً على الأقل وهو أننا اكتسبنا مناعة ممتازة ضد الأمراض المعدية وضربات الشمس وزمهرير الشتاء ، كما أن أجسادنا اكتسبت مقاومة لم تكن لتتوفر لها بغير ذلك حيث لم تكن المضادات الحيوية والتطعيم بأنواعه قد انتشرت كما هي الآن .

وأعجب الآن كيف بقيت قدماي سليمتين وأنا الذي كنت في تلك السن الغضة حيث أعضاء الجسم ما تزال هشة رقيقة ، أقضي معظم ساعات النهار في السير أو الركض حافي القدمين بين الحقول والمزارع وكلها أماكن وعرة وتكثر فيها الأشواك والحجارة المدببة الحادة ، ولكن الاستغراب يزول عندما نعرف أن جميع المخلوقات ، بما فيها الإنسان ، تكيف نفسها تبعاً لظروف حياتها ، ولم تكن نحن الصغار لنشذ عن القاعدة . فقد اكتسبت أقدامنا خشونة مبكرة تحمي بها نفسها من الأخطار . (زالت تلك الخشونة بعدما لم يعد لها دور في زمن الرخاء والراحة) . ولعل من البديهي أن نقول : إن رحلة الصبا والشباب هي الفترة التي تغلب فيها على الإنسان روح الإقدام والجرأة وعدم تقدير العواقب . كنت ورفاقي من الصبية في ذلك الزمن نعشق المجازفة والعنف ، ولا نحسب للخطر حساباً ، حتى في الألعاب التي كانت مفضلة لدينا ، أو الهوايات التي كنا نمارسها كهواية الصيد ، ولربما بدا ذلك كله غريباً لأبناء جيلنا الحاضر ، فقد كنا مثلاً نفضل لعبة يركل فيها اللاعبون بأقدامهم بعضهم البعض على غرار ما نراه اليوم في التليفزيون

عندما يعرض مشاهد من المصارعة التايلاندية! . . أما الصيد فقد كاد في أحد الأيام أن يودي بحياتي كما سنرى .

القريتين عبارة عن قرية كبيرة نوعاً ما كنا نقطعها من أولها إلى آخرها سيراً على الأقدام في أقل من نصف ساعة ، والمكان الصغير أياً كان يشجع على الخروج منه ، وعليه كنا نحن الصبية ما إن نجتمع حتى نتوجه نحو منطقة البساتين والكروم طلباً للصيد ، وما أزال أذكر أننا جربنا حظنا المرة تلو المرة لصيد اليرابيع ؛ ولكنني لا أذكر أننا نجحنا في صيد يربوع واحد في كل تلك المحاولات ، بل إن الصياد كاد ذات مرة أن يصبح الفريسة . كنت وصديق لي نتجول ذات يوم حول أطراف البساتين حيث يبدأ البر الواسع ، وخطر لنا أن نصطاد واحداً من تلك اليرابيع التي كنا قد سمعنا عن طيب لحمها الشيء الكثير . بدأنا نستعرض الجحور الصغيرة المنتشرة في المنطقة جحراً جحراً بحثاً عن ضالتنا المنشودة فما عثرنا في البداية على شيء ، وأخيراً وصلنا إلى جحر له فتحتان كما هو الحال بالنسبة لنفق صغير فلم أتردد في أن أمد يدي داخل الجحر لأستكشف ما فيه . ووقعت يدي فعلاً على شيء أملس فصحتُ فرحاً بهذا الاكتشاف ، وجاء صاحبي يركض إليّ مستبشراً هو الآخر . لم يكن لأي منا سابق خبرة في صيد اليرابيع ، وبالتشاور حول ما ينبغي أن تكون عليه خطواتنا التالية وجدنا أن الأسلم أن يربط أحدنا عند إحدى فتحتي النفق بينما يربط الآخر عند الفتحة الأخرى . وما إن أخذ صاحبي مكانه ونظر إلى داخل الفتحة من جهته حتى صرخ بأعلى صوته " حية! . . حية! " وبلمح البصر سحبت يدي من الجحر وأنا أنفضها ظاناً أن الحية قد لدغني أو أنها ملتصقة بيدي . ولحسن الحظ أن رأس الحية كان من الجهة المعاكسة للفتحة التي أدخلت يدي عبرها ، وكان الجحر ضيقاً فلم

تتمكن من أن تلوي عنقها بالسرعة الكافية وتلدغني ، أو ربما لم تستسغ رائحة يدي فلم تتعرض لها . أسرع صاحبي إلى بستان قريب وعاد معه شاب يحمل بيده فأساً كبيرة . وبضربة واحدة قضى الشاب على الحية . . كان لهذا الرجل ابنة عم هي ابنة صاحب البستان وصادف أن مرت بنا لحظة أن فرشنا الثعبان القتيل على الأرض بكامل طوله الذي زاد عن المترين . كانت الفتاة صغيرة دون سن المراهقة فلما رأت الثعبان الميت وحجمه طلبت من ابن عمها أن يسمح لها بأن تأخذه معها إلى البلد لتريه لذويها ، أجابها لطلبها فامتطت ظهر بغلتها وطلبت منا أن نناولها الثعبان ففعلنا . أمسكت الفتاة بالثعبان من ذيله وتركت رأسه يتدلى إلى أن لامس الأرض ، ومضت به مقطوراً على هذا النحو ، وحين بلغت المنزل وكان مزاجها موافقاً للدعابة اتجهت إلى أمها الواقفة في فناء البيت ، وكانت امرأة قصيرة النظر بعض الشيء ، فغافلتها وأفلتت الثعبان فجأة بين قدميها ! . وبدلاً من أن تبدي الأم دهشتها من ضخامة الثعبان ، وإعجابها بجرأة من قتله ، هرولت هاربة وهي تصرخ من فرط الرعب . وحين اكتشفت أخيراً جلية الأمر أتت بابتتها وأنزلت بها علقه ساخنة .

أما أنا ورفيقي فقد عقدنا العزم ذلك اليوم على اصطيد يربوع بأي ثمن حتى لو كلفنا الأمر أن نخوض مواجهة جديدة مع الثعابين . . دلنا صاحب البستان إلى الطريقة المثلى لاصطياد اليرابيع وهي دلق ملء دلو من الماء بقوة في جحر اليربوع فيخرج الحيوان مذعوراً من مخبئه . فعلنا ذلك ، وفعلاً خرج من الجحر شيء بدا لنا أنه يربوع لا غبار عليه . كانت معنا فأس حادة ، وعندما فشلنا في الإمساك باليربوع بطريقة أكثر رحمة أهوينا بالفأس على

المسكين فشطرته إلى نصفين . اعتبرنا أن ذلك لا يمنعنا من أكله لأنه صيد والصيد حلال أياً كانت طريقة صيده! . . ولم نُضع وقتاً فقد أشعلنا ناراً وشوينا صيدنا . أذكر أن طعم لحمه كان لذيذاً جداً خاصة بعد أن أضفنا إليه قليلاً من الرماد بدلاً من الملح! . . ولم نكتشف إلا فيما بعد أن ما صدناه وأكلناه لم يكن إلا جرذاً كبيراً حسبناه يربوعاً!! . .

ما لم تكن هناك مهمة معينة كلفت بها، كان التجوال بين الحقول وتتبّع مواطن العصافير هو شغلي الشاغل، كانت متعة لا تعدلها متعة وأنا أعد الفخ للصيد بالحصول أولاً على الدود بالطريقة التي ذكرتها آنفاً ثم بوضعها في فخاخنا المنصوبة، وما إن نرى التراب الذي يخفي الفخ وقد ثار إلا ونسابق للإمساك بالعصفور قبل أن يختنق، لا شك أنها وسيلة للصيد كان فيها الكثير من القسوة خاصة وأن الغلة من هذه العملية لم تكن تزيد عن عصفور أو اثنين، وهي غلة لا تغني ولا تسمن من جوع .

مما يثلج الصدر حقاً أن نرى الآن هيئات عديدة في بلاد كثيرة - بما في ذلك المملكة - قد جندت نفسها للحفاظ على الحياة الفطرية في العالم .

إن عملاً جاداً كهذا قادر بإذن الله تعالى أن يعيد إلى الصحاري والقفار روحها وحيويتها، فتعود مثلما كانت تموج بالحياة الفطرية المتنوعة بغزلانها وطيورها، المهاجر منها والمقيم، وغيرها من الحيوانات التي قضى على معظمها الصيد الأهوج، أو هو على الأصح القتل الشامل لكل ما طار في الهواء، أو درج على الأرض دون تمييز، ممارسات كانت بلا شك تنقصها روح رياضة الصيد الصحيحة والوعي الذي لم يدرك فاعلوه مدى الدمار

الذي ألحقه بحق التوازن الطبيعي الذي خص الله تعالى به كرتنا الأرضية .
كانت الجماعة من الرماة يخرجون في لوري ويصطفون صفين على
جانبي صندوقه وبيد كل منهم بندقية رش ، ويسرع سائق اللوري يسابق
قطيع الغزلان بينما ينهمك الرماة في قتل الحيوانات دون أدنى تمييز ، ولا
تنتهي المذبحة إلا بعد أن يكون صندوق اللوري قد امتلأ بالغزلان المصطادة .
ونتيجة لهذا الشره خلت بلادنا والبلاد العربية المجاورة أو كادت تخلو من
الغزال والحيوانات البرية الأخرى ، ولكن بفضل الله تعالى ، ثم بفضل
بعض العقول الواعية ، وبالعامل الجاد من بعض مسؤولينا ورجالنا ، بدأت
الحياة - والحمد لله - تدب في صحارينا ، وأصبح المرء يرى الآن خاصة في
المناطق المحمية طيوراً وحيوانات حلت محل تلك التي انقرضت .

عاشق وحافي القدمين

أجمل أوقات النهار في القرية في فصل الصيف هو بعد العصر وقبل مغيب الشمس ؛ عندئذ يتوجه الناس جماعات إلى البساتين والحقول حيث الهواء العليل والطقس المعتدل وكل شيء يسبح باسم ربه ويدعو إلى الحب والبهجة . . من المناظر الجميلة التي لن أنساها منظر الصبايا من الفتيات وهن ذاهبات إلى العين ، أو عائدات منها ، وقد ملأن جرارهن بالماء البارد . كانت الفتاة إذا ملأت جرتها بالماء تعمدت أن تضعها على رأسها بميلان ظاهر ، وتسير بها أحياناً لمسافة طويلة على هذا النحو ، فلا تتأرجح الجرة أو تسقط ، بل تظل ثابتة في مكانها طول الطريق . وكان حمل الجرة بزاوية مائلة من المهارات التي تعتز بها الفتيات ، ويسعين إلى إبرازها . كانت رحلة الفتاة بمفردها ، أو مع أترابها ، لإحضار الماء دليلاً على دخولها مرحلة النضوج . . والرحلة إلى العين والعودة منها بالجرة وقد ملئت ماء صافياً زلالاً من المهام الرئيسية في حياة النساء . . لم يكن الهدف من الرحلة إلى العين إحضار ماء الشرب للبيت فحسب وإنما كانت الرحلة أيضاً وسيلة لتظهر كل فتاة نفسها في أحسن هندام وأجمل صورة . كانت الرحلة التي تبدأ بعد العصر من كل يوم أشبه ما تكون بعرض متواضع للأزياء والقنود الرشيقة ، يحدث ذلك في فصل الصيف كما ذكرت . كانت الفتيات يتجمعن عادة من كل حارة ومنطقة على شكل مجموعات تكبر وتصغر استعداداً للانطلاق إلى العين . وكان الشباب يتركزون على جانبي الطريق الذي تسلكه الفتيات في

رواحهنَّ وغدُوهن . كان سكان القرية يعرفون بعضهم البعض ، وتربطهم علاقات قرابة وصداقة وجوار ، ولذا لم يكن وارداً أن يخرج أحد من الشباب عن المقبول أو التقاليد المرعية التي يلتزم بها الجميع ، فلا تجد مثلاً من يعترض لفتاة بكلمة تخذش الحياء ، أو يأتي بما يخرج عن حدود اللياقة والأدب ؛ ما كان يفعله الشباب هو مجرد الوقوف إلى جانب الطريق لمشاهدة الفتيات وقد حملن الجرار على رؤوسهن بميلان واضح و سرن بها بثقة واعتزاز .

كنت لا أزال صغيراً في ذلك الوقت ، ولم أكن قد بلغت السن التي أدرك فيها بوضوح سر إعجاب الشباب بالنساء ، إلا أن ذلك لم يمنع أبداً من أن أربط مع أقراني في الطرقات التي تسلكها الفتيات . وكان كل واحد منا يحلم بطريقة ضبابية مبهمة في أن يتمكن يوماً من اختيار شريكة حياته ؛ بل كنا لا نتردد في تسمية من يقع عليهن الاختيار ومصارحة بعضنا البعض بذلك ! .

يعيش الناس في القرى حياة بسيطة طبيعية لا تعقيد فيها ، وهم قد وجدوا أنفسهم يحيون تلك الحياة دونما أي تخطيط أو قصد ، فالناس هنا متعارفون متقاربون يروحون ويجيئون معاً لا يحد من اتصالات بعضهم ببعض قانون صارم أو نظام مما يتحكم مثله بحياة سكان المدن الكبيرة ، ففي القرية يختلط الرجال بالنساء في البيوت والحقول والأعمال عامة ؛ فالمرأة هناك تشارك الرجل في الكثير من أعماله إضافة إلى مهمتها الأساسية في المنزل وتربية الأولاد . وتتميز نساء القرية عن غيرهن بلباسهن المحتشم الذي

يغطي الجسم كاملاً إلى القدمين ، وبغطاء الرأس الذي يغطي الشعر فلا يظهر من الرأس سوى الوجه ، وهذا لباس تقليدي ورثته عن جداتهن وهو موحد إلى حد بعيد ، ويكاد يقتصر على اللون الأسود فقط . . . وحيث إن امرأة القرية لم تدخل عالم " الموضة " والأزياء التي تتغير مع تغير الفصول ، فالرجل الذي نشأ في تلك البيئة أيضاً لا يعرف هو الآخر شيئاً عن الموضة ، كما لا يعرف أن هناك عالماً واسعاً كبيراً تتفنن فيه النساء في العناية بأنفسهن بما يستعملنه من العطور وأدوات التجميل ، وعلى الرجل في عالمه المحدود ذلك أن يحكم على المرأة من وجهها فقط - وجهها كما خلقه الله تعالى - دون أي تدخل من مساعدات خارجية قد تغير الصورة الحقيقية . والفتيان في القرية لا يحتاجون إلى تلك المساعدات الدخيلة ليروا أن فتاة ما تسترعي انتباههم فهم قد نشؤوا جميعاً بنات وصبيان في عالم صغير واحد يعرفون بعضهم البعض منذ أن تفتحت عيونهم على الدنيا ؛ لذلك فعندما يختار الشاب فتاة يكون اختياره عن سابق تصميم وثقة . وفي القرية لا يبدأ الحب وينضج في لحظة من مجرد نظرة فابتسامة فسلام ، بل الحب هنا ، وإن كان هو الآخر يبدأ بنظرة إلا أنه يحتاج كي ينضج إلى سنوات عديدة ، الحب في القرية يبدأ مثل غرسة صغيرة توضع في أرض طيبة وتتعهدها الأيدي بالعناية والرعاية حتى تصبح شجرة كبيرة وارفة الظلال عميقة الجذور . ومن أراد أن يعرف شيئاً عن الحب الطاهر العفيف فليبحث عنه بين أولئك الناس البسطاء الطيبين الذين لم تفسدهم المدينة وأمراضها ، فالشاب قد يختار فتاة أحلامه وهو ما يزال على عتبة المراهقة ويظل يتعهد أحلامه وآماله حتى يأتي الوقت الذي يتقدم فيه لطلب يد فتاته للزواج ، وطوال تلك المدة التي تمتد

لسنين عديدة يعيش الفتى على آماله دون أن يدور بخلده قط أن يقطف ثمرة من ثمار الحب، أو حتى أن يشم رائحة ورداته العطرة، بل هو ينتظر بصبر جميل حتى يأتي الوقت الذي يصبح من حقه شرعاً أن يتمتع بثمرات حبه كما يشتهي .

وخضوعاً للقوانين الأبدية في انجذاب الجنس إلى ضده، وبعد أن وضعت قدمي على أول درجة في سلم المراهقة، وبعد أن تجول نظري هنا وهناك، راح قلبي يرسل إشارات تترى في اتجاهات عديدة طاشت أكثرها وانتهى الأمر ببعضها إلى طرق مسدودة . لكن لا بد مما ليس منه بد فقد حدث أن إحدى تلك الإشارات قد أصابت هدفها، فارتدت عنه بعد أن تحولت إلى سهم ملتهب نفذ بسهولة إلى أعماق القلب فخر صريعاً . كان الهدف فتاة ذات جمال أخاذ ومتوحش في آن معاً، كانت في ريعان صباها تتفجر أنوثة وحيوية ممتلئة الجسم ممشوقته، كل جزء فيه يتناسق تناسقاً كاملاً مع باقي الأجزاء، سمراء تميل قليلاً إلى الطول، شديدة الاعتداد بنفسها، وتعرف أنها مختلفة عن الأخريات، تفوقهن جمالاً وعنفواناً، تعرف أن نظراتها الجريئة تأخذ بمجامع قلوب الشباب، وتعرف كيف ترسل تلك النظرات ومتى ترسلها، ولذا لم يكن غريباً أن يقع في هواها معظم شباب الحارة ومعظم صبيانها ممن هم في مثل سني !! كانت تروح وتجيء في الحارة مثل باقي البنات، إلا أنها كانت تتميز عنهن بسرعة خطواتها . . كانت تبدو كأنها دائماً على عجلة من أمرها، ولا أدري إن كان ذلك جزءاً من أسلوبها في جذب الانتباه . . كانت تريد أن تكون مختلفة عن باقي الفتيات، وكانت في كبرياتها كما لو كانت تريد أن تقول إنها تعرف أنها مختلفة عنهن .

كان نفورها المدروس وهروبها من الصبية وكبرياؤها من العوامل التي تجذبهم إليها؛ إنك لتَنظر إلى فتاة مثل هذه فتثير انتباهك، ثم تعيد النظرة فتحس أن نبضة من نبضات قلبك كانت أقوى من المعتاد. وتختفي هي وتذهب أنت في حال سبيلك، ولكن الصورة تظل عالقة بذهنك. . . وتروح وتجيء ويجرفك تيار الحياة بمشاغلها ومشاكلها، وإن كانت مشاغل ومشاكل صغيرة بحجم سنوات حياتك القليلة، إلا أنك تشعر دون أن تقصد أن الصورة ما زالت حيث هي لم تتلاش، وبما أن التجربة جديدة عليك فإنك تخوضها بكل جوارحك وأحاسيسك، وتبدأ بتحسين الفرص لرؤية هذه التي خفق لها القلب وهو لا يزال غضاً طرياً يوشك أن يتيه في دهاليز المراهقة المتعرجة.

كان التنافس شديداً بين الشباب للفوز بقلبها، لكنه لم يكن تنافساً ظاهراً أو معلناً، كان كل منهم يعمل بوسيلته الخاصة لجذب انتباه تلك الغادة الجموح، فإذا حدث وجادت على أحدهم بنظرة أو خصته بابتسامة فإنه كان سينام ليلتها قرير العين لأن ذلك كان غاية ما يتمناه.

أقبلت ذات يوم قادمة من منطقة البساتين، وكان الوقت قبيل المغرب والمكان على أطراف منازل البلدة، كانت تحمل على رأسها سلة مملوءة عنباً وقد ثبتتها فوق هامتها وهي تمشي مشيتها السريعة دون أن تتحرك السلة أو يسقط من حمولتها شيء. كنت وحدي حينما أقبلت. . . يا للسعادة! ها قد حانت الفرصة التي طالما انتظرتها، سوف أنفرد بجميلة الحي، وسوف تتاح لي الفرصة لكي أقول كل ما ظللت أياماً طويلة أحلم بالبوح به، سوف أبثها

لواعج الشوق وعبارات الحب، وسوف أتفوق على أبطال الغرام الذين قرأت أو سمعت عنهم!! ولن يزاحمني بشر على انتباهها وإصغائها لي وحدي، يا لها من مصادفة مفرحة!.. واقتربت فالتفتي.. ها هي على وشك أن تمر بي وهي تواصل سيرها السريع نحو دارها، ما الذي يحصل؟ إن الذي كانت أقصى آمانيه أن يتلقى نظرة خاصة من ذلك الجمال الشائر المتوحش، هذا الإنسان بدا الآن قلقاً متوتراً يتلفت يمنة ويسرة وكأنه يستجدي العون من كائنات لا يراها، صار يتمنى لو تغور الأرض به ويختفي تماماً، وتقرب الفتاة أكثر فأكثر إلى أن تصبح بمحاذاتي، وترمقني بنظرة من طرف لم يكن خفياً بينما كنت أحاول جاهداً أن أعيد لنفسني هدوءها وأن أسيطر على الاضطراب الذي ألمَّ بي. بذلت جهد الأبطال لأرد النظرة، وعندما فعلت كانت نظرة أقرب إلى طلب النجدة!!.. ورأيتهما تبتسم وهي تبتعد عني وأغلب ظني أن ابتسامتها حوت كثيراً من الرثاء لحالي.

استدرت ويمت وجهي شطر بيتنا وقد تملكني شعور جارف بالفشل الذريع وخيبة الأمل القاسية؛ شعرت وكأن كل ما كان يعتمل في قلبي من لواعج الشوق نحو ذات الجمال المتوحش قد انطفأ فجأة، ولم يعد مشتعلًا كما كان إلى دقائق مضت، وكأن نبتة الحب التي بدأت تنمو من فترة ماتت فجأة، وأن أرضية قلبي غير صالحة لنمو زهور الغرام. وكما يقال فإن الله تعالى لا يجمع بين عشرين، فحيث فشلت في تجربة الحب فقد نجحت في تبرير ما حصل. لجأت وبسرعة إلى المنطق الذي وجدته فجأة أتقنه، قلت لنفسني إن المسألة كلها لم تكن إلا ضرباً من الأماني وأحلام المراهقة التي لا

تتحقق في الأغلب . فكيف لفتاة مثل تلك الغادة المتفجرة الأنوثة وصاحبة الشخصية الطاغية والجمال المتوحش . . كيف يمكن لها أن تعير أي التفات لفتى هزيل مثلي يلبس ثوباً ممزقاً وقدماه حافيتان تغوصان في التراب وشعره أشعث أغبر؟ لسوء الحظ أن نبضات القلوب لا تخضع للمنطق ، وكم من غر صغير جمع صور الجميلات وعلقها على جدران غرفته وبات يحلم بالوصال ، ولا وصال ! .



الطريق - موضح بالخطوط - الذي سلكناه عند القدوم من سوريا .



الوالد: محمد الصالح الخريجي، توفي سنة ١٩٤٠م رحمه الله.



الصورة الوحيدة التي لديّ لخالي محمد فهد المحجل رحمه الله ، الذي احتضننا أنا وإخواني بعد وفاة والدي رحمه الله .



صورتي للشهادة الابتدائية التي علقت عليها واحدة من صديقات الوالدة رحمهن الله جميعاً .

نسمات الأمل تهب من الجنوب

مضت على الجزيرة العربية - قبل أن تصبح المملكة العربية السعودية - عهود سادت خلالها الفوضى واهتز الأمن والأمان خاصة في الحجاز، وهو ما نعرفه اليوم بالمنطقة الغربية. كانت طرق الحج خاصة محفوفة بالأخطار فلا يطمئن الحاج المسافر على نفسه وماله، ومن كان يرجع إلى بلده سالماً كان كمن ولدته أمه من جديد؛ ولهذا كان عدد الحجاج الذين يؤدون هذه الفريضة قليلاً جداً، كان الكثير من الناس لديهم الرغبة الجامحة في تأدية فريضة الحج وما كان يمنعهم من ذلك سوى ما كانت تتعرض له قوافل الحج من اعتداءات على الأرواح والممتلكات من جانب اللصوص وقطاع الطرق.

لم يكن الخوف وعدم الأمان على النفس والمال مقصوراً على منطقة بعينها من مناطق الجزيرة العربية، بل كان ذلك عاماً شاملاً. عاشت الجزيرة العربية عصور ظلام طويلة عم خلالها الجهل والفقر وسادت الفوضى ولم تتوافر في كثير من أنحائها حكومات تقرر الأمن والنظام وتحمي حقوق الناس وأرواحهم، كان كل شيء مباحاً والقوي هو سيد الموقف، وكان هذا هو الحال لمئات السنين عدا فترات الحكم السعودي الأول والثاني حيث استتب خلالها الأمن فأمن الناس على أنفسهم وممتلكاتهم في ظل حكم منظم واع. ودعنا نقدم صورة للأحوال التي كانت سائدة في أرجاء الجزيرة العربية قبل أن يظهر الملك عبدالعزيز آل سعود، ويسترد ملك أجداده، ويعيد إلى

الجزيرة العربية الأمن الذي افتقدته لسنين طويلة ، ويهيئ لها حكماً واعياً
 شرعياً يستمد قوانينه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .
 فهذا المستشرق الفنلندي جورج أوغست أوفالين في كتابه : صور من شمالي
جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر الذي كتبه بعد أن قام برحلتين
 إلى شمال الجزيرة بما في ذلك الجزء الجنوبي من الأردن الآن ، يعطينا صورة
 واضحة من الوضع الأمني في الوقت الذي قام فيه برحلته . وأنقل هنا عن
 الترجمة العربية التي قام بها سمير سليم شلبي في عام ١٩٧١م وراجعها
 يوسف إبراهيم يزيك . وكانت هذه الدراسة قد نشرت في بادئ الأمر على
 دفعتين عام ١٨٥٢م و١٨٥٤م في جريدة الجمعية الملكية بلندن . . يصف هذا
 المستشرق مدينة تبوك كما كانت عليه في الوقت الذي زار فيه المنطقة فيقول :
 " تقع تبوك في سهل منفتح على طريق تمر بها جماعات البدو في غزواتها
 وحملاتها على الأعداء ، ويمر بها مغامرون كثيرون يدفعهم فقرهم إلى استسناح
 الفرص للنهب ، ولذلك يتعرض التبوكيون كثيراً للغزو والسلب فيضطر
 حماتهم إلى التدخل وإعادة ما يستطيعون استرجاعه من السلع والحيوانات
 المسروقة أو المسلوقة . والسهل المحيط بتبوك يعد من الأماكن الأقل أمناً من
 الصحراء ، وقلماً ترك إنسان تبوك أو أتاه إلا خفية في ظلمة الليل ، وهذا ما
 يمنع من التعامل معها . وإذا انتقلت القبيلة الحامية إلى أعالي جبال الحرة ، أو
 إلى الحسمي كما هو الحال في هذا الربيع ، فقد تمضي أسابيع قبل أن يغامر
 البدو بجلب الحليب والماشية إلى سوق تبوك . وبلغ من خوف الناس أنني لم
 أستطع إقناع أحدهم طوال عشرين يوماً قضيتها بينهم بأن يرافقني دليل إلى
 (القرية) أو إلى خربة القصير ، والقليل من التعامل الذي يتم بين تبوك

والقرى القريبة يقوم بأكثره فرع مستضعف من بني هتيم من الشرارت يدعون السويلفة، يستخدمهم أمير القلعة وسكان البلدة أحياناً في أعمال كهذه". (ص ٣٦١-٤٦١)

هكذا كان الحال في الجزيرة العربية، ولا بد أن نذكر هنا أن الحكم السعودي في ذلك الوقت، وهو بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم يكن نفوذه يصل إلى تبوك بل كان يمتد إلى الأحساء وأغلب القصيم ونجد طبعاً وعسير، وكان ذلك في عهد الإمام فيصل بن تركي وهو جد المرحوم الملك عبد العزيز، وحكم من عام ١٨٣٤م إلى ١٨٦٥م.

والحديث عن الأمن في المملكة العربية السعودية لا يأتي بجديد بل هو معروف ومكرر ولكنني أود هنا أن أنقل صورة بعض ما عاناه الرحالة الدانماركي باركلي رونكير الذي قام برحلة طويلة شاقة إلى جزيرة العرب بدأها من اسطنبول في عام ١٩١١م ماراً بسوريا ثم العراق فالكويت ثم إلى الرياض وعوداً مرة أخرى إلى الكويت. لقد لاقى هذا الرجل الأهوال من المرض أولاً ثم التعرض للاغتيال في مواقف عديدة أثناء رحلته. وأنقل هنا مقطعاً صغيراً من النسخة الإنجليزية لكتاب رونكير: «عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل» الذي نشره عام ١٩١٣م وترجمه مع مقدمة جيراالدي جوري عام ١٩٦٨م. يقول الكاتب الدانماركي: إنه عندما وصل إلى الرياض كان مريضاً منهكاً وكان يخشى على نفسه الاغتيال في أكثر مراحل سفره، وفي الرياض قابله المرحوم الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، والد المرحوم الملك عبدالعزيز، حيث لم يكن الملك عبدالعزيز في ذلك الوقت

موجوداً في الرياض . وأحسن الإمام استقباله ، وأكرم وفادته ، وعند سفره مده بما يحتاج إليه في طريق عودته إلى الكويت . يقول رونكيير : " كان واضحاً أن الإمام أدرك أن رفاقي المسافرين ليسوا من الذين يوثق بهم ، لذلك ما إن ابتعدنا عن الرياض مسافة ساعة أو ساعتين والتأم شمل القافلة كلها حتى ظهر أمامنا رجلان من رجالات ابن سعود حيياني بود ظاهر ثم جمعاً رجال القافلة في دائرة وألقيا فيهم كلمة حملت في باطنها التحذير بأنني صديق ابن سعود ، وأن أي رجل يجروء على أن يرفع يده ضدي سوف يقتل " . (ص ١٢٤-١٢٥)

ويقول السيد خير الدين الزركلي في كتابه «شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز» : " من تحصيل الحاصل أن نقول : إن الأمن في بلاد المملكة العربية السعودية ، كان ولا يزال مضرب المثل ، فهو قول يردد في كل مناسبة ويردد على كل لسان " .

" وما من إنسان دخل تلك البلاد ، حاجاً أو معتمراً أو سائحاً أو زائراً إلا وعاد منها يحدث -إذا سئل عن الأمن- بالأعاجيب " . ويضيف الزركلي في شرح الأسباب النفسية التي تقود ابن الصحراء إلى اقتراف عمل مثل السرقة وهو يظن أنه يقوم بعمل شرعي جائز : " بين السرقة في القرية أو في المدينة ، والنهب في الصحراء أو الخلاء فرق نفسي (سيكولوجي) جدير بالدرس ؛ السارق على الأكثر يشعر بصغار نفسه ، ويحس بأنه يخون من يسرقه وأن النظام بالمرصاد له ، ويدرك أن أقرب الناس إليه ، لو علموا بأنه يسرق لاحتقروه ظاهراً أو باطناً ، فهو ذليل صغير حقير ، قد يردعه العقاب ويقسره بسهولة " !

"أما ابن الصحراء فعلى نقيض ذلك، كان يعد النهب وقطع السبيل والسطو على مال غيره قوة؛ ويسميه كسباً حلالاً يعتز أمام قبيلته به ويشهد له رفاقه بالشجاعة ويعلو صوته وصيته، ما دخل الفساد كلمة في العربية ككلمة (الغزو) كان يرادفها الفتح وبسط السلطان، وضم الأضعف إلى الأقوى، واستئصال الشر، وعادت في بادية الجزيرة العربية يرادفها النهب والسلب، وتحفز إلى فعلها اللصوصية والأطماع ونعرة الجاهلية".

بعد هذا الشرح يختتم الزركلي كلامه قائلاً: "فأبناء الحواضر إذن يُسمُّون اللصوصية غزواً، ولا يدرك الغازي أنه (لص) بل هو أشد خطراً على المجتمع، ولا بد مع إنزال العقاب به معالجة (نفسيته) وإلا كانت العقوبة فردية لم يتأثر بها أمثاله". (ص ٤٤٧-٤٤٩)

المقتطفات السابقة هي نتف بسيطة مما كتب عن الجزيرة العربية قبل توحيدها على يدي الملك عبدالعزيز رحمه الله. وبعد توحيد المملكة استقرت الأمور واستوت وأصبح اسم المملكة العربية السعودية يرمز إلى القدرة على التحول في زمن قياسي من الفوضى وعدم الشرعية وانعدام الأمن إلى بلد أصبح مضرب الأمثال في استتباب الأمن وتحويل قسم كبير من أبنائه من حياة البداوة التي تتسم بالجهل والخشونة وتجاهل كل الأعراف الحضارية إلى حياة تحكمها الشريعة وتسيطر عليها نوااميس الحضارة.

لم أكن قبل عودتي إلى المملكة أعرف شيئاً كثيراً عنها. . كنت أعرف فقط أن أبي أتى من القصيم، وأن القصيم جزء من المملكة العربية السعودية. لطالما حلمت بأن أعود إلى المملكة العربية السعودية. . بدا لي ذلك شيئاً طبيعياً وأنه في النهاية لا بد وأن أرجع إلى بلد أهلي وعشيرتي.

كانت المملكة - في تصوري - مكاناً بعيداً جداً يكاد يكون آخر العالم . . . وكثيراً ما كان يتشعب الحديث بيني وبين صبية الحي الذين أقضي أوقات لعبي معهم إلى أن يدور حول بلادي الأصلية ومن أين أتى أبي . . . كما هو متوقع كنت أرفع صوتي باعتزاز بأن بلادنا عظيمة ، وأن والدي جاء إلى هنا بسبب ظروف طارئة ، وإننا سوف نعود حتماً إلى وطننا . كنت أقول هذا وأنا نفسي لا أصدقه ، لأنني كما ذكرت كنت أعتبر المملكة والقصيم بلاداً لا يمكن الوصول إليها لبعدها . ولم تكن الوالدة رحمها الله تساعد كثيراً في الحديث عن وطننا لقلّة معرفتها به ؛ كانت العلاقة قد انقطعت تماماً بين بلد الإقامة وبلد الموطن منذ وفاة والدي رحمه الله الذي قام قبل ذلك بعدة رحلات إلى المملكة أكثرها من أجل الحج ولزيارة بلدته بالقصيم ، ثم كانت وفاته سبباً لانقطاع كل الصلات بيننا وبين بلدنا الأم .

وعندما شاعت الأخبار ، وابتدأ الناس يحكون عن الأمان والطمأنينة اللذين يتمتع بهما زوار تلك البلاد من حجاج وغيرهم في عهد الملك عبدالعزيز ، وأن الطريق لم يعد محفوفاً بالمخاطر كما كان في السابق ، زال تردد من كان يريد الحج أو الزيارة ، وابتدأ بعض موسري أهل القرية يسافرون لأداء فريضة الحج . كان من بينهم جار لنا في الحي تربطه بوالدي صداقة حميمة ؛ حجّ ذلك الرجل ، وفي طريق عودته عرّج على المدينة المنورة للزيارة ، لم يفته أن يسأل عن أقارب وأعمام لنا يسكنون المدينة . وتقابل الحاج مع عمي عبدالرحمن الصالح الخريجي يرحمه الله ، وتحدث الاثنان ، وأخبره الحاج بخبرنا ، وأن أولاد أخيه ما زالوا يسكنون القريتين ، وأن حالهم بعد وفاة والدهم ليست على ما يرام ؛ وحثه على أن ينتشلهم مما هم فيه من الفقر والغربة التي لم يعد لها مبرر بعد وفاة والدهم . . . واتفق الرجلان على أن يعملوا معاً لتحقيق ذلك الهدف .

ولم ينس العم رحمه الله أن يعطي الحاج بعض النقود لإيصالها إلى أبناء أخيه في سوريا . . عاد الحاج سالماً، وبعد الاحتفال والترحيب بمقدمه - كما كانت العادة - جاء لزيارتنا ومعه النقود التي أوّمن على إيصالها لنا . وللقارئ أن يتصور مدى السعادة الغامرة التي شعر بها كل واحد منا " بالثروة " التي هبطت علينا فجأة . كان المبلغ على تواضعه كأنه كنز هبط علينا من السماء ؛ فعندما يمر أحياناً عام بأكمله دون أن يرى الإنسان شكل النقود تكون رؤية حفنة من النقود حدثاً غير عادي . . ولأول مرة تشعر العائلة بأكملها بأهميتها وبانتمائها، ومن نافلة القول أن أذكر أن هذا الشعور لم يكن فقط نتيجة وصول مبلغ زهيد من النقود، ولكن أهميته تكمن في أنه أعاد اللحمة إلى ما كان قد انقطع، منذ سنوات طويلة، من صلة بين العائلة وجذورها في الوطن الذي اغتربت عنه .

ولأول مرة في حياتي بدأت أشعر أن هناك فعلاً بلاداً أنتمي إليها، لقد كان الوطن يعيش في وجداني منذ أن بلغت سن الإدراك، ولكنه كان شيئاً يشبه الخيال، شيئاً لا يمكن الوصول إليه، أرضاً بعيدة تمتد صحاريها إلى ما لا نهاية كما قرأت في كتب الجغرافيا في مراحل الدراسة الابتدائية . لم أكن أعرف الفرق بين القصيم أو نجد، فأغلب الذين هاجروا في طلب المعيشة قبل أن تقبل الدنيا على بلادنا كان أغلبهم يعرفون باسم (النجديون) أو (العقيلات) .

أما الآن فقد وضحت الرؤية وها هي البلاد موجودة، وها هم أهلنا يعيشون فيها، وها هو الحاج الطيب قابلهم وأتى لنا عنهم بالأخبار الطيبة ؛ لم تعد بلادنا شيئاً وهمياً غير محدد المعالم مثل شيء تراه عن بعد وعبر ضباب كثيف .

كان عمي رحمه الله قد أوصى الحاج أن يعرض على أبناء أخيه فكرة العودة إلى المملكة ، كان هذا طبعاً أهم شيء جاء به ذلك الرجل رحمه الله . صحيح أننا كنا نعيش بين أهل وأقارب والدتنا ، وهم أناس طيبون رحماء ، حياتنا وحياتهم كانت حياة الكفاف ، حياة الجري الذي لا ينتهي وراء لقمة العيش ، ولم تكن هناك بارقة أمل ولم يكن أحد يتوقع أن يتغير نمط تلك الحياة ولو بعد حين . إذن هذا هو الوقت المناسب . . وتم الاتصال بالأهل في المدينة المنورة ولم يعد هناك إلا أن تقول الإرادة الحاسمة كلمتها . . واستقر رأي العائلة على أن يذهب ابنها الأكبر إلى المدينة ليرى الواقع بعينه وليقابل أعمامه ويمهد لعودة العائلة . . لم يكن القرار صعباً بل بدا وكأنه الشيء الطبيعي الذي يجب أن يكون . سافر أخي الأكبر صالح إلى المدينة المنورة والتقى بأعمامه وأطلعهم على أحوال عائلته في سوريا ، وكما كان متوقعاً أجمعوا رأيهم على وجوب عودة المغتربين إلى بلدهم . لم تطل غيبة صالح في المدينة المنورة ، إذ ما لبث أن عاد إلى سوريا وقد استقر رأيه على أنه لا حياة بعد الآن إلا في الوطن الأم ، وأن ذلك هو الشيء الطبيعي الذي لا جدال فيه ، أما ما شعر به أخي من وحشة في المدينة المنورة ومن حنين جارف للعودة السريعة إلى القريتين فمرده كما فسرته هو أنها كانت المرة الأولى التي يفارق فيها عائلته .

رحلة العودة

لم تضع الأسرة وقتاً طويلاً في التأهب للرحيل حيث لم يكن هناك ارتباطات مادية مثلاً تطيل الإعداد للسفر أو تعطله ؛ إلا أنه كان هناك شيء أهم وأكبر من أية علاقات مادية : كان هناك ارتباطنا الوثيق بأقربائنا وأرحامنا وعلاقتنا الإنسانية بالجيران والأصدقاء والمعارف ، كل هذه جعلت من فكرة بعدنا عنهم شيئاً أقرب إلى المأساة الحقيقية .

في القرى الصغيرة والأرياف يعرف كل الناس بعضهم البعض ، وتكاد العلاقة تكون بين الجميع أسرية ، هكذا بعفوية وبساطة على خلاف ما هو سائد بين المتحضرين من سكان المدن الكبيرة . ولا إخالني بحاجة إلى القول إن الناس في المدن الكبيرة قد يقطن الواحد منهم في حي أو عمارة لسنين عديدة دون أن يتعرف إلى جيرانه الأقربين ، وهذا للأسف واحد من مساوئ التطور والتحضر!! . . . وإني لأحار حقاً في تفسير ظاهرة ابتعاد الناس عن بعضهم بعضاً كلما انتقلوا من الحياة البسيطة التي تميز سكان القرى إلى الحياة المتطورة في المدن الكبيرة . على أي حال عندما شاع بين الأقارب والجيران أننا على وشك الرحيل إلى المملكة العربية السعودية أخذ الناس يتوافدون على بيتنا لتحري الخبر بعضهم بدافع الفضول ، أما الأغلبية فجاءوا للزيارة والوداع من منطلق الوفاء والعواطف الإنسانية الصادقة .

كانت المملكة في نظر أولئك المودعين - كما كانت بالنسبة لنا - أرضاً بعيدة

مجهولة . ولعل الكثيرين من المودعين كانوا يشفقون علينا بسبب ما نحن مقدمون عليه ، وهو ما كان يبدو لهم في أحسن الافتراضات بأنه مغامرة مجهولة العواقب ؛ ولعل في ذلك تفسيراً للوجوم الذي كان يظهر على وجوه الزوار كلما اقترب موعد الرحيل ، كنت من مكاني بين الرجال أسمع نشيج النسوة ، وأرى الصمت الحزين على وجوه الرجال ، وحتى هؤلاء كان بينهم من سفح الدمع حزناً بل وأجهش في البكاء على الفراق الوشيك . والقروي الذي لم تفسد المدنية الحديثة أصالته يترك عواطفه على سجيتها في مثل هذه المواقف دون أن يرى ذلك علامة ضعف بل يراه على حقيقته شعوراً صادقاً نابعاً من القلب ؛ ويبدو أنه كلما تطورت الأمم وارتقت في مدنياتها صارت تستخف بهذه العواطف في الرجال بل وتستهن بها . . فيا سبحان الله ! .

انتهت فترة الاستعداد والوداع ولم يبق إلا إيجاد وسيلة المواصلات لتنتقل العائلة إلى المدينة المنورة . . كنت مسروراً بالرحلة لسببين اثنين : أولهما : أنني سأتمكن من إكمال دراستي التي توقفت عند نيل الشهادة الابتدائية لأسباب أشرت إليها في مكان سابق من هذه الذكريات ، وثانيهما : حبي الذي لا يوصف للسفر في رحلة طويلة بالسيارة ! . . كانت السيارات في ذلك الوقت قليلة ولا يملكها إلا من أوتي حظاً من الثروة والجاه ، وكل ما كنا نراه في شوارع بلدتنا ونحن صغار هو بعض سيارات الشحن الضخمة التي كانت تمر بالقريتين وهي في طريقها محملة بالبضائع بين دمشق وتدمر . لم تكن تفوتنا فرصة الركض خلف تلك السيارات عندما كان يسعدنا الحظ ونسمع أصوات محركاتها أثناء مرورها في الطرقات

القريبة من بيوتنا . كنا نركض وراءها ، ويحاول الأسرع بيننا أن يلحق بها من خلفها ليجري وراءها بضعة أمتار أو " يتشعبط " بها لفترة قصيرة ، ثم يرمي بنفسه إلى الطريق قبل أن تنطلق به الشاحنة بعيداً . وكم مرة كادت فيها تلك الممارسات الصبائية تودي بحياة ممارسيها .

لم تطل فترة الاستعداد للسفر ، لأنه كما ذكرت لم يكن على العائلة إلا أن تجد وسيلة المواصلات إلى المدينة المنورة إذ لم يكن هناك أملاك أو ثروة تحتاج أمورها إلى تسوية قبل الرحيل . أما الجانب الإنساني للفراق فكان هو الشق الصعب إذ غلبنا التأثر ونحن نرى أهل القرية الطيبين وقد أحاطونا بكل هذا الود والمحبة فذرنا دموع حزن ساخنة صادقة ، وذرف مثلها من جاؤوا لوداعنا ، وداع أسرة كانت تقف على الخط الفاصل بين عالين متباينين : أولهما : على وشك أن ينتهي بحلوه ومره ، وثانيهما : جديد مجهول لم تكن لدى أي من المسافرين فكرة واضحة عنه .

كان لي مثل غيري من الغلمان صداقات عديدة مع صبيان الحي أمضي معظم وقتي معهم نلعب ألعابنا المختلفة التي كنا سعداء بممارستها طوال اليوم ودون أن نشعر بأدنى ملل أو تعب ؛ كان عليّ أن أودع أصدقائي وأن أتخلص من أدوات اللعب التي أمتلكها ! وأترك للقارئ أن يتخيل أدوات اللعب التي كانت متوافرة في أيامنا والتي لم تكن أكثر من كرات صغيرة صنعت من الحجر الصلد ، وكلما ازدادت صلابتها كانت أعلى قيمة . وهذه كنا ونحن صغاراً نصنعها بأيدينا . . نأخذ قطعة الحجر الكبيرة ونبدأ في نقرها وتشذيبها حتى تستدير وتصبح كرة صغيرة بحجم حبة ليمون نباري بها

أقرا . . . كنا نرص صفاً من الفشكات الفارغة ونرسل البلية - هكذا نسميها - نحوها وما أسقطته فهو ما كسبناه . كانت هذه قمة السعادة ونحن أطفال فلم يكن قد أتى عصر الألعاب الإلكترونية بعد ولم يعرف العالم في ذلك الوقت عجائب الكمبيوتر . كانت معظم ألعاب الأطفال تعتمد على الحركة ؛ ولهذا فأطفال الأمس - وعلى الرغم من ضعف العناية الطبية وقصورها - كانوا أصلب عوداً من أطفال اليوم وأقوى منهم بنية ، خاصة أولئك الذين لا يزالون رياضة بدنية ما ، فالطفل اليوم يقضي وقت فراغه في ألعاب تحتاج إلى الرياضة الذهنية ، فهو يستخدم عقله أكثر مما يستخدم عضلاته .

جاء إذن يوم السفر وكان لا بد من توديع الأقارب والأصدقاء . . الموقف حزين والدموع تملأ المآقي ، وقد علا من البعض النحيب ، وخرج الكل في مظاهرة تزف المسافرين الراحلين إلى ذلك المكان البعيد المجهول ! . . كثرت التوصيات لي بإرسال الخطابات والاتصال الدائم ، وأذكر أن آخر شيء شاهدته كان من صديقي محمد السوعان وهو يرسم إشارة على يده تدعوني إلى أن أكتب له حالما أصل إلى خط النهاية . وقد كتبت له فيما بعد خطابات عديدة لكنه لم يرد على أي منها وقد عاتبته فيما بعد عندما قابلته وجها لوجه بعد سنين من الغياب .

كانت وسيلة السفر سيارة شحن ضخمة ضاع في جوفها ما حملناه من متاع قليل . كنا ستة مسافرين : والدتي رحمها الله وأخي الأكبر وثلاث أخوات وأنا . . نقلتنا السيارة إلى دمشق حيث مكثنا بضعة أيام في ضيافة

الشيخ عبدالله العتيبي زوج خالتي رحمهما الله وعائلته . والشيخ عبدالله كان صديقاً لوالدي ، فهو مثله ترك بلاده طلباً للرزق والمغامرة في بلاد الشام ، وبحكم صداقة الاثنين عرض عليه والدي أن يزوجه أخت زوجته ، خالتي ، وقد كان . أكرم آل العتيبي وفادتنا وقد سعدت خالتي أسكنها الله فسيح جناته أيما سعادة بوصولنا إلى بيتها فجأة ودون سابق إشارة ، ولكن لم تلبث سعادتها أن انقلبت حزناً عندما قبّلت أبناء أختها ثم التفتت يمينا وشمالاً تسأل عن فاطمة أختنا التي توفاهها الله قبل أن نغادر سوريا بستين . كنا قد كتمنا الخبر عن الخالة التي لم تكن تقطن بالقريتين ولكن كان لا بد أن تعرف الآن عندما لم تجد الفتاة المتوفاة معنا ؛ ومن جديد ابتدأ البكاء والنحيب وشارك الكل في ذرف الدموع ، وازداد حزن الخالة عندما علمت أيضاً أننا مغادرون سوريا نهائياً . (رجع الشيخ عبدالله العتيبي وعائلته فيما بعد إلى المملكة) .

لا أذكر من كان يشاركنا السيارة عندما انطلقنا من القريتين ، ولكن أذكر أننا عندما غادرنا دمشق كانت السيارة التي حملتنا كأنها جبل عال بما تكدر فيها من أناس ومتاع ؛ فقد ملأ صاحبها حوضها بالأمّعة وترك المسافرين يجلسون فوق تلك الأمّعة ! . . كان هناك أناس كثيرون لا أذكر عددهم ، رجال ونساء وأطفال . كانت السيارة تسير وتتمايل وكأنها تتبختر بحملها الكبير . مضت الرحلة من دمشق إلى سكاكا دون حوادث تذكر ؛ في سكاكا بتنا ليلة وقد استضافنا بعض أهلها وكانوا في غاية الكرم وحسن الوفادة . بعد ذلك ارتحل الركب قاصداً حائل . . كان على المسافرين أن يعبروا صحراء النفوذ ، وكان ذلك هو الجزء الصعب من السفر . ابتدأت الرحلة

والكل يأمل ويدعو الله أن تنتهي إلى خير وتصل إلى نهايتها بسلام . . لم ينس السائق أن يطمئن المسافرين إلى أن الأمور ستسير إن شاء الله على ما يرام وأنه لا يوجد ما يخشى منه، حيث إن لديه قطع غيار لكل ما قد يطرأ على أجزاء السيارة من خلل . . وجدت لنفسي موضعاً فوق الأكداس المكونة في حوض السيارة الكبير، وأخذ المسافرون بالتعرف إلى بعضهم البعض وإلى من انضم إليهم من سكاكا، ولم يمض وقت طويل إلا وقد سادت الألفة بين الجميع وابتدؤوا في سرد القصص والحكايات التي تساعد على التخفيف من ملل الطريق، وسرى سحر السفر وشاعرية الليل في النفوس، فأخذ الشعراء منهم، أو من يحفظون الأشعار النبطية، بالتغني بما يحفظونه مما جعل الجو العام يبدو وكأن الجميع في مسرح أو حفل ساهر . ولم يمض جزء كبير من الليل إلا وقد أخذ الجميع النعاس استجابة لهمسات الليل الباردة وحركة السيارة البطيئة المتهداية على الطريق الوعرة في ظلام الليل الدامس، وأخذ أغلبهم إلى النوم .

أذكر أنه كان في السيارة عائلات كاملة أخرى غير عائلتي، وكان بعضهم يتكلمون بلهجات عربية أسمعها لأول مرة، لا أعلم إن كانوا يقصدون المدينة المنورة أو حائل أو أي مكان آخر؛ كان يبدو على الجميع السعادة والرضا، والكل يتطلع للوصول إلى وجهته التي يبغيها . انصرم الليل وطلع النهار والشاحنة لا تزال تشق الطريق متجهة إلى حائل . . وأشرف المسافرون على صحراء النفوذ . . ولم يمض وقت طويل حتى اقتحمت الشاحنة تلك الصحراء الشاسعة التي تمتد إلى ما لا نهاية! . . ابتدأت الرمال تحيط بالسيارة وابتدأت العجلات تغوص في الرمال

الناعمة . . كانت تلال الرمال تحيط بنا من كل جانب -تلال مهيبة أخاذاً ولكنها طاغية متكبرة ترمق من عليائها المسافرين وسيارتهم وكأنهم دخلاء على عالمها الساحر الغامض . كان المنظر مهيباً وكلما مررنا بأكمة عالية تمثنت أن أهبط من السيارة لأصعد إلى قممتها وأتدحرج إلى أسفل ! . . هذا والسيارة تئن وتتوجع وهي تشق طريقها عبر تلك الآكام الشامخة وكأنها تنظر بعين وجلة إلى ما يحيط بها من مخاطر وأهوال . . وراح المسافرون الآخرون ، وقد خف ضجيجهم وسكن غناؤهم وحدائهم ، يرمقون هم بدورهم كئيبان الرمال التي تحيط بهم من كل جانب بعيون قلقة ، كنت أنقل نظري من جهة إلى أخرى عبر الفضاء الرحب وأعجب كيف يعرف السائق الوجهة التي يقصدها ؛ فهنا الرمال تحيط بنا من كل جانب ، ولا يوجد إلا أثر باهت لما يشبه الطريق تسلكه السيارة ! . وكثرت المرات التي غرزت فيها عجلات السيارة بعد أن أصبحت الرمال الناعمة أكثر عمقاً . ولم تخر عزائم القادرين من المسافرين ، ففي كل مرة كانوا يسرعون بالنزول لدفع السيارة حتى تخرج من كبوتها .

استمر الحال هكذا بعض الوقت إلى أن توقفت السيارة في إحدى المرات ، ظن الجميع أن الوضع لا يعدو أن يكون غوصاً آخر في الرمال . . وهرع الرجال للمساعدة في دفع الشاحنة من جديد وإخراجها من عثرتها الأخيرة ، إلا أنهم فوجئوا بالسائق يعلن أن الوضع الآن يختلف عن المرات السابقة ! . قال السائق بصوت حزين : إن عطلاً طارئاً أصاب شاحنته وأن جهازاً من أجهزتها الأساسية قد انكسر !! . . وأضاف بصوت أشد حزناً أن ذلك الجهاز هو الوحيد الذي لم يجلب له بديلاً اطمئناناً منه بأنه أقل الأجهزة

عرضة للعطب! .. يا للهول!! - كما يقول يوسف وهبي - ويا له من هول وكل هؤلاء الناس فقدوا فجأة سبيل الحياة الوحيد الذي يربطهم بالدنيا؟! ما العمل الآن؟ قال السائق وكرر القول: إن لديه قطع غيار لكل شيء في الشاحنة إلا ذلك الشيء الذي انكسر والذي لم يتوقع - ولو بنسبة واحد في الألف - أنه سينكسر! .. ما السبيل إلى النجاة الآن والجميع ملتفون حول حافلتهم ينظرون إلى بعضهم البعض وكل واحد ينتظر أن يقول صاحبه شيئاً يهون من هول المصاب . لم يكن بالإمكان عمل شيء ، وسرعان ما استسلم الجميع إلى نوع من اليأس السهل الذي سرى في النفوس . . نزلوا من فوق ظهر الشاحنة ، وأسرع الأطفال إلى الرمال الناعمة يتراخضون فوقها ويتدحرجون على جنباتها ، وقد علا صراخهم ، وتتابعت ضحكاتهم ، وكأن الركب لم يقصد ذلك المكان النائي من تلك الصحراء الشاسعة إلا ليهيئ لهم فرصة الانطلاق والمرح التي اغتنموها دوغماً إبطاء . وقفت النساء يتطلعن إلى بعضهن البعض ويحملقن في وجوه باقي المسافرين وهن غير مصدقات لما حدث ، كانت كل واحدة منهن تريد أن تعرف بالضبط مدى خطورة العطل الطارئ بينما انشغل الرجال عنهن بالتشاور فيما يجب عمله . ولما لم تجد النساء ما يشفي غليلهن في معرفة ما حدث ، جلسن فوق الرمال ينتظرن ما يسفر عنه الوضع . أعلن صاحب السيارة أنه سيرسل مساعده إلى سكاكا لإحضار قطعة الغيار التي انكسرت . . ولكن كيف الرجوع إلى سكاكا ولا توجد وسيلة نقل جاهزة تعبر هذه البحار الزاخرة من الرمال؟! ومع ذلك فقد انبرى المساعد يقول إنه سوف يرجع إلى سكاكا ويحضر العون والمساعدة! ولا أدري إلى الآن كيف كان له أن يفعل هذا! .. ولم أعد

أذكر إن كان ذلك الرجل عاد فعلاً إلى سكاكا أم أن كلامه كان مجرد إظهار شهامة ورجولة كانتا مطلوبتين في تلك الظروف الصعبة .

وكما يحدث عادة في مثل تلك الأزمات فقد انبرى كبار المسافرين لتنظيم الأمور، وإيجاد مخرج من المأزق الذي وقع فيه الجميع؛ أما الصغار والنساء فما كان عليهم إلا أن يسمعوا ويطيعوا ويعجبوا لما حل بهم وينتظروا حدوث معجزة! . . لم يكن أحد من المسافرين قد أخذ مأخذ الجد ما قيل لهم عن عون قريب يمكن لمساعد السائق أن يحضره من سكاكا، فأين هم وأين سكاكا؟! ترجل الجميع من السيارة وتجمعوا حولها في الرمال في انتظار ما ستأتي به الساعات إن لم تكن الأيام القادمة .

كان أول شيء بدأ الكبار في تنظيمه هو الحفاظ على ما معهم من مياه . لم يكن هناك كم كبير من المياه، ولذا كان همهم الأول هو أن ما لديهم منها يجب أن يكفيهم إلى حين انتهاء الأزمة؛ وهم يدركون بالتجربة أن الطلب على أي شيء يزداد عندما يشعر الناس أنه نادر! وهذا ما حدث فعلاً . . فما إن علم المسافرون أن عليهم أن يقتصدوا في استهلاك المياه حتى شعر كل واحد منهم وخاصة الصغار بالعطش! . كان على الكبار من الرفاق أن يعملوا على تقنين استهلاك المياه؛ وقد تصدى أولئك للقيادة، ولم يعارضهم الآخرون، بل قبلوا ذلك كحقيقة لا جدال حولها، وقد تقرر منذ البداية أن يكون قانون الاستهلاك صارماً لا هوادة فيه، كان على الذين تولوا أمور المجموعة أن يكونوا حازمين وألاً يتهاونوا في شأن قد يكون التهاون فيه فاصلاً بين الحياة والموت . . فجأة أصبحت أغلى أمنية للجميع أن يعُوبوا

من الماء بحرية كما يشاؤون . . ولكن لم يكن هناك سبيل إلى ذلك . . كانت القوانين صارمة وكان على الجميع أن يتقيدوا بها .

كنت في ذلك الوقت في حوالي الثالثة عشرة من عمري وأدرك تماماً خطورة الموقف الذي طرأ علينا . . كنت أفكر في أمي وأخواتي وكيف سيستطعن ومعهن نساء أخريات تجاوز الأزمة ، خاصة وأنه قد يكون على الجميع في النهاية أن يعتمدوا على أرجلهم فقط في السير في الرمال لمسافات طويلة! . . كنت أشعر بشيء من الاطمئنان عندما أنظر إلى وجوه الرجال ، وأرى عليها علامات الثقة بالنفس وعدم الانزعاج . . وفي نفس الوقت أنظر حولي وأرى كثراناً من الرمال ممتدة عبر الأفق فيرتجف قلبي وتتناوب أفكار رهيبة وخيالات مخيفة . . كانت تلك عوامل تضطرم في نفسي ، ولم يكن هناك سبيل إلى إظهارها إذ إنني كنت واحداً من الذين يشكلون عبئاً على الكبار ، وكان على أخي صالح أن يحمل الهم الأكبر والمسؤولية الكاملة عن أفراد عائلته وأنا واحد منهم . في نهاية اليوم الثاني ، وأذكر أن الطقس كان جميلاً معتدلاً ، بدا الجميع - وأنا منهم - وكأنهم قد نسوا ما هم فيه فصاروا يتجاذبون الأحاديث ويتبادلون النكات والقفشات وكأنهم في رحلة ترفيهية! . حتى صاحب القبر أصبح قبره مصدراً للتعليقات المرححة! .

كانت المجموعة تضم خليطاً من الناس ، وكان واحد منهم يتحدث بلهجة يمنية ، كان دائم المرح حتى في أوقات الشدة ؛ فعندما تعطلت السيارة لم تهتز شعرة في جسده فهو كما عرفناه في اليومين الماضيين ينظر إلى الجانب المضيء من دنياه ، ولا يكاد يرى شيئاً من منغصات الحياة . . هذا الرجل حفر

حفرة في الرمال تشبه القبر ، وعندما سُئِلَ لماذا فعل ذلك أجاب : " لكي أتمدّد بجانبها حتى إذا شعرت بقواي تخور وأجلي يدنو عملت على أسقاط نفسي في الحفرة قبل أن أغيب عن الوعي! " . . ولما قيل له لماذا لا يوكل مهمة دفنه إلى الأحياء أجاب أنه بالنسبة لأولئك الأحياء الذين معه سيموتون جميعهم قبله ويكون هو آخر المتوفين!! . . كان هناك رجل آخر دأب على الانتحاء جانباً في غفلة من الباقيين ممسكاً بيده زجاجة فارغة وقد وجه فوهتها نحو الريح فتصدر صوتاً يشبه صوت سيارة قادمة من بعيد . . وكان يسعده أن يكرر ذلك المرة تلو المرة مثيراً في نفوس الناس آمالاً كاذبة!! . . كما كان هناك رجل ثالث يختلف عن الباقيين جميعاً . . فهو قد اتخذ لنفسه مكاناً بعيداً عن الآخرين ، وعندما سُئِلَ لماذا لا يخالط الباقيين أجاب بأنه لا حاجة به لمخالطة الناس فهو يعرف أنها النهاية وأن كل المطلوب من رفاقه هو أن يهيئوا له جنازة ودفناً يليق برجل مسلم ولهذا فقد حفر هو أيضاً قبره بيده ليكون جاهزاً لاستقباله عندما يحين أجله! . . رجل آخر قال إنه قطع على نفسه عهداً أنه إذا أنقذه الله من المحنة التي هو فيها الآن أن يعمل سائق سيارة أجرة يوصل الناس حيث يريدون! . .

لحسن الحظ كان بين المسافرين كما ذكرت رجال أشداء لم يستسلموا لليأس أو اللامبالاة ، بل سرعان ما شمروا عن سواعدهم ، وفتحوا عيونهم وأذانهم ، أخذين على عواقبهم واجب العمل على إنقاذ الآخرين ، متوكلين في ذلك على الله جلّت قدرته . كان من بين أولئك نفر واحد ذكر أنه يعرف الطريق إلى أقرب مرفأ للنجاة: ذلك هو بئر تربة . قال إن البئر تقع على بعد بضعة كيلومترات من المكان الذي تعطلت فيه السيارة . وبعد مشاورات لم

تطل مع باقي الرجال ، اتفق الرأي على أن يستأنف المسافرون رحلتهم مشياً على الأقدام إلى بئر تربة باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد لإنقاذ الناس من موت محقق ؛ أما البقاء حيث هم في انتظار سيارة قد تمر صوبهم ، فليس سوى ضرب من الموت البطيء . ولما لم يكن هناك من خيار آخر فقد وافق الجميع على القيام بالرحلة نحو بئر تربة .

في صبيحة اليوم الثالث وعندما بدأت خيوط الفجر تشق طريقها عبر غياهب ظلام الليل كان معظم المسافرين قد استعدوا لبدء مسيرتهم نحو البئر المذكورة . كان على الجميع أن يأخذوا برأي ذلك الرجل الذي بدا وكأنه يعرف تماماً موضع قدمه في تلك الصحراء الشاسعة التي بدت لكثير منا متشابهة في كل اتجاه . ولا أدري إلى الآن ما إذا كان الرجل دقيقاً في كلامه عن المسافة إلى بئر تربة ، أو ما إذا كانت المسافة هذه معروفة لدى قادة المجموعة أو نفر منهم على الأقل ، أم أن الجميع كانوا من المجتهدين فقط ، ولا يعرفون سوى الاتجاه العام الذي لو سار فيه الناس لوصلوا إلى البئر مناط الأمل والرجاء . كل ما أذكره أنهم كانوا يؤكدون أن المسافة بسيطة وأنها سوف تمشيها دون تعب ، وسواء كانت البئر قريبة أو بعيدة فلم يكن هناك بُد من السير نحوها مشياً على الأقدام إذ لم يكن هناك خيار آخر .

أخذ الكل أهبتهم للرحيل رجالاً ونساء وأطفالاً وقد استقبلوا يوماً جديداً بآمال وتطلعات لا شك متباينة ، فالأطفال والنساء يساقون ويوجهون دون أن يؤخذ لهم رأي أو مشورة ، فهم في كنف أهليهم ورجالهم المسؤولين عن شؤونهم . أما الكبار فكان جل همهم منصرفاً إلى التأكد من أن كل

شيء جاهز للرحيل! .. كنت أرى الكبار والصغار وقد حمل كل منهم ما يستطيع حمله من حاجيات، إما ضرورية مثل قارورة ماء، أو قليل من طعام، أو بعض الأشياء التي اعتبرها أصحابها ثمينة وغالية ولم يشاؤوا تركها في السيارة. كان الركب في مجمله يشبه فرقة من جنود المشاة اصطفت دون نظام تنتظر بقلق إشارة بدء السير! .. وجاءت الإشارة من قائد المسيرة، فتحرك المسافرون خلفه في خط متعرج متجهين إلى تربة. كانت هناك نظرات وداع حزينة أُلقيت على السيارة التي تركت وحيدة في الصحراء وبها بقية من أمتعة المسافرين. سار رؤساء المجموعة في المقدمة، وأخذ الباقون يتقاطرون واحداً بعد الآخر، والكل يغذّ الخطى حتى لا يترك وحيداً بين تلال الرمال التي أشرفت على خط المسافرين من كل اتجاه فغطت كل ما يقع عليه النظر في ذلك الفضاء الواسع. اجتهد العارفون فاختروا لنا أسهل الطرق، ولكن هيهات أن تجد طريقاً سهلاً في بحر متمواج من الرمال لا تقع عينك على غيره مهما امتد بك النظر؟.

وسار الركب وسار .. وسار .. دون أن يظهر أي تغير في جغرافية الأرض .. رمال فقط ثم تلال من الرمال يتجنبها مرشدونا بمهارة! .. وبعد كل ساعة أو نحوها كان السائرون يتوقفون لالتقاط الأنفاس، ويعلم الله أنهم كانوا بحاجة إلى التقاط أنفاسهم وبينهم الطفل والكبير والمرأة! .. كانت أصغر أخواتي أضعف من أن تسير لمدة طويلة فكان يحملها أخي صالح كلما شعرت أنها لم تعد قادرة على المشي .. أما والدتي رحمها الله فقد بلغ بها الأمر بعد أن سرنا معظم الشطر الأول من النهار أن أصرت على أن نتركها في الصحراء لتموت وننجو نحن بأنفسنا! .. يا لها من لحظات

قاسية! . . كانت الوالدة تسقط على الرمال من الإعياء ، وتحاول بشتى الطرق أن تقنعنا بتركها لمصيرها على أن نكمل نحن المشوار! . . تصور أولاداً يتركون والدتهم في قلب الصحراء لتموت! . . كانت قلوبنا نحن أبناءها تنفطر ألماً عليها . ولم نكن نحن بأحسن حالاً منها من حيث الإرهاق والتعب ، وكانت شكواها المرة تزد من صعوبة واقع الحال . . كل ما كان في مقدورنا عمله هو تشجيعها على الاستمرار في السير ؛ كنا نلجأ إلى إثارة عزيمتها بتأكيدنا لها أن بين المسافرين نساء يكبرنها سنأ ومع ذلك لم يسمع أحد من إحداهن شكوى ، ثم نعود فنؤكد لها أنها لو توقفت عن السير فلسوف نتوقف نحن أبناءها جميعاً وسيكون مصيرنا وقتها هو الموت المحتم . . كان الركب كله في الواقع يتوقف عن السير حالما يسمع أنين امرأة بكاء طفل ، وكانت بوادر التعاسة والإرهاق تلك تعالج بكلمات التشجيع وإنعاش الآمال بقرب الخلاص .

واصل الركب السير . . بدافع إصرار رجال المقدمة وتشجيعهم والأمل في الوصول إلى الماء ومن ثم النجاة ، ومن نافلة القول التأكيد بأن ما كتب الله وقدر فهو حاصل ، وعلى المرء أن يسعى ولا يستسلم لليأس والقنوط . كان واضحاً للجميع أن عدم الوصول إلى البئر يعني نفاذ كمية الماء البسيطة الباقية ، ولذلك لم يكن أحدنا يجروء على طلب جرعة من الماء إلا حين يلتصق لسانه بحلقه من شدة العطش ، كان علينا أن نصل إلى غايتنا قبل نهاية النهار ، واختفاء الضوء ، إذ إن من أصعب الأمور حتى على الأدلاء أن يعرفوا طريقهم في الظلام وسط كثبان الرمال . أثمن ما يملك الشخص هو حياته طبعاً ، ولذا لم يكن مستغرباً أن ترى الجميع وقد هبط عليهم من القوة

والجلد ما لم يعرفوا أنهم يملكونهما ولا من أين جاءتا! وتابع الجميع السير تغوص أقدامهم في الرمال فيتزعجونها انتزاعاً ومن أعاقه منهم حذاؤه عن اللحاق بالركب خلعه وواصل السير بدونه، كل هذا ورجال المقدمة يحثون الناس ويشجعونهم ويبشرونهم بقرب الوصول إلى البئر . . واستمر الحال على هذا المنوال لمدة اثنتي عشرة ساعة كاملة! . . تخللتها طبعاً استراحات قصيرة بين فترة وأخرى، وأخيراً أقبل ركب العطاشى المجهدين على بئر تربة! . .

كنت طوال الوقت أتخيل أن بئر تربة هذه لا بد أن تكون معلماً بارزاً في وسط الصحراء، ولا بد أن حولها بعض المنازل وبعض القاطنين، ولا بد أيضاً أن بعض الأشجار والنباتات قد نبتت بجوارها، كان ذلك ظني قبل أن نصل إلى البئر . . ولكن لك أن تتصور كيف كانت المفاجأة عندما وقع نظري عليها وكلمة "وقع" مقصودة . . فالبئر "تقع" في وسط حفرة لا معالم لها، ولا تكاد تُرى، ويمكن بسهولة لمن لم يعرف بوجودها مسبقاً أن يسقط فيها، أو في أحسن الافتراضات أن يمر بقربها دون أن يراها! . لم تكن هناك أية علامات على الإطلاق يمكن للظمان الذي انقطع به الطريق أن يسترشد بها، كانت الرمال تحيط بالبئر من كل جانب، وكان من كرم الله أن بقي للبئر فوهة ضيقة رصت حولها بعض الحجارة. والشيء الذي حيرني عندئذ -وما يزال- هو الكيفية التي عرف بها ذلك النفر من الرجال طريقهم إلى تلك البئر، وكأنهم يتبعون خريطة أتقنوا قراءتها أيما إتقان، ثم ما هي العلامات التي استدلووا بها؟ هل هي السليقة عند ابن الجزيرة العربية الذي نشأ في الصحراء وترعرع في أجوائها وبين تلالها وكثبانها، فهي بيئته

الطبيعية التي يجد ذاته في ربوعها، وفي هوائها الجاف، وفي رمالها الناعمة؟ .

أود بالمناسبة أن أذكر حكاية صغيرة قد تكون حقيقية أو ربما كانت ضرباً من الخيال لكنها تصور على أية حال مدى معرفة العربي ببيئته البرية . . تدور الحكاية حول بدوي اعتزم السفر فركب ناقته، وأردف خلفه ابنته الشابة، وانطلق قاصداً وجهته التي يبغيها . وكانت الطريق التي سلكها تحتم عليه أن يخترق المنطقة المسماة بالحماد في بادية الشام من جنوبها إلى شمالها في الذهاب وفي الإياب . . والحماد هذه أرض قفراء ترابية منبسطة خالية من أية معالم بارزة يمكن أن يسترشد بها المسافر، وتمتد على هذا النحو لمئات الكيلومترات . عند بداية الرحلة أشار الرجل وهو على راحلته، وابنته خلفه، إلى حجر صغير في الأرض وسأل ابنته إن كانت ستتهدي إلى الحجر عند الإياب، مع العلم أن عودتهما ستكون أثناء الليل! . . وأجابت البنت أنها تستطيع ذلك . وسارا في طريقهما إلى الجهة التي كانا يقصدانها؛ وعند العودة، وبعد أن وصلا إلى نقطة معينة، والظلام يلف المكان، طلبت الابنة من أبيها أن يتوقف عن السير قائلة إنهما قد وصلا إلى المكان الذي يوجد فيه الحجر . وأوقف الأب راحلته وطلب من ابنته أن تحدد المكان بالضبط، فأمسكت الفتاة بزمام الذلول، وبعد أن جذبته يمنة ويسرة، وشدته إلى الخلف، ثم أرختة قليلاً إلى الأمام قالت: "الحجر موجود على يسار الذلول" وقال الأب: "بل هو أمام قدميه الأماميتين" وأصاب الأب . ويمكن أن نتسامح ونقول إن الفتاة أصابت هي الأخرى إذ ليس هناك كبير مسافة بين قدمي الذلول وجنبه . قد تكون القصة خيالية ولكن مغزاها واضح .

أقبل المسافرون على البئر وقد أحس الجميع بانتعاش آمالهم وبعودة الحياة إلى أجسادهم التي أضناها مسير يوم كامل ؛ تهللت الوجوه بالبشر ، وانطلقت صيحات الفرح ، وهرع الذين لم يكونوا قادرين على السير منذ لحظات وقد دب نشاط مفاجئ في عروقهم ، ولا غرو فإنهم قد تخطوا الحد الفاصل بين موت محتم وبين حياة كتبت لهم . وتجمهر الناس حول البئر ، ولم يعر كثير منهم منظر البئر أو شكلها أي اهتمام ، يكفي أن في جوفها الماء الذي سينقذهم - بإذن الله - من الهلاك . . وانصرف المسافرون إلى أنفسهم يصلحون من شؤونهم قدر المستطاع بتجفيف ما بلل أجسامهم من عرق ، ونفض ما علق بها من غبار الطريق ورمالها . وانتحت كل مجموعة صغيرة وكل عائلة جانباً اختارته وحطت به رحالها . لم يعد هناك ما يشغل الناس الآن سوى إرواء ظمئهم بالماء الذي ساروا إليه كل تلك المسافة . . جمعوا ما وجدوه معهم من حبال وأكملوا ما نقص من الطول ببعض عمائمهم ربطوا بعضها ببعض وأدلو دلوهم لاستخراج الماء . . ظهر الدلو معبأ بالماء وقد غطت وجهه طبقة سوداء ليست إلا نوعاً من الخنافس الصحراوية الصغيرة التي تكثر في تلك الأصقاع والتي كان سطح ماء البئر يموج بما تراكم عليه منها! . . كان وجه الدلو مغطى تماماً بهذه الخنافس الصغيرة! . . وقد ساعدت فوهة البئر المنخفضة عن سطح الأرض والرمال الناعمة حوله على جذب الخنافس ودحرجتها لتسقط في البئر كل ما اقتربت منه . .

كانت الصحراء حول البئر مليئة بهذه الخنافس الصغيرة ، وكانت مصدر إزعاج آخر لنا ، لأنها كانت تتسلل بسهولة إلى كل مكان . ومن كثرتها كان من الصعب اتقاء شرها وإبعادها - فما إن ترمي بواحدة منها بعيداً عنك حتى

تجد اثنتين مقبلتين . . كنت أحياناً أتسلى أثناء النهار بالفرجة على هذه الحشرات الصغيرة ومشاهدة سلوكها وهي تروح وتغدو بسرعتها الكبيرة، وخاصة عندما تكون هناك مطاردة من ذكر لإحدى الإناث، ولشد ما أعجبت بالآثر الذي تتركه أطرافها على صفحة الرمال الناعمة النظيفة والذي كان أشبه بلوحة تطريز متقنة أبدعتها يد فنان ماهر، كنت أسأل نفسي كيف تعيش هذه الحشرات وماذا تأكل مثلاً ولا يوجد في بيئتها إلا كثران الرمال . . وقد زال العجب فيما بعد عندما أطلعنا خبراء البيئات الصحراوية بالكلمة والصورة على أن الصحراء القاحلة تعج في الواقع بأنماط عديدة من الحياة وأن هناك أنواعاً كثيرة من الحشرات والزواحف اتخذت من الصحراء مقراً دائماً لها وتعيش مع بيئتها في تواؤم واتزان دقيق، وأن بعضها هو غذاء للبعض الآخر، وكل ذلك من تقدير الخالق سبحانه وتعالى .

لا يمكن لأحد الآن أن يمر بمثل التجربة التي أقصها إلا إذا قصد أن يقوم بمغامرة ما، حيث إن مجرد السفر والانتقال العادي من مكان إلى مكان أصبح ميسوراً ليس فيه ما يثير . . فالطرق المعبدة السريعة أصبحت الآن بحمد الله تخرق أنحاء المملكة من أقصاها إلى أقصاها، ومعظم أبنائنا سوف يعرفون عن صحارينا مما يقرؤونه عنها في الكتب فقط .

كان منظر الخنافس وهي تغطي الدلو مقرزاً يثير الغثيان . . في الوهلة الأولى أحجم أغلب الناس عن الشرب من الماء، ولكن كما في مثل تلك الأحوال هناك دائماً شخص أو أشخاص يقومون بالمهام الصعبة، ويكونون قدوة للآخرين، وكما كان الرجال يقودون الفريق التائه في تلك الصحراء، ويحثونهم على الجدد في السير والتحمل، كانوا هم أنفسهم الذين بدؤوا

بشرب ماء البئر ، فقد أراحوا الخنافس بأيديهم وكأنها شيء عادي توقعوا أن يجدوه طافياً فوق الماء ، أراحوها وشربوا وكانوا كأنهم يشربون ماءً عادياً صافياً زلالاً لا غبار عليه ولا خنافس ! . شرب هؤلاء ثم قدموا الماء لباقي المسافرين ، قلّدهم البعض وشربوا بينما بقى آخرون ، والنساء خاصة ، لا تقوى أنفسهن على الإقدام على تذوقه ، إلا أنه عندما لا يكون هناك بديل سرعان ما تخضع النفوس وتحنى الهامات إذعائاً للواقع ! . . هذا ما حدث في ذلك اليوم البعيد . لم يكن هناك ماء آخر ولذا كان من البديهي أن يتقدم الناس واحداً بعد الآخر ويشربوا ماء البئر . . ولكن ليت الأمر اقتصر على شكل الماء حينما يخرج من البئر مغطى بالخنافس الميتة . . كانت المفاجأة الثانية هي طعم الماء ! . . كان طعمه يشبه إلى حد كبير شربة الملح الإنجليزي التي كنا نشربها ونحن صغار . . كان الماء شديد المرارة ، ليس مالحاً بل مرّاً . . سرعان ما أدركنا جميعاً أن أمر الخنافس كان سيهون لو كان الماء من مذاق مقبول . فالخنافس تزاح بطرف الإصبع ، أما المرارة فلا سبيل إلى إزاحتها ! . . حاولت بعض النساء غلي الماء ولكن دون جدوى .

والشيء الغريب أنه لا طعم الماء ولا تلوثه منع في النهاية المسافرين من شربه واعتياده ! . كان الناس في البداية يتأففون ويتقززن ويغمضون أعينهم حينما يشربونه ، ولكنهم سرعان ما اعتادوا طعمه وشكله ، ولم يعد يثير في أنفسهم الاشمئزاز الذي أثاره في البداية . ومن طبيعة الإنسان أن يعتاد سريعاً الشكل الذي تستقر عليه حياته ، وأن يألف العيش في أوضاع كان يعتقد قبل ظهورها ألا مجال للتعايش معها . . ومن الصعب جداً أن تتخيل كيف عاش الإنسان الأول ، وكيف واجه الظروف القاسية التي أحاطت به ،

لكن الله تعالى خلق الإنسان وخلق معه إرادة جبارة تمكنه من قهر أصعب ظروف الحياة . والإنسان بطبعه لا يستسلم لليأس ، فما دام هناك شيء يمكن عمله للبقاء فهو يعمل . وعادة لا يمضي الإنسان وقتاً طويلاً يندب سوء حظه بل سرعان ما يشمر عن ساعد الجدل ليواجه أي ظروف صعبة يجد نفسه فيها . . وهكذا لم يكن بالشيء المستغرب على مجموعتنا في تلك البقعة النائية وسط صحراء النفوذ أن تواصل التشبث بأهداب الحياة خاصة بعد العثور على الماء وازدياد الأمل تبعاً لذلك باقتراب الفرج .

قضى المسافرون بضعة أيام دون أن تلوح في الأفق أي علامة تبشر بانفراج أزمته . كنت وعائلي قد اخترنا مكاناً منعزلاً كما فعل من كانوا يشكلون عائلات ، وكنا نقضي وقتنا في جدل دائم حول ما إذا كنا قد اتخذنا القرار الصحيح في مغامرتنا هذه بالسفر إلى المملكة العربية السعودية . كانت الوالدة رحمها الله تنخرط بين فترة وأخرى في بكاء حزين لفراق بلدها وأهلها ؛ خاصة وهي ترى نفسها في قلب الصحراء القاسية التي لم يكن لها عهد بمثلها ، ومما زاد في حزنها أن تكون نهاية الرحلة في تلك البقعة النائية ، وأن تموت هي وأبنائها دون أن يعرف أحد بموتهم ! . . كان حزنها شديداً على فراق أهلها وعشيرتها وقريتها . . كانت تبكي كثيراً ، ثم لا تلبث أن تعود إلى نفسها وتبدأ في تلاوة ما تعرف من آيات القرآن الكريم ، وتؤكد لنا نحن أولادها أن الله تعالى لن يتخلى عنا . . .

وجاء الفرج . . كان في البداية على شكل بعض الرعاة يسوقون أغناماً أمامهم يقصدون ماء البئر . وبسرعة تم الاتفاق بين المسافرين والرعاة على شراء بعض الخراف للطعام . كانت تلك خطوة نحو انفراج الأزمة . .

واشتريت الخراف وذبحت وطُهِيت في ذلك الماء طبعاً . . وليت المسألة اقتصرت أيضاً على الطبخ بالماء المر . . بل زاد الوضع سوءاً هبوب عواصف رملية عاتية! . والعاصفة في الصحراء ليس بالضرورة أن تكون عاتية بل يكفي أن تتحرك الريح لتثير سحب الرمال التي سرعان ما تحجب الرؤية وتجعل الحياة كئيبة . لم يكن لدينا أي نوع من الحماية ضد تلك الزوابع الرملية التي تعمي الأبصار، وتسد الأنوف، وتملأ الأفواه بالرمال!! . . وإذا حدث ذلك أثناء الطبخ فقل على طعامك السلام إلا إذا شئت أن تزدرده دون مضغ! . . ولم يكن ذلك صعباً خاصة إذا كانت أعضاؤك تصرخ من الجوع! .

لا أذكر كم يوماً مكثنا بجوار بئر تربة، ربما ثلاثة أو أربعة أيام . كنت أقضي جزءاً من اليوم في التجوال فوق كثبان الرمال حريصاً في الوقت نفسه ألا يغيب القوم عن عيني، كانت تلك تسليتي الوحيدة طوال النهار حيث لا يوجد شيء آخر يمكن عمله . . كنت حريصاً صباح كل يوم أن أتجول في الأماكن نفسها التي زرتها بالأمس لأرى مدى ما أعادت الريح تسويته مما شوهته الأقدام والحركة من سطح الرمال الأملس في اليوم السابق . . ولكن الوقت الأكبر كنت أقضيه في مشاهدة الخنافس الصغيرة وهي تتسابق في اتجاهاتها المختلفة خاصة تلك التي تحمل خنفسة أخرى على ظهرها والتي لا أعرف إلى الآن إن كانت تحمل على ظهرها ابنها أو زوجها!! . . حاولت مرة أو اثنتين أن أجِد في المنخفضات الموجودة بين تلال الرمال نقطة معينة يحتمل أن يكون تحتها تجمع ماء أكثر قابلية للشرب من بئر تربة ولكن محاولاتي لم تزد عن نبش الأرض بأظافري لبضعة سنتيمترات أصاب بعدها باليأس ولا ألبث أن أعود أدراجي إلى حيث يوجد الناس .

لم يكن هناك لدى المسافرين ما يمكن عمله طوال النهار عدا الانتظار إلى أن يأتي الله بالفرج . اختفى بعد يوم أو اثنين شعور الناس بالخوف من المجهول أو من خطر يهدد الحياة . . فوجود الماء أعطاهم طمأنينة ، ومرور الرعاة جعل الكل يدرك بأنهم قريبون من مرفأ للنجاة ؛ بل لقد حل هناك شعور بشيء من المتعة وكأن الناس في نزهة ، وإن بُعد مكانها بعض الشيء ، وطالت مدتها بعض الوقت ! . . وكما ذكرت سرعان ما يعتاد الناس مر العيش والاستسلام لواقع الحال .

مثل تلك التجربة يمكن أن تصبح مجالاً للتغني بجمال الصحراء وعظمة أسرارها وامتدادها اللانهائي . . فالصحراء ذلك الشيء المجهول المهيّب الذي تشعر في وسطه بأنك مخلوق متناه في الصغر . . تماماً كسمكة صغيرة في محيط لا نهائي . . تأسرك بعذريتها وغموضها . . تبهرك بذرات رمالها الناعمة الدقيقة وكثبانها الهائلة . . تسحرك حيث تنبثق شمس الصباح مرسلّة أشعتها الذهبية على طعوسها التي تنحدر ظلالها على وديانها العميقة . تسترعي اهتمامك حتى حركات حشرات الصغيرة التي ترسم بأرجلها العديدة رسومات سريالية على صفحة تلالها الناعمة . . تدهشك بقطرات الندى في الصباح الباكر وقد تشبّثت بما صادفته من عروق وأوراق لنباتات تناثرت متباعدة هنا وهناك . . يشدك منظر طيورها وقد علت في السماء وكأنها تباهي بعضها البعض برشاقة طيرانها ، وتصيح مغردة فتذكرك أن الصحراء حية ! . .

أصبحنا ذات يوم وقد وصلت إلى البئر قافلة جمال يقودها أصحابها من البدو للتزود بالمياه وسقي إبلهم ، كان هذا إيذاناً آخر بالفرج . لم يضع كبار

المسافرين وقتاً في الطلب من أصحاب القافلة تأجيرهم بعض الجمال لنقل الجماعة إلى أقرب قرية . . وسرعان ما اتفق على الأجرة، وقررت كل مجموعة من المسافرين استئجار ما يحتاجونه من الإبل . أخذنا جملاً واحداً كان كافياً لإركاب الوالدة والأخوات الصغيرات . كنت أحصل بين كل فترة وأخرى على وقت قصير فوق ظهر الجمل عندما يأخذ التعب مني مأخذاً لا أعود معه أستطيع المشي . . مكثنا هكذا ثلاثة أيام نسير أغلب النهار ونستريح في الليل . . ومن لم يجرب ركوب الجمل سيجد أنه ليس من السهولة أو المتعة لأول مرة أن يتكوم الإنسان على ظهر جمل ويأخذ بالميلان إلى الأمام ثم إلى الوراء برتابة لا تنتهي! . . ولكن مهما كانت تلك المعاناة فهي قطعاً أرحم من السير على الأقدام في الرمال لساعات طويلة . . ألمّ بي عارض مرضي عانيت منه في هذه الفترة، واشتد عليّ في إحدى الليالي حتى خشي أهلي ألا تمر الليلة دون أن يحصل مكروه، ولكن الله سلّم . . لم يلبث العارض أن توارى فجأة كما ظهر فجأة، واستطعت في صباح اليوم التالي أن أقف على قدمي وأن أرافق المسافرين إلى المحطة التالية . . ووصل الركب إلى بقعاء .

تنفسنا جميعاً الصعداء عندما وصلنا إلى بقعاء، وأدركنا أن معاناتنا قد وصلت أو أوشكت أن تصل إلى نهايتها، وأنه من الآن فصاعداً ستكون الأمور سهلة ميسورة بإذن الله . قصدنا إلى دار أمير القرية، كما كانت العادة ولا تزال إذ يعتبر أمير البلد هو المضيف، ويعتبر بيته داراً للضيافة . . وحيث إن العدد كان كبيراً، ولم يكن بالإمكان أن تستوعبه دار الأمير، فقد توجهنا إلى بستان في القرية كثير الأشجار وافر الظلال . وهناك وجد كل جماعة

مكاناً لهم تحت ظل الأشجار . ولم يلبث الجميع أن شملهم الأمير بكرم ضيافته وحسن وفادته .

ولقد كان أمير القرية كريماً حقاً فقد بادر بذبح بقرة ، وأمر خدمه بأن يسرعوا بطبخها وتوزيعها على المسافرين الذين انتشروا تحت أشجار النخيل . كانت النقلة من حال إلى حال ؛ من المعاناة التي واجهناها عندما تعطلت بنا الشاحنة في الصحراء ، من الانتظار عند بئر تربة ، من السفر ثلاثة أيام فوق ظهور الجمال أو خلفها ، إلى الاسترخاء الآن تحت ظلال الأشجار ، تُشكّل تغييراً كبيراً لم يكن المسافرون أو معظمهم حريصين على التخلي عنه لشقاء الطريق من جديد .

مكثنا بضعة أيام في قرية بقعاء . وعند توفر أول سيارة تنقلنا إلى حائل بدأنا بالاستعداد للسفر .

سارت بنا السيارة تقطع الطريق إلى حائل دون عوائق . وصلنا إلى حائل حيث كانت هناك نقطة النهاية لبعض المسافرين وللسيارة نفسها ، أما البعض الآخر ونحن منهم فقد كان عليهم أن يواصلوا سفرهم إلى المدينة المنورة . ومرة أخرى حططنا رحالنا في انتظار سيارة أخرى تنقلنا إلى وجهتنا النهائية ، وسرعان ما وجدنا أن جلوسنا في حائل كان بمثابة إجازة ممتعة مقارنة بما لاقيناه في سفرنا .

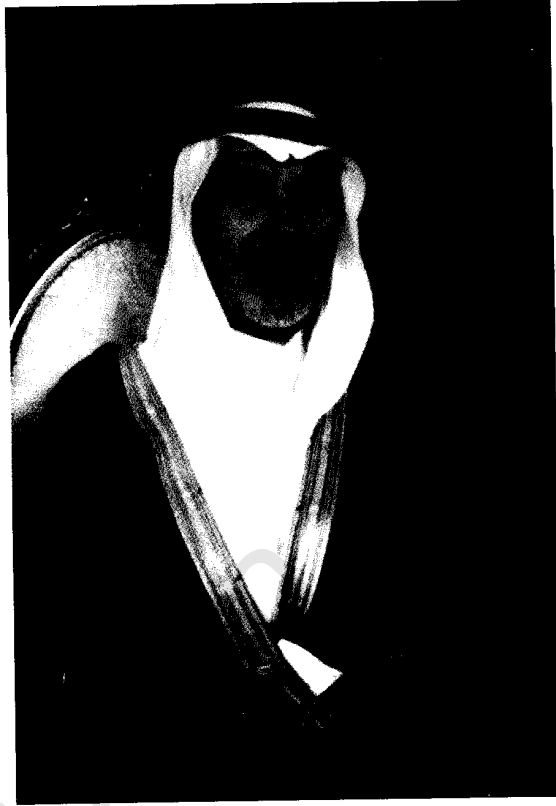
كنا قبل أن نغادر سوريا قد اتصلنا بالسفير السعودي يومئذ بدمشق المرحوم الشيخ عبد العزيز الزيد - أنا لم أعرفه شخصياً ولكن مما يعرف عنه أنه كان من فحول الرجال ، كان رجلاً عظيماً عالي الأخلاق والهمة ، وكان

يعتبر نفسه ليس فقط سفيراً لبلاده بل أخاً وأباً وسنداً لكل سعودي يقابله في سوريا، وكان سباقاً دائماً إلى عمل الخير ومساعدة من يحتاج إلى مساعدة، وما إن عرف بوضعنا حتى أبدى استغرابه الشديد لبقائنا في سوريا بينما لنا أهل وعائلة من كبار العائلات في السعودية، وكان قد أبدى عندئذ استعداده لتقديم أي مساعدة نحتاج إليها إن كان لنا رغبة في العودة إلى بلادنا. وعندما استقر رأينا على العودة كان هو الذي اتصل بأعمامنا في المدينة المنورة وأخبرهم بنيتنا على السفر إلى هناك، ونسّق الأعمام مع الشيخ عبدالعزيز رحمهم الله جميعاً واتفق على أن نزل عند وصولنا إلى حائل ضيوفاً على عائلة دخيل الله السعد؛ وهم من كبار تجار حائل، ولهم صلات تجارية متعددة مع آل الخريجي في المدينة المنورة.

ولا أذكر الآن كيف عرفنا طريقنا إلى مضيفينا بحائل، أو كيف عرفوا هم بوصولنا!.. ربما تم ذلك عن طريق إرسال بعض البرقيات إلى القرى التي مررنا بها وهي سكاكا وبقعاء؛ كل الذي أعرفه الآن أننا حالما وصلنا إلى حائل تم اصطحابنا إلى بيتٍ بدا لي كبيراً وأنيقاً، فشعرنا لأول مرة منذ مغادرة القريتين بالراحة الحقيقية والطمأنينة!.. لقد أصبحنا في أيدي أمينة، ولم يعد الخوف من حوادث مجهولة غير متوقعة يقلقنا. ومما زاد في اطمئناننا أننا أصبحنا قاب قوسين من المدينة المنورة. كان مضيفونا على درجة عالية من حسن الوفادة ودفع الاستقبال.. فقد دأبت سيدات العائلة على زيارة والدتي وأخواتي والترحيب بهن أجمل ترحيب مما جعلهن يشعرن أنهن بين أهليهن. كانت أياماً جميلة قضيناها في حائل، وكثيراً ما كنت خلالها أجوب شوارع البلدة أتعرف إلى معالمها وأشاهد أهلها. كان

كل شيء جديداً عليّ؛ فالناس هنا غيرهم في البلدة التي تركتها في سوريا، وأكثر ما كان يثير انتباهي هو لهجة أهل حائل المتميزة التي تختلف اختلافاً كبيراً عن اللهجة التي اعتدتها في سوريا! . . .

مكثنا عدة أيام في حائل كانت كما ذكرت ممتعة خالية من كل ما يكدر النفس . . . إلا أننا سرعان ما بدأنا نتململ فلا يزال أماننا سفر، ثم إن الحياة ليست جلوساً ودعة فقط، ومن طبع البشر الحركة والعمل؛ ولهذا لم يكن غريباً أبداً أننا بدأنا نتطلع إلى الارتحال من جديد. وسرعان ما أجبنا لطلبنا، وحصلنا على شاحنة تقلنا إلى نقطة النهاية في رحلتنا وهي المدينة المنورة. سارت السيارة بيسر وسهولة دون أي عقبات. كانت الطرق في تلك الأيام غير ممهدة، وكان السفر بطيئاً لشاحنة كبيرة، ولا يقارن بسرعة سيارات اليوم . . . وفي اليوم التالي وبعد السير الجاد معظم الليل أصبحنا وقد هب علينا نسيم طيبة.



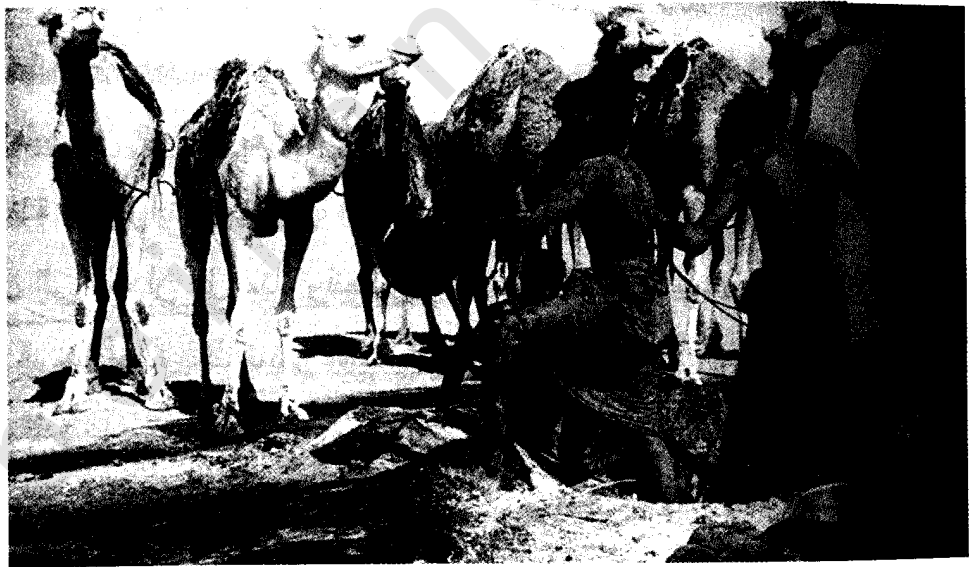
أخي صالح محمد الخريجي الذي لولا إصراره وتصميمه لتأخرت عودتنا إلى المملكة
سنوات عديدة وتغيرت تبعاً لذلك أمور كثيرة



هنا كان بيتنا بالقريتين، ويرى معي أخي صالح في زيارة
لسوريا منذ عدة سنوات



مدرسة القرين الابتدائية التي نلت منها الشهادة الابتدائية السورية .
تظهر هنا بعد تجديدها وتغيير اسمها .



ليست هي الجمال التي وردت على بئر تربة ، ولكنها ورعاتها
تساعد في تقريب الصورة التي تحدثت عنها .

obeikandi.com

طيبة الطيبة .. آخر المشوار

أي رحلة يصل المسافر إلى نهايتها يتنفس الصعداء ، ويهناً بسلامة الوصول ، فما بالك عندما تكون هذه النهاية هي مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم . . . تغشاك عندئذ حالة من الشعور بالرضا والطمأنينة ، ويلفك جو من السكينة يُحَلِّق بك فوق السحاب بعيداً عن تفاهات الحياة وصغائر اهتمامات البشر . هذه إذن المدينة المنورة التي قاسينا ما قاسيناه حتى لمست أقدامنا ترابها الطاهر . هذه هي عاصمة الإسلام الأولى التي فتحت قلبها وذراعها لرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام عندما اضطره قومه إلى مغادرة بلده مكة . هذا بلد الهجرة ، بلد الأوس والخزرج ، بلد الأنصار الذين كان لهم شرف سبق إلى نصرته الإسلام والإيمان بالله ورسوله عندما لم يستجب له عليه الصلاة والسلام إلا نفر قليل من قومه قريش . اختار الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم طيبة الطيبة عندما أُخْرِجَ من أحب البقاع إليه تحت ضغط جهل الجاهلين من قريش .

لم يكن أحد منا يستطيع أن يُعَبِّرَ عن أحاسيسه في اللحظة التي رأينا فيها قباب المسجد النبوي وماذنه . . كان شيئاً روحانياً قد تسلل إلى وجدان كل منا ، وانعكس ذلك على الوجوه فبدت وكأن شعاعاً من نور قد غشاها . . كنا ننظر أحداً إلى الآخر فنرى الوجوه وقد طفحت بالغبطة والسعادة .

يكون الانتقال من مكان إلى آخر مصحوباً في العادة بكثير من الإثارة والرغبة في اكتشاف المكان الجديد والعالم المحيط به . . وهذا ما حدث لي

عندما وصلت إلى المدينة المنورة ، فقد كان كل شيء غريباً لم أعهده . . بدأت بالتعرف إلى الناس المحيطين بي من أعمام وأبناء أعمام وأقرباء وهم كثيرون . . كان أول اهتمامي طبعاً منصباً على زيارة الحرم النبوي الشريف والأماكن المحيطة به . .

كانت المدينة في تلك الأيام على حالتها القديمة ؛ الحرم النبوي كان آخر توسعة شهدها هو ما قام به الملك عبد العزيز طيب الله ثراه ، والأماكن والدور المحيطة به كانت على حالها لم تتغير منذ مئات السنين . كانت المدينة المنورة بشوارعها الضيقة وحاراتها التي تضمها أحواش مقفلة مكاناً صغيراً محدوداً تكاد تقطعها من أقصاها إلى أقصاها سائراً على قدميك في ساعة أو نحوها . . كانت أسواقها مركزة حول الحرم النبوي ودكاكينها صغيرة بسيطة يتركها أصحابها وقت القيلولة دون أن يهتموا بإقفال أبوابها مكتفين بتغطية البضائع أو سد أبواب الحوانيت بقطعة قماش من الخام السميك . . كان هذا نتيجة الأمان الذي شاع في البلاد إبان حكم الملك عبد العزيز رحمه الله . . كان أصحاب المحلات يتركون محلاتهم مفتوحة دون حراسة ، وكان ذلك يتم بعفوية تامة ، وما تزال حكومتنا الرشيدة أعانها الله تجاهد لتبقي الوضع كما كان عليه على الرغم من أن إنجازاً كهذا الآن يتطلب أضعاف الجهود التي بذلت سابقاً ؛ وذلك بعد أن كبرت مدنتنا واتسعت ، وتطورت البلاد كثيراً ، وفتحت أبوابها لأعداد كبيرة من الأجانب الذين يقصدونها للعمل .

أقمنا عند قدومنا إلى المدينة المنورة في بيت أحد أقربائنا لمدة قصيرة ، ثم انتقلنا إلى العيش في منزل مستقل استأجره لنا عمنا . تلاشى بعد فترة وهج القدوم ، وخبا بريق التعرف إلى الجديد ، وبقي أن نبدأ حياتنا في موطن

الآباء والأجداد . لم يكن هناك شعور بغربة فهذا بلدنا وقد عدنا إليه . .
ولهذا بدا أن كل الأمور تسير بسهولة وتلقائية ؛ الأخ الأكبر افتتح دكاناً
صغيراً كبداية لدخوله عالم التجارة ، أما البنات فلم يكن لديهن ما يعملنه
سوى أن الصغرى منهن التحقت بمدرسة خاصة بها معلمة واحدة تشرف
عليها وتعلم البنات القراءة والكتابة وبعض شؤون الحياة التي على تلميذاتها
أن يتقنها . وكما هو متوقع التحقت بالمدرسة منذ وصولي . كان وقت
وصولنا إلى المدينة صيفاً ، ولذا فقد أحضر لي عمي مدرساً خصوصياً
علمني بعض الموضوعات التي لم أكن قد ألفت بها في مدرستي السابقة في
سوريا ، وعند بداية العام الدراسي التحقت بالسنة النهائية للدراسة الابتدائية
بالمدرسة الناصرية وحصلت على الشهادة الابتدائية السعودية .

وشيئاً فشيئاً دخل أفراد العائلة في خضم الحياة كل يسعى ويتطلع إلى
مستقبل وحياة غير تلك التي عرفها في سوريا ، لا شك أنه لم تكن هناك
تطلعات كبيرة ولا أشياء محددة يريد أحد أن يحققها ! المهم أن العائلة
تخلصت من حياة الفقر والفاقة التي كانت تعيشها في سوريا . . لم يعد
هناك ذلك الخوف من الحاجة ، كما لم يعد هناك الشعور بالقنوط
والاستسلام . هنا الآن مستقبل ينتظر الجميع ، ولكن كان هناك شيء آخر لم
نأخذه جميعاً في حسابنا ؛ فلم تكد تمضي بضعة أشهر وتخبو بعدها بهجة
الوصول إلى الوطن الجديد ، ويذهب الحماس الذي يصاحب اكتشاف عالم
لا عهد للمرء به من قبل ، وتتلاشى اللفتة لمقابلة الأهل والأقرباء الجدد ، لم
يكد كل ذلك ينتهي حتى بدا وكأننا كنا في حلم واستيقظنا منه ! . . كان كل
واحد منا يحاول أن يحتفظ بما يشعر به لنفسه ولا يبوح به للآخرين ، لعله

شعور طارئ ما يلبث أن يختفي . . بدأ الحنين خفيفاً هيناً من ذلك النوع الذي يداعب النفس والذي تشعر في بدايته أنه دقيق رقيق تستريح له وتدعه يدغدغ إحساسك وتستسلم له بلذة هي أقرب إلى ما تشعر به إثر لمسة يد حانية من حبيب ! . . ولكن هذا الشعور ما لبث أن نما وأصبح عارماً يضغط بالحاح من أجل الخروج من خبايا النفس إلى دائرة العلانية . . وحين لم يعد بالإمكان إخفاء آهات الحنين، وكتمان مرارة الفراق التي صارت تغلي داخل الجوانح، والتي لم تعد تحملها حنايا الضلوع، فإن جواً من الكآبة تغلفه غلالة قاتمة ما لبث أن خيم على البيت الصغير .

كانت الوالدة رحمها الله أول من جأ بالشكوى على فراق أهلها وبلدها . كنا نحب أن ندعي لأنفسنا أن الوالدة فقط هي التي افتقدت وطنها وعشيرتها، ولكن شيئاً فشيئاً بدأنا نعترف بأننا جميعاً افتقدنا القريتين وأهلها، وأن فترة البعد القصيرة هذه كانت هي الاختبار الذي لم نعد أنفسنا له . . كان شوقنا نحن الأبناء إلى الديار التي تركناها يتفاوت من شخص إلى آخر؛ ولكنه كان شوقاً عارماً وإن لم يقارن بما حدث للوالدة . ولم يكن هناك شيء يشغلها عن فراق وطنها الأول؛ أخذت تبكي وتنوح في الليل والنهار، وعجز الجميع أن يهدئوا من حدة حزنها وبكائها . وصار الحزن علامة لازمة لمنزلنا، نروح ونجيء والوالدة لا يكاد يجف لها دمع؛ افتقدت أخويها وأختها وأولادهم، وافتقدت إلى جانب ذلك أنسام بلدها وبساتينها وكرومها بل وأزقتها وبيوتها البسيطة، كانت تلك جنتها التي خرجت منها والتي لم تكن تدري أنها بفقدائها ستصبح حياتها عذاباً لا ينقطع . حاول الجميع وبكل الطرق تسلية الوالدة ومساعدتها على التأقلم مع الحياة الجديدة

ولكن دون جدوى . . فقد كان ردها دائماً أن الحياة في المدينة المنورة رائعة ، وأن الإقامة بهذا البلد الطيب أمنية تتطلع إليها نفس كل مسلم ، ولكن البعد عن بلدها شيء يستحيل الصبر عليه ! . .

أثارت القضية هذه أزمة صغيرة بين أفراد العائلة وأقربائهم في المدينة المنورة ، واختلفت الآراء ؛ كان البعض من الأعمام يرى أن تعود العائلة بأكملها إلى سوريا وتنتهي بذلك عذاب الوالدة . . بينما رأى البعض الآخر أن ذلك خطأ كبير وغباء لا ينبغي أن يُشجّع ، وإذا كان لا بد من عمل شيء فلتهيأ الفرصة للوالدة لتسافر إلى سوريا في زيارة لذويها على أن تعود بعدها إلى المملكة . وتم الاتفاق في النهاية على الأخذ بهذا الرأي . أما بقية أفراد العائلة فقد استقر رأي كبار العائلة أن يبقوا حيث هم في المدينة المنورة .

لا شك في أن باقي أفراد العائلة كان لديهم على الأقل بعض ما تعانيه الوالدة من الحنين الجارف إلى القريتين التي تركوها منذ بضعة أسابيع فقط ؛ ولكن لم يكن التعبير عن ذلك الحنين يأخذ الشكل العلني العنيف الذي عبّرت به أُمِّي عن شعورها . كان الكل يتمنون في قرارة أنفسهم أن ينتصر الفريق المناادي بالعودة الجماعية . . وجاء وقت بدا فيه أن ذلك الفريق قد انتصر فعلاً ، وأخذنا جميعاً نستعد للعودة !! . . ولكم كنت سعيداً عندما حملت كُتبي إلى المدرسة ذات صباح ، وأعلنت أمام زملائي أنني قد لا أراهم بعد اليوم ، وأنني سأعيد الكتب إلى المدرسة لأنني عائد إلى سوريا ! . . وليس من المدهش أنني كنت في غاية السعادة وأنا أعلن هذا على الرغم من ذكرى الحزن العميق الذي انتابني عندما لم أتمكن من الالتحاق بالمدرسة

المتوسطة في سوريا بسبب رسوم الدراسة الباهظة .

تهيأنا للعودة وحزمتنا أمتعتنا ولم يبق إلا تحديد موعد الرحيل . . وهنا وفي آخر لحظة برز واحد من رجال عائلتنا الكبار ، وهو الشيخ محمد العبدالكريم الخريجي رحمه الله ، وكان الجميع قد أخفى الخبر عنه . جاء في آخر لحظة ليعلن أن العودة لسوريا شيء مستحيل ، ولا يمكن حتى مجرد التفكير فيه ، ويعلن الحل البديل الذي أشرت إليه آنفاً والذي اقترن بموافقة الجميع . كان هذا حلاً وجدت والدتي فيه طريقاً وسطاً يَكُنْها من شفاء غليلها بزيارة بلدها وأهلها مع بقاء أولادها في بلدهم وذويهم . غني عن البيان أنه لم يخطر ببال أحد من الكبار أن يسألنا نحن الأولاد عن رأينا وما إذا كان ذلك الحل يرضينا . وأحمد الله الآن بعد كل تلك السنين أننا لم نستشر في القرار وإلا لكننا جميعاً اخترنا العودة مع أمنا .

هكذا إذن استقر الرأي ، فالوالدة هي التي ستسافر ويرافقها أخي الأكبر فقط . . وأعدنا فك الأمتعة والحقائب التي كنا قد هيأناها لرحلة العودة . كان كل واحد من الأبناء الباقيين يتمنى أن يكون بمعية الوالدة ، ولكن ذلك كان حلماً بعيد المنال . أما أنا فلم أمر في حياتي بعذاب نفسي كالذي انتابني عندما سافرت الوالدة إلى سوريا ولم أكن معها ، شعرت أنني أتمزق حسرة وألماً . لم يكن منشأ العذاب حرمانني من مرافقة والدتي فحسب ؛ بل كان أيضاً شوقاً مبرحاً للعودة إلى القريتين !! كان الألم يمزق نفسي وبقسوة لم أكن أتصور أن تبلغ ذلك الحد .

والغريب أنه بعد سفر الوالدة كنت أحلم كل ليلة دون انقطاع أنني معها

في القريتين وبين أصدقائي وزملائي الذين تركتهم . . لم ينقطع نفس الحلم ولو لليلة واحدة، وبلغ من تكراره أنني أصبحت وأنا في غياهبه أعرف أنه حلم فقط وأعلن ذلك على من يتصادف وجودهم معي! . . كنت أبادر فأقول لهم إنني أتمنى أن يكون ما أنا به الآن حقيقة ولكني أعرف أنه حلم فقط! ولم يكن ذلك شيئاً عجباً حقاً لأن الرغبة الجامحة التي يعجز الإنسان عن تحقيقها تبقى في اللاشعور وتنطلق أثناء النوم على شكل أحلام، مما يفسر المثل الشعبي الشائع " الجيعان يحلم بسوق العيش " .

غابت الوالدة وأخي صالح بضعة أشهر في سوريا ثم عادوا وقد خَفَّتْ حدة الشوق وألم الفراق وبعد أن ملأت الوالدة ناظريها من ذويها في سوريا . ومع الأيام أخذت صورة القريتين وذكرياتهما تنزوي تدريجياً في خلايا الذاكرة، وخفت حدة الرغبة في العودة إلى تلك القرية التي تنبسط ببساتينها وكرومها على حافة بادية الشام .



الوقت الذي أتحدث عنه هو أواخر الأربعينات الميلادية، كان الناس في ذلك الوقت ما زالوا يعيشون تقريباً كما عاش آباؤهم منذ مئات السنين . . لم يكن التطور الكبير قد بدأ بعد . ولم يكن العالم عموماً قد دخل مرحلة العصر الحديث بإنجازاته العلمية والتقنية الحالية التي نلث لتتعرف فقط على بعض جديدها الذي يطالنا كل يوم . . كما أن الثروة التي من الله تعالى بها على هذه البلاد لم تكن قد تدفقت بعد، وبالتالي كان الناس يعيشون الحياة نفسها التي عرفها آباؤهم دائماً .

كانت معظم بيوت المدينة المنورة في ذاك الوقت لا تزال داخل أحواش لكل منها مدخل رئيسي ثم فناء واسع من حوله المنازل . وكان أصحاب الدور يعرف بعضهم بعضاً، وتربطهم روابط حميمة قوية تجعل الجميع وكأنهم عائلة واحدة . . فهم يزورون بعضهم البعض في المناسبات، وغير المناسبات، ويساعدون المحتاج منهم، ويعتنون بالقاصر الفقير، ويتصرف القادر منهم وكأنه مسؤول عن الأقل قدرة . . وهناك قصص كثيرة تروى حول هذه الأمور، منها مثلاً أن امرأة كانت تسكن في منزل بمفردها وليس لها عائل يساعدها على شؤون حياتها ومع ذلك كانت لا تعدم أبداً أن تجد شخصاً بل أشخاصاً يسرعون إلى تأمين متطلباتها الحياتية؛ فعلى سبيل المثال كانت تحصل على احتياجاتها اليومية بمجرد أن تدلي بسلة مربوطة بحبل من شباكها وبها النقود - وأحياناً بدون نقود - وقائمة المشتريات التي تريدها فتأتيها طلباتها كاملة ! .

لعل غط العمران الذي كان سائداً في الماضي هو الذي أبقي على العلاقات الوثيقة التي ربطت بين الناس وإن لم يكن هو - قطعاً - العامل

الوحيد . فالخوش بكامله لم يكن يزيد في مساحته عن فناء منزل متوسط الحجم الآن . . كانت تلك الأحواش تتخذ شكلاً شبه منحرف دائري ترتص المنازل حوله وتفتح أبوابها الرئيسية على فناءه . وفي مثل ذلك الوضع كان الناس دائماً يتقابلون في ذهابهم وإيابهم . . كانت شبابيك المنازل تفتح كلها على فناء الخوش ، وكان كل إنسان يرى ما يجري في ساحته ؛ ولهذا فقد كان الناس داخل كل واحد من تلك الأحواش بمثابة عائلة واحدة كبيرة . . لم تكن المنازل في معظمها تزيد عن جزء بسيط مما تحتويه (فلة) متوسطة الحجم الآن . . كانت معظم البيوت تحتوي على ما يسمى "مجلس" - وأنا أتكلم عن بيوت المدينة المنورة - ، ثم غرفة أخرى تأتي في نهاية البيت تسمى "المؤخر" . وفي بعض البيوت الكبيرة توجد "القاعة" ؛ وهي غرفة تأخذ غالباً المساحة الكبرى من المنزل ، وتنقسم إلى قسمين متساويين يتوسطهما فراغ يكون مفتوحاً من أعلاه يسمى "الخلا" ، والقاعة هذه بمثابة صالون اليوم . ثم تأتي بعد ذلك غرفة نوم . . وهناك مكان يوجد اعتباطاً بين مقدمة المنزل ومؤخرته يستخدم كمطبخ ، وغالباً ما تكون فيه أيضاً فتحة البئر . وكان أهل المدينة يحتفظون ببئر في كل منزل ! والبئر هذه يستخدم ماؤها غالباً لغسل الملابس والأواني وغسل أرض البيت المرصوفة عادة بأحجار الحرة السوداء حيث يساعد تبخر الماء في الجو الحار على جلب بعض البرودة . وعندما لم تكن المنازل مرصوفة على شكل شبه دائرة في الأحواش فهي تقابل بعضها البعض في أزقة ضيقة تكاد رواشينها تلامس بعضها بعضاً ! . . وهذا كان يساعد ربات البيوت على عقد جلساتهن اليومية التي يبدأنها ضحى كل يوم ولا ينتهين منها .

كانت البيوت كما هو معروف تبنى غالباً من حجارة الحرة السوداء التي تتوافر في الجبال المحيطة بالمدينة المنورة . وكما هو معروف أيضاً فإن اللون الأسود يجذب الحرارة ، ومع شهرة المدينة المنورة بطقس السموم الملتهبة في فصل الصيف فلك أن تتصور إلى أي ارتفاع تصل درجة الحرارة ! ولك أن تتصور أيضاً حال الصائم الذي كان عليه أن يذهب إلى السوق عصر كل يوم - كما كنت أفعل - لإحضار متطلبات الإفطار . كان ذلك عبئاً لم يكن لي فكاً منه ؛ لأن العادة جرت على أن يقوم الأخ الأصغر بهذه المهمة ومثيلاتها . . ولكن تمشياً مع قانون الطبيعة الذي لا يتغير ، وهو سيطرة القوي على الضعيف ، أو على الأقل تسخير الضعيف لخدمة القوي ، فقد كنت أطلب من أختي الأصغر مني أن تخففا عني بعض ما كان يسببه لي الحر والسموم من معاناة في تلك المشاوير وذلك " بالترويح " على وجهي لمدة يتفق عليها بمروحة السعف عندما أخلد للراحة بعد الظهر ! . . لم يكن من السهولة حمل الأختين الصغيرتين على القيام بهذا العمل ، ولهذا كنت أرفق تهديدي ووعيدي لهن بما تيسر معي من قروش قليلة أضعها في أيديهما . . ومع ذلك فلم أكن أتمتع أبداً بكل ما أتمناه من النسمات الباردة الآتية من مروحة الخوص المدنية المشهورة ، فقد كان الهواء البارد يتوقف دائماً عندما أوشك على النوم بحجة أن المدة المتفق عليها لتشغيل المروحة يدوياً قد انتهت بعد أن أكون قد أعطيت " على قد فلوسي " ! .

أرجو الله تعالى أن يكتب لنا أجر صيام تلك الأيام الصعبة . . كانت الحرارة الشديدة تدفعنا لأن نغمس شرشفاً خفيفاً بالماء ، ثم لا نعصره بل نلفه حول أجسامنا ، لعله يعيد إليها بعض الرطوبة بعد أن جفّ الجلد حتى لتشعر

أنه صار هشيمًا . . لكن لا تكاد تمضي دقائق حتى يجف الشرف ، وتعود الحال إلى ما كانت عليه . . وأخرج إلى الشارع فيلفحني هواء حار لدرجة أنني أشعر كما لو كنت ماراً أمام فرن ضخمة . وحتى لو كان باستطاعتي أن أبقى طوال فترة ما بعد الظهر في المنزل ، ولا أضطر للذهاب إلى السوق لشراء ما تحتاج إليه العائلة ، فإن البيت نفسه لم يكن أبرد كثيراً من الشارع . فالبيوت في ذلك الوقت لم تكن تعرف تكييف الهواء الذي أصبح الآن شيئاً مألوفاً في معظم المنازل . تغيرت الأحوال الآن والحمد لله ، فقد عرفت المنازل والمكاتب وكذلك وسائل النقل المكيفات الهوائية ، كما أن هناك الأشجار التي غرس منها الملايين في المدن في شتى أنحاء البلاد مما ساهم إلى حد كبير في كسر حدة الهواء الحار في الصيف .

هناك حقيقة تكاد تكون ثابتة وهي الحنين إلى الماضي ؛ وأقول "تكاد" لأننا حتى لو كنا قاسين في الماضي من ظروف الحياة ومشاكلها التي لا تخلو منها حياة إنسان ، إلا أننا عندما نذكرها بعد مضي عدد من السنين نجد أننا نحن إليها ، وأنها تبدو لنا وكأنها كانت أياماً لا بأس بها أو أنها أحسن من الحاضر الذي نعيشه . وهناك بيت شعر انطوى على حكمة مفادها أن المرء قد يبكي من قسوة يوم ولكن بعد زمن وقدم يوم غيره أشد منه قسوة يجد نفسه يبكي على ذلك اليوم الذي راح .

رب يوم بكيتُ منه فلما صرتُ في غيره بكيتُ عليه

أقول هذا ، وأمامي وأنا أجلس في مكتبي الآن في بيتي ، صور قديمة

لبعض المواقع في المدينة المنورة، منها: شارع العينية وباب المصري، وهي صور مكبرة ملونة حصلت عليها من المعرض الفني الذي أقيم بالمدينة المنورة بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين سنة على إنشاء مدرسة طيبة الثانوية؛ باب المصري هذا كان عبارة عن قلعة بنيت في العهد العثماني وكان أمام هذه القلعة فسحة تحيط بها الدكاكين المتعددة التي تعرض كل ما يحتاج إليه المنزل من بضائع. بعض الدكاكين كانت عبارة عن بقالات تخصصت في بيع أدوات المطابخ والأواني المنزلية، بينما تخصص البعض الآخر في بيع التمور أو القمح والدقيق. وكان هناك عدد من المحلات تخصصت في حلج القطن وتنجيد المراتب والمخدات ولوازم الفراش. وعندما تعبر بوابة باب المصري نفسها تجد نفسك في مكان يسمى "جوا المدينة" وهو شارع ضيق رصت على جانبيه الحوانيت التي تخصصت في بيع الأقمشة والذهب والمجوهرات والعطور والملابس إلخ. . . ولكن أجمل ما يقفز إلى ذهني عندما أتذكر ميدان باب المصري هو منظر الباعة المتجولين الذين كانوا يدفعون أمامهم عربات صغيرة رصت عليها بضائعهم من فاكهة وخضار وبعض المكسرات، ومنها البزر "الفصفص" الذي كانوا يخلعون عليه من الصفات ما يجعل السامع يعتقد أنهم يبيعون لؤلؤاً! . . . وكان هناك الباعة الجالسون على الأرض وقد رصوا أمامهم بضائعهم من خضراوات بسيطة مثل الفلفل والبقدونس والكزبرة. كما كان هناك بعض نساء يبعن طواقي خيطة باليد، أو مراوح صنعت من سعف النخل هي التي كنا نستعين بها على اتقاء حرارة الجو في فصل الصيف. كانت الضجة والصياح والمناداة على البضائع والحاجيات المعروضة للبيع تبلغ أشدها عندما يكون الناس في رمضان

والزمن بعد صلاة العصر ، كانت الأصوات المختلفة والنداءات التي يتفنن أصحابها في إطلاقها لترويج بضائعهم شيئاً يصم الآذان . ولما كان كل واحد من الباعة حريصاً على أن يبيع كل ما لديه قبل غروب الشمس ، وحول موعد الإفطار ، فإن ساحة باب المصري كانت في ذلك الوقت تبدو كخلية نحل يحتاج الذي يلج وسطها إلى مهارة في الكر والفر ليخرج منها . وما تكاد الشمس تقترب من المغيب حتى تخلو تلك الساحة كلية من أي إنسان وكأن الأرض انشقت فجأة وابتلعت الجميع .

عندما أنظر الآن في الصورة التي أمامي يخيل إليّ أن الوقت قد توقف عند لحظة معينة في ذلك الزمن البعيد ، وأني لا أزال أجلس في مكاني المعتاد من دكان عمي عبدالرحمن الصالح الخريجي ، أو دكان أخي صالح محمد الخريجي المطين على برحة باب المصري ؛ أشعر الآن أنها كانت أياماً جميلة وبسيطة وخالية من هموم الحياة التي خبرتها بعد ذلك . كنت عندما أتعب من المذاكرة -ولا أستطيع الآن أن أفسر كيف كنت أستطيع المذاكرة والتركيز وسط كل هذا الهرج والمرج وما قد يصاحب ذلك من نهيق حمار يشكو من طول الفترة التي أمضاها مربوطاً إلى عربته- أُلجأ إلى القيام بجولة سريعة في سوق الحراج المتفرع أيضاً من ساحة باب المصري . . ذلك السوق كان أيضاً شيئاً عجباً مثله مثل كل أنواع الحراجات ؛ ففيه تجد تقريباً كل شيء من الملابس والمفارش والأثاث إلى الراديوهات وغيرها ، وكان أكثر ما يعجبني هو الفرجة على أجهزة الراديو المعروضة والادعاء بأنني أنوي شراء واحد منها ، لم يكن لدي مال أشتري به راديو إلا أنني كنت أشبع فضولي ورغبتي في لمس الراديو وإدارة أزراره والسؤال عن ثمنه !! . .

من سوق الحراج كنت أنطلق إلى شارع العينية ذلك الشارع الجميل الذي يتميز بالأعمدة التي تزين جانبيه والذي يبدأ من المناخة وينتهي أمام باب السلام بالحرم النبوي الشريف . كنت أرى أجمل منظر عندما ينطلق أذان المغرب من المئذنة الرئيسية فيترك الناس ما هم فيه من مشاغل دنيوية ويسرعون جميعاً إلى المسجد لأداء الصلاة، كان أصحاب الدكاكين يتركونها مشرعة الأبواب أو يكتفون بأن يغطوا بضائعهم وواجهات دكاكينهم بقطعة من قماش دون اللجوء إلى إغلاق أبوابها حيث إنهم سيعودون إليها بعد صلاة المغرب لاستئناف نشاطهم التجاري قبل أن ينهوا أعمال يومهم عند آذان العشاء .

التطور والتغير هما سنة الحياة ولا بد منهما في كل بيئة وكل وقت . لا شيء يبقى على حاله . أذكر المناخة في المدينة المنورة وهي المنطقة بين مسجد الغمامة وبين ما يسمى باب الشامى ، والذي ينتهي عندها شارع العينية من جهته الغربية ، وهي تزيد في طولها عن كيلو متر وعرضها حوالي خمسمائة متر . والمناخة كما يدل عليه اسمها كانت في السابق - وقبل ظهور السيارات - مناخاً للإبل المتجهة إلى الحج من المدينة والقادمة أيضاً من الشام . كانت هذه المناخة تعج بالمسلمين من كل الأجناس في مواسم الحج ، كل يهيئ نفسه لرحلة الطريق الصعبة ، كما كانت أيضاً سوقاً كبيرة لتبادل البضائع وحاجيات المسافرين ، ويكثر فيها الباعة المتجولون الذين يعلنون عن بضائعهم بأصوات هي أقرب إلى الغناء ، وكل حسب ما رزقه الله من حنجرة .

أما الجانب الآخر الجنوبي من المناخة وهو الذي يبدأ من خلف مسجد الغمامة فهو أيضاً ميدان كبير تحيط به المنازل المدنية القديمة التي كانت تزينها (الرواشين) الخشبية البديعة الهندسة ؛ هذا الجزء من المناخة كان سوق خضار كبيرة تجدد فيها دائماً خضراوات وفواكه المدينة الطازجة التي كان ينقلها أهل البساتين بعد صلاة الفجر مباشرة لعرضها على الراغبين في الشراء بينما يسرع الزبائن بدورهم للحصول على ما يحتاجون إليه منها قبل أن تنفذ. والجانب هذا من المناخة كان أيضاً مسرحاً كبيراً يعج بأنواع من الماعز والأبقار!! . . نعم قد كان الناس يتركون مواشيهم وأبقارهم تسرح وتمرح في فضاء المناخة وكانت تلهم الماعز والأبقار تقصد بيوت أصحابها عندما يحين وقت إطعامها أو حلبها.

لم تكن هناك في الماضي مزارع ألبان ضخمة حديثة كالتي نعرفها الآن، ولذا كانت كل عائلة تقريباً تقتني بعض المعيز أو بقرة أو أكثر ملدها بالحليب واللبن. ولم يكن غريباً أن ترى الرجال عائدين في المساء إلى بيوتهم وقد وضع كل منهم حزمة من البرسيم فوق رأسه! . . كانت المدينة المنورة في ذلك الوقت لا تزال بلدة متوسطة الحجم بل صغيرة. فإذا تركت الحرم النبوي الشريف جانباً تبقى لديك المناخة بقسميها اللذين ذكرتهما ثم أحياء وأحواش صغيرة متداخلة. كانت أبرز الحارات هي العنبرية والساحة والتاجوري وباب المصري وباب الشامي وباب المجيدي والحماطة وحارة الأغوات القريبة من الحرم النبوي ثم بعض الشوارع السكنية المشهورة مثل شارع الساحة الذي كانت تزينه أجمل بيوت المدينة برواشينها الأنيقة الجميلة. وكان هناك العديد من الأزقة من أشهرها زقاق الطيار. كان بيتنا

يقع في حارة المحمودية الصغيرة كما ذكرت . والمحمودية هذه تتميز بشوارعها الضيقة المتعرجة ، وبيوتها الصغيرة كلها تماثل بيتنا الذي سبق وصفه . كنت أتمنى لو بقيت حارات وأحياء المدينة المنورة المقدسة على حالتها السابقة لتذكر أبناءنا كيف كان يعيش آبائهم وأجدادهم ؛ لم تكن تلك الحارات والمناطق واسعة وقد يتمكن الراجل أن يقطعها كلها في ساعتين . وإذا ذهبت إلى المدينة المنورة الآن فإنك تعجب حين ترى أن كثيراً من المناطق التي ذكرتها قد أصبحت جزءاً من ساحة الحرم النبوي الشريف . ويخيل للمرء أن الأماكن والمسافات قد انكمشت وقصرت أبعادها ، وما كان في السابق شارع يحسب حسابه أصبح جزءاً من الساحات التي تحيط بالحرم النبوي !!! .

ولا أجزم في الواقع إن كان الإنسان يكبر وتكبر معه رؤيته - وأعني رؤيته حرفياً بحيث ما كان يراه كبيراً وواسعاً وبعيداً مثلاً عندما كان صغيراً لا يعود كذلك فيما بعد . ولأضرب مثلاً على ذلك بمحطة سكة حديد الحجاز في العنبرية التي ما زال البعض يسميها " اسطسيون " ، وهي كلمة فرنسية تعني محطة . . هذه المحطة كنت أراها سابقاً بعيدة جداً عن أي مكان أعرفه . أما الآن فهي تكاد تكون في وسط المدينة ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لأماكن عرفناها أيام الطفولة والصبا ، وأذكر منها الآن المنزل الذي رأيت النور فيه وعرفني طفلاً ، وهو منزلنا في القريتين في سوريا . لم أدع أبداً أن المنزل كان كبيراً بل ذكرت في مكان ما بهذه المذكرات أنه مجرد غرفة واحدة . . ولكن بكل صدق أقول إنني كنت أرى تلك الغرفة كبيرة جداً - وكذلك الشارع الذي يقع فيه البيت . ولكن عندما زرت القرية بعد سنين عديدة وجدت أن

المنزل أصغر بمرات مما كنت أتخيله ، ووجدت أن الشارع عبارة عن زقاق ضيق قامت على جانبيه حيطان لا تعلو إلا قليلاً عن قامة الرجل . وهكذا فكما تكبر معنا تطلعاتنا وأمانينا كذلك تكبر حتى نظرتنا إلى الأشياء الحسية ، ونصبح نرى الأشياء على غير ما كنا نراها في الماضي .

لقد زرت حديثاً ما كان يطلق عليه اسم " بلاد الخريجي " بالمدينة المنورة ، وبلاد تعني بلغة أهل المدينة البستان أو المزرعة . كانت بلاد الخريجي تلك مضرباً للمثل بما حوته من أشجار النخيل وأشجار الفاكهة المتنوعة والخضرة اليانعة وآبار الماء العذب الزلال بالإضافة إلى المباني التي أقيمت ليقضي بها آل الخريجي أيام الأعياد والإجازات . كنت أتصور أنني لن أرى حتى في المستقبل أمكنة أكثر اتساعاً من الصالونات والجلسات التي حوتها تلك البساتين . ولم أصدق عيني عندما قمت مؤخراً بزيارة أطلال المنشآت التي كانت تزين البستان الرئيسي ، فما كنت أراه مساحات شاسعة من المباني الفخمة والصوالين الفسيحة أصبح الآن أشبه بالأركان والزوايا المهملة التي نراها في المباني الحديثة . أما حوض السباحة الذي كنت أتخيل أنه شيد بمقاسات أولمبية فقد انكمش حتى أصبح بحجم الأحواض التي تبني للأطفال!!! . . .

وفي إطار مفهوم النسبية هذا أشير هنا إلى بيت الخريجي " الكبير " هكذا كان اسمه " البيت الكبير " . . . وسبب هذه التسمية أنه كانت هناك بيوت أخرى لآل الخريجي كلها أصغر من البيت الكبير الذي كان أيضاً البيت الرئيسي لعميدي العائلة عبدالعزيز ومحمد الخريجي وذويهما . . هذا المنزل

الفخم العملاق ذو السمعة الجيدة لم تكن مساحته تزيد عن ألف متر مربع! . . فهو بمقياس اليوم يعتبر صغيراً خاصة إذا عرفنا أنه كان سكناً لأربع عائلات كبيرة! . . ولكن لا غرابة في ذلك لأنه لم يكن على شكل بيوت اليوم فلة تحيط بها حديقة وأشجار. كان المنزل عبارة عن قلعة ضخمة شيدت من حجر المدينة المنورة الأسود الصلد، ولم تكن حوله فراغات بل كان هو مشيداً على كامل الأرض الموجودة. كان بابه الرئيسي يفتح على الشارع مباشرة، كما كان عليه الحال بالنسبة لمعظم المنازل، وقد ضمت طوابقه الثلاثة الصالونات والصالات والغرف، فهو على ذلك كان يكفي ويزيد عما تحتاج إليه العائلات الأربع التي تقطنه.

كان الشيخان عبدالعزيز ومحمد الخريجي رحمهما الله هما عميدي عائلة الخريجي، وكان منزلهما هذا يعتبر في تلك الأيام قصراً منيفاً لا يوجد له مثيل في المدينة المنورة. ولهذا السبب كان هذا المنزل هو أيضاً دار ضيافة حكومية أيام حكم الملك عبدالعزيز والملك سعود رحمهما الله إذ لم تكن قد وجدت بعد دور ضيافة حكومية. كان إذا جاء ضيف كبير إلى المدينة يخطر آل الخريجي بذلك فيسارع عميدا العائلة إلى إخراج العوائل جميعها من المنزل وإخلائه للضيف الكبير ومرافقيه. وكان معظم الضيوف من رؤساء دول أو من هم في مستواهم ممن جاءوا إلى المدينة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وللصلاة في مسجده.

والآن وأنا أتكلم عن منزل آل الخريجي بالمدينة المنورة ما أزال أذكر بإعجاب وتقدير نط الحياة العائلية الذي عرفته وأنا صبي؛ كانت هناك

قوانين صارمة محددة تحكم العلاقة بين الكبير والصغير ، وكان للحياة في ذلك الوقت قانون غير مكتوب يلتزم به الجميع . كان عميد عائلتنا هو الشيخ عبدالعزيز رحمه الله ، وكان من يعيش في المنزل أو خارجه يدين له بالخضوع والطاعة بما في ذلك شريكه في المنزل والعمل وهو الشيخ محمد الخريجي رحمه الله . كان الشيخ عبدالعزيز هو خال الشيخ محمد ، وإن لم يكن فارق السن بينهما كبيراً ، مما جعل كثيراً من الناس يعتقدون أنهما أخوان . كانت حياتهما نموذجاً لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الناس من حب صاف وصدق ووفاء . والذي نجده غريباً اليوم هو بساطة حياتهما ؛ فقد كانا أثناء النهار يقومان بعملهما الروتيني المعتاد ، وإذا جاء المساء وبعد صلاة المغرب يجلسان مع بعض معارفهما في مكان مفتوح كان يطلق عليه " البخشة " ، وهي كلمة تركية تعني الحديقة أو الجنيّة ، وإن لم يكن يشبه الحديقة التي نعرفها الآن ؛ بل كان مجرد فسحة قامت حول جوانبها بعض الأشجار . تبدأ الجلسة بالقهوة ثم الشاي يأخذ كل واحد من الجالسين يدلي بما عنده من أخبار وأحاديث . كان ذلك يحدث كل مساء ، ولا تكاد الأحاديث تختلف في يوم عن الآخر . وحتى الرجل الذي يقدم النشوق إلى الشيخ محمد كان يقوم بعمله هذا في نفس الوقت والدقيقة من كل مساء . كنا نحن الصغار نجلس في آخر " الدكة " دون أن يفتح أحدنا فمه . وحتى القهوة كان لا يسمح له بأن يعطينا فنجاناً من القهوة ! . . فهو يصب القهوة للجالسين وإذا وصل إلى حيث نجلس قفل راجعاً .

ويبدو لي الآن ، وقد مضت سنين طويلة على الزمن الذي أتكلم عنه ، أنه لو أتيح لنا نحن الصغار أن نقول شيئاً فما كنا لنستطيع ؛ لأن هيبة الكبار

وصرامتهم كانت تقف عائقاً دون نطقنا بشيء . وكيف لنا أن نقول شيئاً وكان " البيت الكبير " كله هذا الصرح العملاق بما ضم من نساء وأطفال وكبار وصغار ، يخيم عليه فجأة صمت كصمت القبور حالما يسمع من به نحنة الشيخ محمد الخريجي تعقبها عبارته المألوفة " يا الله " عندما يعود إلى المنزل ، كان الجميع عندئذ يلزمون الصمت فلا صراخ ولا كلام من أي نوع وكأنّ يدأ سحرية قد امتدت إلى الأفواه فقفلتها فجأة . كانت هيئة الشيخ محمد وصرامته وميله إلى الصمت تبعث الخشية والرهبة في نفوس الصغار والكبار ، وهو عكس الشيخ عبدالعزيز الذي كان دمث الخلق سمحاً يمازح الصغار ويتحدث مع الكبار ويتسم في وجه الجميع .

لا شك أن أجمل أيام السنة وأكثرها بهاءً وروحانية هي أيام شهر رمضان في المدينة المنورة . ورمضان هو شهر الخير والبركات والأعمال الطيبة في كل زمان ومكان ، وهو كذلك أكثر عندما يواتي الحظ إنساناً فيصومه في المدينة المنورة . وفي الأيام التي أسجل لها الآن كان الشهر المبارك يأتي في أشد أوقات السنة حرارة وجفافاً ؛ في منتصف فصل الصيف . لم تكن هناك مكيفات كما ذكرت في مكان آخر من هذه المذكرات ، ولهذا فقد كان الصيام فعلاً اختباراً لمدى تحمل الإنسان المسلم وإيمانه . كان العطش الشديد يكاد يفتك بالصائمين . كانت الأفواه تجف والشفاه تذبل وكنا في أول اليوم لا نصدق أنه سينتهي وأن الشمس ستغيب . كنا نكافح الجفاف والحرارة والعطش بالتحاف شراف نبللها بالماء دون أن نعصرها ومع ذلك فهي تجف في دقائق قليلة وتعود المعاناة إلى ما كانت عليه . ولكن كل تلك المعاناة وكل ذلك العطش كان يتلاشى عندما نصل إلى

الحرم النبوي الشريف ونجلس ننتظر أذان المغرب . كانت تلك دقائق يجللها جو تشبع بشحنات روحانية تشيع في النفوس المؤمنة شعوراً بالرضا والسكينة والاعتزاز بما قدمته حباً في الله وسعياً إلى اكتساب مرضاته ، وها هي تنتظر المكافأة والقبول . كنا آل الخريجي نجتمع تحت المكبرية بالحرم النبوي ؛ وما يزال المكان هو نفسه لم يتغير لمن بقي من عائلتنا في المدينة المنورة ما أزال أذكر أن ألد وأشهى شراب كان ذلك الماء العذب الصافي البارد الذي كنت لا أرتوي منه عندما أسمع مدفع الإفطار ، والذي كان يأتي في تلك الدوارق الصغيرة التي كانت إدارة الحرم تمد بها الصائمين .

إن من نعم الله تعالى على المسلمين أن فرض عليهم شهر الصوم ، فهو أوله رحمة ووسطه مغفرة وآخره عتق من النار كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحمد لله أن شهر رمضان وكل ما يحمله من رحمة ومغفرة وأعمال خير وبر هو شهر يتكرر كل عام ، وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض وما عليها . والمؤمن الحق تنتابه مسحة من الحزن عند نهاية الشهر المبارك إلا أن ما ينتظره من فرحة العيد ولم شمل الأسرة وقبل كل ذلك قبول ما قدم من الأعمال الطيبة في رمضان الفضيل - كل هذا يهون من ألم الفراق ويحيي الأمل في استقباله العام الذي يليه بإذن الله .

ويأتي العيد . . والاحتفالات بالعيد في المدينة المنورة كانت حدثاً كبيراً ينتظره الناس ويحرصون على مشاهدته والاشتراك فيه أيضاً . فنحن في المدينة المنورة مثلاً كنا نسارع إلى شارع العنبرية بعد صلاة العيد مباشرة لنشاهد الفرقة الموسيقية وهي تعزف ألحانها المألوفة احتفالاً بمرور أمير المدينة

المنورة قادماً من الحرم النبوي ومتوجهاً إلى مقر الإمارة حيث يجلس فيه لتلقي التهاني من المواطنين . كان هذا حدثاً مهماً ينتظره الكبار والصغار ويشارك فيه الجميع من متفرجين إلى سائرين مع الفرقة الموسيقية مكونين جميعاً موكباً مهيباً يبهر الأطفال وذويهم أيضاً . ويخصص اليوم الأول من العيد لأمير المدينة حيث يتوافد المهنتون على دار الإمارة لتقديم التهئة له ، ثم يمر على باقي دور الحكومة لتهئة كبار المسؤولين ، ويخصص باقي اليوم لمعايدة الأهل والأقربين .

في مدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة

أنهيت السنة الدراسية الأخيرة من الدراسة الابتدائية في المدرسة الناصرية ، ونلت الشهادة الابتدائية السعودية وأصبح لدي شهادتان ابتدائيتان واحدة سورية والثانية سعودية . وسارت بي الحياة دون أحداث تستحق التسجيل إلى أن حصلت على شهادة ما يسمى الثقافة . ففي تلك الأيام - وأنا أتحدث عن العام ١٩٥٢ ميلادي - كان الطلاب يحصلون على شهادة قبل سنة واحدة من إتمام الدراسة الثانوية تسمى " الثقافة " . لم يكن في المدينة المنورة في تلك الأيام مدرسة ثانوية تمنح شهادة التوجيهي بل كانت آخر شهادة يمكن للطلاب الحصول عليها هي شهادة " الثقافة " التي ذكرتها والتي ينتقل الطالب بعدها إلى السنة النهائية للدراسة الثانوية . كان على طلاب المدينة المنورة الذين ينوون مواصلة دراساتهم ، كما كان على غيرهم من طلاب المدن المختلفة بالمملكة ، أن ينتقلوا إلى مدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة . وهذا ما فعلته ، وفعله كل الطلاب الذين أكملوا دراساتهم الثانوية إلى شهادة الثقافة في ذلك العام وكل الأعوام التي سبقتة . كانت الدفعة التي كنت واحداً منها آخر مجموعة من طلبة المدينة يذهبون إلى مكة لإكمال الدراسة الثانوية حيث صارت مدرسة طيبة تمنح شهادة التوجيهي فيما بعد .

مدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة لها تاريخ مجيد عريق . . خرج منها

معظم رجالات المملكة ممن حملوا أمانة ومسؤولية خدمة بلدهم في كل المجالات ، فهي الدار التي جمعت صفوة أبناء البلد من مكة المكرمة وباقي مناطق المملكة ممن أكملوا المراحل المتقدمة ولم يبق لهم إلا السنة النهائية قبل أن يلتحقوا بالمرحلة الجامعية .

هناك في مدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة جربت لأول مرة السفر بمفردي والبعد عن أهلي . كان هناك كثير مثلي افترقوا عن أهليهم لأول مرة (لا شك أن من يقرأ هذه المذكرات من شباب اليوم سيبتسم من سذاجة قولي مستغرباً أن يكون السفر من المدينة إلى مكة فراقاً وبعداً عن الأهل!) ولكن أحب أن أذكر هؤلاء الشباب أن السفر في تلك الأيام لم يكن شائعاً كما هو شائع الآن . في الماضي كانت لحظات الوداع شيئاً يحسب حسابه ، وكان النحيب وذرف الدموع من المسافرين والمودعين شيئاً عادياً . . كان إذا سافر إنسان من حيٍّ ما عرف بسفره باقي أبناء الحي وربما الأحياء الأخرى ، بينما لا يعرف الآن أفراد الأسرة الواحدة إن كان أحدهم مسافراً أم مقيماً . . ! في تلك الأيام لم يكن السفر أيضاً يخلو من المخاطر . فالطرق لم تكن مسفلتة كما هو الحال اليوم . والحكايات كثيرة عن شاحنات ضلت طريقها وسط الصحراء وهلك جميع ركبها .

كانت السيارات قليلة والسفر إن تيسر بسيارة فهي شاحنة كبيرة كان على المسافر أن يجتهد ليجد لنفسه مكاناً على ظهرها بين أكداس البضاعة والمتاع المرصوص . وتبدأ رحلة ينخلع لها القلب ، وتهتز لها أعضاء الجسم على طرقات ملأى بالحفر والمطبات وتستمر لأكثر من يوم كامل بين مدينتين مثل

المدينة المنورة وجدة، كل هذا طبعاً يختلف عن سفر اليوم السهل السريع الذي جعل من الانتقال من مكان إلى آخر نزهة ممتعة مما شجع الكبار والصغار على السفر والسياحة في البلاد التي لم يكن أحد منذ سنين قليلة يحلم بالوصول إليها.

كانت مدرسة تحضير البعثات تشغل مبنى من عدة طوابق، وتشرف على الحرم المكي الشريف وعلى المسعى. كانت عبارة عن مدرسة ثانوية يميزها عن غيرها أن بها فصلاً نهائياً لطلاب الشهادة الثانوية. كان الطلبة في هذه المرحلة يفدون كما ذكرت من كل أنحاء المملكة -بالإضافة إلى طلاب مكة المكرمة نفسها- للحصول على الشهادة الثانوية، ومع ذلك لم يكن عددهم في ذلك الزمن يزيد عن الثلاثين بقسميها الأدبي والعلمي.

كان الطلبة القادمون من أنحاء المملكة المتفرقة يعيشون جميعهم أو ربما معظمهم في دار خصصتها الدولة لهذا الغرض: القسم الداخلي. ولا أعتقد أن أحداً وحتى أولئك الذين لم يقيموا في القسم الداخلي لم يسمع عن مقره الشهير، وأعني به قلعة جبل هندي بمكة المكرمة. تلك هي الدار التي كنا نسكنها، وهي قلعة ضخمة بناها الأتراك إبان حكمهم للحجاز، ثم حولتها حكومة الملك عبدالعزيز رحمه الله إلى دار للطلبة يؤمها كل الدارسين القادمين من بلدان المملكة المختلفة هذه الدار أو القلعة تقف شامخة فوق قمة ذلك الجبل ولها في نفس كل واحد منا نحن الذين أقمنا فيها سنة كاملة أو أكثر أجمل الذكريات وأحلاها، ولا يدعي أحد منا أننا أتينا من بيوت فخمة فارهة وانتهى بنا الحال إلى مكان ضيق صغير متواضع، فنحن -وأعني

معظم الطلبة إن لم يكن جميعهم - أتينا من مدننا وقرانا المختلفة ، ومن بيوتنا المتواضعة الصغيرة ، إلى جبل هندي ، فكانت النقلة في الأغلب الأعم من ضيق إلى وسع .

لا شك أن قلعة جبل هندي لم تكن هي الأخرى قصراً منيفاً إنما كانت بناءً ضخماً كبيراً بهرنا بأرجائه الواسعة وغرفه الكبيرة ودرجته الخشبي العريض وممراته الطويلة المصنوعة أيضاً من الخشب مما يجعل السير عليها يرسل صدى وضجة كبيرين . . وأنا أتكلم الآن من الذاكرة طبعاً وما أذكره هو أن جزءاً من هذا المبنى ، بما في ذلك التقسيمات الداخلية ، كان من الخشب . فالسلالم والشرفات الداخلية وحتى الفواصل المقسمة للغرف - كل ذلك كان من الخشب . والدليل على هذا أنه عندما كان يحين وقت الغداء أو العشاء ويعلن عنه كنت تسمع هديراً ضخماً . . صوتاً أشبه ما يكون بصوت رعد آت من بعيد!! . . كان ذلك صوت أقدام الطلبة وهم يتدافعون منطلقين إلى قاعة الطعام وكل واحد يحاول أن يختار المكان الأنسب على السفرة له ولأصحابه المقربين . . كنا نسمي ذلك " الدييك " . . كلمة لا أعرف من الذي ابتدعها ولكنها كانت تعبيراً دقيقاً عن الجلبة التي تحدثها الأقدام على الأسطح الخشبية والتي كانت تتضخم في أرجاء المبنى الكبير . كانت تستهوي الطلبة فيزيدون من ضرب أرجلهم على الخشب ، ويستمتعون برجع الصدى يذق آذانهم . كانت قاعة الطعام بالدور الأرضي من المبنى العملاق ، وكانت غرف الطلبة بالأدوار العليا تحيط بالدور الأرضي من المبنى وتشرف كلها على فناءه الداخلي من خلال شرفات خشبية أيضاً . كنا نحن الطلبة نتقاسم الغرف ، كل ستة طلاب يتشاركون في

غرفة واحدة، وكل مجموعة غرف ترسل من قبلها "عيناً" يراقب تحضير المائدة، ويتفق معه على إشارة معينة يطلقها عندما تكون السفرة قد جهزت. . . وحيث أن كل واحد من هؤلاء يجتهد أن يدعو جماعته إلى المائدة قبل الآخرين كانت النتيجة هي "الدبيك" الذي يحدث عندما نتسابق إلى المائدة وكأننا لم نذق طعم الأكل من دهور!! . . . كانت أياماً حلوة ميزتها البساطة وراحة البال وعدم انشغال النفس إلا باللحظة الحاضرة. . . وكانت لحظة الانطلاق لتناول الطعام واحدة من تلك اللحظات.

كان القائمون على الدار رجالاً فضلاء طيبين رحماء. . . وكان على رأسهم العم أسعد مامو رحمه الله، كان رجلاً وقوراً هادئاً رقيقاً يتقبل ملاحظات الطلبة بسعة صدر وتفهم، يعالج مشاكلهم الصغيرة ويزيح عن كاهلهم كل ما يبعدهم عن التركيز على دراساتهم. كان أباً لكل واحد من الطلبة الذين يستضيفهم، وكان لا يألو جهداً لحثهم على الدراسة والتحصيل حتى يعودوا إلى مدنهم وقراهم مرفوعي الرؤوس وقد حصلوا على شهادة إكمال الدراسة الثانوية.

كانت هناك أشياء لا يستطيع العم أسعد أن يفعل حيالها شيئاً. . . منها أن عدد الغرف في القلعة كان محدوداً بالنسبة لعدد الطلبة الكبير نسبياً؛ ولذا كان علينا أن نعيش كل ستة أشخاص في غرفة واحدة؛ أما بالنسبة للقضايا التي كان بإمكانه أن يأتي لها بحلول فقد كان يسرع إلى علاجها. مثلاً في أوائل العام الدراسي دأب المشرفون على المطبخ أن يقدموا لنا عند الإفطار فولاً ولا شيء سواه. استمر الوضع على هذا الحال لبضعة أسابيع وطبق

الفول باق لا يتغير . عافت النفوس الطبق المتكرر كل صباح ، وعلت الشكوى من التلاميذ . وما إن وصلوا بشكواهم إلى الرجل الطيب المسؤول عن الدار حتى بادر بإصدار أمره بالتزام جانب التنويع في طعام الفطور ، وعلت البهجة وجوه الأولاد .

إن إقامة ستة طلاب في غرفة واحدة لم يكن شيئاً مزعجاً أو غير عادي كما يبدو ؛ فالغرف كانت ضخمة - كل ما في مبنى القلعة هذه كان ضخماً - فالشباك الواحد مثلاً في أي غرفة يحتاج إلى رجلين قوين كي يفتحاه بطريقة الرفع إلى الأعلى . كان المنظر لا شك غريباً عندما يأتي المساء وتتصب ست ناموسيات على ستة أسرة في غرفة واحدة . . كان سكان غرفتنا هم : عزت خطاب (الآن الدكتور) عزت خطاب رئيس قسم اللغة الإنجليزية بجامعة الملك سعود ، محمد عبدالله يماني الذي يمارس الآن مهنته كطبيب كبير ناجح في المدينة المنورة ، إبراهيم آدم متقاعد بعد أن عمل في التدريس وقيم أيضاً بالمدينة المنورة ، حسن شرارة موظف الآن بالخارجية ، محمود قم قم جي توفي إلى رحمة الله ، وأخيراً أنا . لم يكن يزعجنا أبداً أننا ستة أشخاص في غرفة واحدة ، فالانزعاج والحساسية والتبرم السريع من جميع الأمور وضيق الصدر . . إلخ ، هذه كلها علل نصاب بها بعدما تتقدم بنا السن كما هو حاصل الآن !! . . كنت فقط أنزعج من شيء واحد وأنا مع المجموعة التي ذكرتها . . كان الأخ محمد يماني يدرس في القسم العلمي الثانوي ، ويعد نفسه للالتحاق بكلية الطب ، وكان عليه كما بدا له في تلك الأيام أن يبذل مجهوداً أكبر من المجهود الذي نبذله نحن الذين ندرس في القسم الأدبي ! . . ولهذا فقد كان يبقى في الليل

مستيقظاً مكباً على دراسته لوقت أطول مما يقضيه الباقون . كنت - وما أزال - أنام في الظلام ويستعصي النوم عليّ مع وجود النور؛ وكان محمد يماني يذاكر طبعاً على ضوء " الأتريك " وكان هذا يبعد النوم عني؛ فاتفقنا أن يأتي بتنكة يقصها من أحد جوانبها ويضع فيها " الأتريك " ينير له من الجانب المقصوص فقط ويبقى باقي الغرفة في شبه ظلام! " الحاجة أم الاختراع " . رضيت بهذا الحل طبعاً ولكن ما أزال إلى اليوم أعاني الأرق . . ولا ألوّم الدكتور محمد يماني على الإطلاق ، فالأرق مرض بيولوجي قد يولد مع الشخص ولا شأن له " بأتريك " يوضع في تنكة مقصوصة . أما مشكلتي مع عزت خطاب فقد كانت من نوع آخر . كان سريري بجانب سريره وكان بين السريرين ممر ضيق لا يسمح بمرور أكثر من شخص واحد . وكان الممر يوصل من جهة رأس السريرين إلى الدواليب المخصصة لنا لحفظ ملابسنا وكتبنا . وكانت الأمور بيني وبين عزت تسير على ما يرام ما بقي الوائم قائماً بيننا بحيث إذا سار أحدهما قاصداً الدواليب وسار الآخر في الاتجاه المضاد بادر أحدهما بإفساح الطريق لزميله . أما المشكلة فكانت تنشأ عندما لا نكون على وئام فعندها يحصل اختناق مروري من جراء رفض كل منا إعطاء حق الطريق للآخر .

في مكة المكرمة كانت تجربتي الأولى في العيش بمفردي بعيداً عن العائلة وحنان الأهل . ولأول مرة شعرت أنني أصبحت رجلاً أعتمد على نفسي في تدبير شؤوني وتسيير أمور حياتي . لا شك أن مثل هذا الشعور ينتاب المرء عندما يفارق عائلته لأول مرة . أصبحت مسؤولاً عن نفسي ، ولم يعد هناك من يحصي عليّ حركاتي وسكناتي ويسألني أين ذهبت ومتى رجعت . لقد

شببت عن الطوق وصرت مستقلاً. ومن نافلة القول أن أذكر أن الشعور بالمسؤولية وما يتبعه من سلوك الطريق القويم ومحاسبة النفس هي من مقومات الشخصية الإنسانية التي تميزها عن باقي المخلوقات، وأنه بالإضافة إلى التربية الصحيحة التي تستقي مبادئها من الدين الإسلامي العظيم فإن الله تعالى أودع في الإنسان المقدرة على تمييز الخير من الشر.

لم يتغير برنامج الدراسة كثيراً عما كان عليه في المدينة المنورة، الفرق هنا أنني أعيش مع زملائي في السكن وفي المدرسة، والفرق أيضاً أنني تحررت من بعض الأعباء التي كان عليّ أن أقوم بها ومنها مثلاً رحلة السوق كل صباح لشراء حاجيات المنزل بما في ذلك طعام الفطور. . في مكة وفي القلعة إياها كان كل ذلك مهياً كما ذكرت. كانت الحياة في مكة طيبة ممتعة: الصباح إلى المدرسة، وبعد الظهر إلى الحرم المكي لاختيار مكان هادئ للمذاكرة، ثم صلاة المغرب، فمذاكرة، ثم صلاة العشاء، وبعدها إلى القلعة. لم يكن الازدحام الذي نعرفه اليوم موجوداً، ولهذا فإن المكان الأمثل لمذاكرة الدروس في تلك الأيام كان الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث لا يوجد ما يشتت ذهن الدارس. لم يتميز العام الدراسي بمكة المكرمة بشيء غير عادي إلا أنني أتذكر يوماً معيناً بدأ جميلاً لكنه انتهى على غير ما بدأ. . فقد أصبحنا ذات يوم، وكان يوم الجمعة، وكان الجو في مكة وما حولها مطيراً غائماً. . وما إن جاء أحدهم بفكرة الخروج في رحلة إلى البر حتى استقبلها الطلبة بالترحاب، وسارعوا إلى اختيار الأشخاص الذين سيتولون مهمة الإعداد للرحلة. . تم كل شيء بسرعة كبيرة واستقر الرأي على أن تكون الوجهة وادي فاطمة.

جرى الاتصال بشركة لتهيئة حافلتين لنقل الطلبة إلى الوادي وإعادتهم آخر اليوم . . وتم الاستعداد، وجاءت السيارتان، وأسرع الطلبة كلُّ يأخذ مقعده في إحدى الحافلتين، أما من لم يجد له مكاناً داخل السيارة فقد صعد إلى ظهرها، وكان بين هؤلاء بعض الطلبة وطباخ الدار و غلام معه هو ابن زوجته . انطلقت السيارتان إلى الجهة المقصودة والجميع كما في مثل هذه الحالات فرحون يرفعون أصواتهم بأغانيهم المفضلة، سعداء بما ينتظرهم من يوم خصصوه للهوهم بعيداً عن هموم الدراسة . عند الوصول إلى المكان المعين، وبينما كانت إحدى الحافلتين تستدير لكي تأخذ وضع الوقوف، رجع سائقها بها إلى الوراأ أكثر مما يجب وكانت الأرض رطبة هشة من مطر كان قد هطل في الأيام السابقة . كانت السيارة على حافة الوادي الذي كان ينحدر بعمق لا يقل عن عشرة أمتار . . وانهارت الأرض تحت الثقل فانقلبت السيارة الضخمة وهوت إلى الوادي . . كان منظرها وهي تنقلب مرعباً انخلعت له قلوب الطلبة الذين كانوا في الحافلة الثانية يشاهدون ما يحدث . أما الذين كانوا داخلها فلا أحد سواهم يستطيع أن يصف شعورهم . . كان يمكن أن تكون المأساة أشد وأقسى مما حدث فعلاً، ولكن رحمة الله كانت كبيرة إذ لم يصب أحد بأي أذى ما عدا الغلام المرافق للطباخ الذي كان يعاني أصلاً من مرض في القلب، فعلى الرغم من أنه لم يصب بأي أذى ظاهر، ووقف بعد الكارثة على قدميه، وكان يبدو عليه أنه سليم معافى، إلا أنه لم يلبث أن فارق الحياة . رحمه الله .

لم يبق لدى أحد منا رغبة في التمتع بالجو الجميل وبخضرة الأشجار وانتعاشها بعد المطر ولا بتجمعات المياه في الوادي ؛ بل كان هناك شعور مُلِحٌّ

بضرورة العودة بأسرع ما يمكن إلى دارنا فوق الجبل . . . عدنا مصطحبين معنا الخروفين اللذين كنا قد اشتريتهما لإعداد وليمة غداء فاخرة . وكان الخروفان قد سلما من الحادث مع من سلم إلا أن سلامتهما لم تطل إذ تحولا في نهاية الأمر إلى لحم لذيذ أبدعت شواءه أيدي الطهارة .

نذهب من السكن إلى المدرسة ونعود إليه مشياً على الأقدام عدة مرات كل يوم ، ومع ذلك لا أذكر أن أحداً شكاً من المشي صعوداً إلى الجبل أو نزولاً منه ، أو أن أحداً تورمت قدماه أو أصاب اليأس ساقيه ، كانت أعضاء الجسم كلها جديدة ما تزال تحتل الكد والجهد ولا تعرف الضعف والوهن . رحم الله تلك الأيام ويا حسرتاه على الشباب والقوة اللذين رحلا ولن يعودا . . . ورحم الله أبا العتاهية الذي وصف ذلك كله فأبدع حين قال :

عَرَيْتُ مِنَ الشَّبَابِ وَكُنْتُ غَضًّا	كما يَعْرِى مِنَ الْوَرَقِ الْقَضِيبُ
وَنُحْتُ عَلَى الشَّبَابِ بدمع عيني	فما نفع البكاءُ ولا النحيبُ
فيا أسفًا أسفت على شباب	نفاه الشيبُ والرأسُ الخضيبُ
ألا ليت الشباب يعود يوماً	فأخبره بما فعل المشيبُ

لا أريد في الحقيقة أن أعطي انطباعاً للزملاء الذين قد يقرؤون هذه المذكرات بأنهم قد دخلوا مرحلة الشيخوخة ، ولا أريد أن أذكرهم بأعمارهم . كل ما في الأمر أنني تذكرت الصعود إلى القلعة والهبوط منها

فكان لا بد أن يسيل القلم بما سال به . ولكن أعود فأقول - وهذه المرة بإصرار - إنه لا مهرب من الشيخوخة ومن انتهاء العمر بأكمله - وهذه سنة الله في خلقه .

كان الحرم في تلك الأيام يكاد يكون خالياً من الناس فيما بين صلاة العصر والمغرب ، وهو الوقت الذي نفضل نحن التلاميذ قضاءه في المذاكرة ومراجعة الدروس ، فلم يكن هناك ازدحام كالذي نعرفه الآن ولا كانت الأعداد الهائلة من المصلين قد ظهرت بعد . ومن أعجب الأمور أنه حتى الآن وبعد أن انتهت توسعة المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف على ידי خادم الحرمين الشريفين جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء - بعد كل ما أضيف إلى الحرمين الشريفين من إضافات هائلة لم يشهد التاريخ الإسلامي لها مثيلاً - فما يزال الإنسان يجد صعوبة في إيجاد مكان له للصلاة خاصة أيام الجمع وفي أوقات رمضان والحج . . اللهم تقبل من الجميع . كنا نجد كل المتعة في الاستناد إلى أحد الأعمدة والانغماس في الاستذكار . . وعند الشعور بالتعب كنا نسرع للطواف حول الكعبة سبعة أشواط نعود بعدها وقد ملئ الواحد منا نشاطاً جعله يقبل على القراءة بحماس متجدد .



عمي عبدالرحمن الصالح الخريجي . توفي رحمه الله منذ عدة سنوات . هو الذي احتضننا ورعانا بعد عودتنا إلى المملكة ، وهو والد زوجتي .



عميدا عائلة الخريجي الشيخان عبد العزيز ومحمد الخريجي رحمهما الله في مجلسهما اليومي بمنزلهما في المدينة . يظهر هنا بينهما السيد أحمد حمزة باشا رحمه الله وهو من كبار رجالات مصر في عهد الملكية وكان وزيراً لمرات عديدة . يقف خلفهم الشيخ سليمان العبد العزيز الخريجي ، يسك بعضهم فناجين الشاي الذي كان يسمح للصغار بشربه بحضورهم دون القهوة ! وهو سر لم أستطع إلى الآن تفسيره .



أمام منزل الخريجي الكبير بالعنبرية . ويرى بجانبني الأخ عبد الله عبد العزيز الخريجي ، رجل الأعمال المعروف الآن ، ثم الأخ أحمد محمد الخريجي الذي تقاعد الآن عن العمل الحكومي .



ساحة باب المصري بالمدينة المنورة



شارع العينية بالمدينة المنورة



مسجد الغمامة بالمدينة المنورة



هيئة التدريس بمدرسة طيبة الثانوية عام ١٩٥٢ م.



هيئة التدريس بمدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة عام ١٩٥٣ م.



مجموعة من طلبة التوجيهي بمدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة سنة ١٩٥٣م وهم من اليمين: عبد العزيز توفيق ، منصور محمد الخريجي ، فهد الحواس ، داخل عطا الله ثم حسن عطار . ولم أعد أذكر كيف تأتى لنا أن نرتدي جميعاً هذه «الجاكيتات» المتشابهة .



هؤلاء هم مجموع طلاب التوجيهي في المملكة القسم الأدبي في مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة عام ١٩٥٣م .

obeikandi.com

في أرض الكنانة

لم تكن لدينا في المملكة في أوائل الخمسينيات الميلادية جامعات . كانت هناك معاهد علمية في مستوى التعليم الجامعي ، وكانت تركز على دراسة الشريعة واللغة العربية وبالتالي فلم تكن فيها تخصصات متنوعة كالتي نجدها في الجامعات الآن ؛ ولهذا كان من الطبيعي أن يتوجه من حصل على شهادة التوجيهي إلى خارج المملكة لإكمال دراسته الجامعية . كان خارج المملكة يعني عموماً مصر . ولهذا فما إن تظهر نتائج الامتحانات حتى يبدأ الناجحون في الإعداد للسفر إلى القاهرة . وأود أن أشير هنا إلى وضع كان قائماً عندما كنت في التوجيهي ، وأرجو الآن أن يكون قد عولج بطريقة ما . . لا أذكر أنه سبق لأحد أساتذتنا ، أو أي مشرف أو مربٍّ في المدرسة ، أن شرح للتلاميذ وهم على أبواب الجامعة أنواع التخصصات والدراسات المختلفة المتوافرة في الجامعات ومميزاتها وما تقود إليه . قد يقول قائل إن هذا شيء لا يحتاج إلى شرح وإيضاح وأن الطلبة يعرفون ما هم مقبلون عليه . . وهذا كلام إذا انطبق على بعض الكليات إلا أنه لا ينطبق على الكليات كلها . فماذا يعرف الطالب مثلاً عن مستقبل عمله بعد أن يتخرج من كلية مثل كلية العلوم ، أو حتى في بعض أقسام كلية الآداب مثل التاريخ أو الجغرافيا؟ الحقيقة أننا في ذلك الوقت لم نكن نعرف أصلاً أن مثل هذه الكليات موجودة ، وإذا حدث وعرفنا بوجودها فهي معرفة هامشية ضحلة لا ترقى أبداً إلى رؤية واضحة لما يمكن أن يفعله المتخرج بعد أن ينهي دراسته

الجامعية، وربما لهذا السبب أذكر أنه حينما وزعت علينا الاستمارات لنسجل عليها أسماء الكليات المختلفة التي يرغب الطالب في الالتحاق بإحداها فإن اختيار الجميع وقع على كليتين فقط دون أن يشذ عن ذلك شخص واحد. . . اختار طلبة القسم الأدبي كلية الحقوق، بينما حدد جميع طلبة قسم العلوم كلية الطب كاختيارهم الأول! . . . ومرد ذلك دون شك هو عدم معرفتنا بباقي الكليات والتخصصات .

على أي حال أسرع قبل غيري من الطلبة إلى إنهاء إجراءات الابتعاث التي كانت بسيطة، ولا تتطلب أكثر من إعلان الطالب عن رغبته في إتمام دراسته الجامعية في القاهرة. حدث في ذلك العام (١٩٥٤ ميلادي) أن كان عمي رحمه الله وعائلته يقضون الصيف في القاهرة؛ ولذا فقد قررت أن أسافر مبكراً لأمضي معهم باقي أشهر الصيف إلى أن تبدأ الدراسة. كان السفر إلى مصر في تلك الأيام وبعد الحج مباشرة يترتب عليه مكوث المسافر عند وصوله بالطائرة ثلاثة أيام في الحجر الصحي بمطار القاهرة، ولتلافي هذه العقبة نصحني بعضهم بأن أسافر إلى مصر عن طريق لبنان. وفعلاً أخذت الطائرة إلى بيروت بصحبة واحد من العائلة كان مسافراً إلى هناك على أن أواصل سفري إلى القاهرة. لم أنتبه، ولا انتبه الرجل الذي كنت بصحبته إلى بيروت، إلى أن المطلوب من الشخص القادم إلى مصر من المملكة أن يكون قد أمضى ثلاثة أيام على الأقل في مكان آخر غير المملكة قبل أن يتمكن من الدخول. كنت أظن، ويظن معي من نصحوني بالسفر عن طريق بيروت، أنه يكفي أن أمرّ مروراً عابراً بمطار بيروت حتى أتمكن بعدها من دخول القاهرة، وللأسف لم يكن ذلك صحيحاً؛ ولهذا فما إن

وصلت إلى مطار القاهرة، واتضح للمسؤولين هناك أن رحلتي من جدة إلى بيروت فإلى القاهرة كانت بنت يوم واحد، حتى قادني الموظف المختص إلى مركز الحجر الصحي بالمطار. . كان عمي وأفراد عائلته قد حضروا إلى المطار لاستقبالي والعودة بي إلى مكان سكنهم ضيفاً عزيزاً مكرماً، لكن قدرتي أنزلني ضيفاً على آخرين - أطباء وممرضات الحجر الصحي .

لا أستطيع ومهما أوتيت من بلاغة - ولا أظن أنني أوتيت منها الكثير - أن أنقل إلى القارئ مدى الألم والضيق وخيبة الأمل التي أحسست بها وهم يقودوني إلى مركز الحجر الصحي وأنا أرى عمي وأولاده وقد قفلوا عائدين إلى المدينة دون أن أكون معهم . انتابني عندئذ إحساس باليأس، وتمنيت لو أنني لم آت إلى مصر أبداً! . . لم يكن حصر الحجر بمدة محدودة هي ثلاثة أيام بالعامل الكافي للتخفيف من بؤسي إذ كنت أحس وكأنني سأبقى في ذلك الحجر إلى الأبد . . كانت القاهرة بالنسبة لنا في تلك الأيام حلاًماً جميلاً يمثل تحقيقه أقصى ما كان يتمناه شاب مثلي . كنا نسمع ونصدق أن مصر هي أم الدنيا، وكنا نسمع كذلك ممن سبقونا من الزملاء كم هي القاهرة جميلة، وكيف أن شوارعها وحدائقها أشياء لا عهد لنا بمثلها ولا بمثل ميادينها ولو من بعيد . . وكان ذلك صحيحاً . . فنحن أولاد قادمون من مدن وقرى لم تكن يد العمران والتطور قد امتدت إليها بعد . . كانت شوارعنا في ذلك الوقت صغيرة ضيقة لا أنوار فيها ولا أشجار، ثم إنها لم تكن معبدة ولا مرصوفة . . كان كل ذلك صحيحاً في تلك الأيام . . وكانت القاهرة تنقل من هو مثلنا إلى عالم جديد كل ما فيه مختلف . . شوارع واسعة فسيحة معبدة تتلألأ فيها الأنوار وتقوم على جوانبها العمارات

الحديثة والمحلات التجارية الأنيقة المكتظة بشتى أنواع البضائع . . كما كانت الشوارع نظيفة يغطيها الإسفلت ، وتمتد على جوانبها أرصفة تظللها الأشجار ويغطيها البلاط والرخام . كان كل ذلك جديداً علينا نحن القادمين من الصحراء . . كانت أغلب شوارع القاهرة في ذلك الوقت تغسل في آخر الليل بالماء والصابون ذي الرائحة الزكية .

كل هذا أو أغلبه كنت أسمع به قبل أن أصل إلى القاهرة ، والآن وقد وصلت وبدلاً من أن أدخل عالم القاهرة الساحر قادوني إلى غرفة كئيبة في مبنى أكثر كآبة ، وأجبروني على البقاء داخلها ثلاثة أيام طوال . بدا الأمر لعيني أشبه ما يكون بالكارثة . . في ظروف غير هذه كان من المؤكد أن أعتبر ما حدث إجراءً عادياً لا يستحق التعليق . وإنصافاً للحق أقول إن المكان لم يكن سيئاً أبداً ، والعناية من القائمين عليه كانت طيبة ، وما تزال ترن في أذني كلمات التشجيع تتخللها مشاعر التعاطف معي في مصابي ، ولكن لا بد من تنفيذ الإجراءات التي كانت سائدة في تلك الأيام . كان الوضع محزناً لأن الفتى الذي كانت أقصى أمانيه ومنتهى أحلامه أن يصل إلى مصر قد وجد نفسه بعدما حطت به الطائرة في المطار محروماً من التوجه فوراً إلى جنة أحلامه . مرت الأيام الثلاثة بطيئة متناقلة لا تكاد تتحرك . . كنت أقضي أوقات النهار واقفاً قرب شباك أطلع من خلاله إلى سماء القاهرة وفضائها ، وإلى الناس أغبطهم وهم يسرون أحراراً قادرين على التوجه من المطار ، حيث كنت محتجزاً ، إلى القاهرة في أي وقت يشاؤون . . كنت أعد الساعات والدقائق ، وكانت ساعات الرحمة هي تلك التي أخلد فيها إلى النوم ! . .

مضت الأيام الثلاثة وجاء موعد الإفراج عني ، وعاد عمي وعائلته ليأخذوني إلى المدينة التي أتحرق شوقاً للوصول إليها . يالها من فرحة غامرة سيطرت على كل كياني وأنا أجلس بينهم في السيارة تاركاً خلفي مبنى الحجر الصحي . كنت أمتع ناظري بكل شيء أراه : الطرقات والأشجار والسيارات والناس والطيور - كل شيء . . هذه هي القاهرة التي طالما شاهدت صوراً لسكانها وشوارعها ومبانيها في المجلات المصرية التي كانت تقع تحت يدي . . هذه إذن القاهرة التي كنت أحلم بها ، وها أنذا الآن أمر في شوارعها في سيارة فخمة تسرع بي إلى حيث سأقيم . . لم يعد بيني وبينها إلا مسافة الطريق من المطار . . وحتى الطريق كان شيئاً جميلاً ممتعاً لم أستعجل بلوغ نهايته أبداً . لم تكن طرق القاهرة في تلك الأيام مزدحمة بالناس أو السيارات . . ولم يكن الهواء مشبعاً بالتلوث كما هو حاصل الآن . . كانت الطرق أكثر نظافة مما هي عليه الآن ، ولم تكن مليئة بالحفر والمطبات . . لاشك في أن القاهرة من أجمل بلاد الدنيا ، ولا شك أيضاً في أنها ستعود إن شاء الله لي مثل ما كانت عليه بشيء من الجهد ومعالجة بعض الأمراض السكانية ومحاربة الإهمال .

عندما وصلت إلى مصر لأول مرة في صيف ١٩٥٤م كان عدد سكان العاصمة يقارب مليوني نسمة . كانت المدينة تستوعب هذا العدد بسهولة تامة ، وبقيت هكذا إلى منتصف الستينات ، ثم بعد ذلك حصل الانفجار السكاني ، وتبعته تجارب في الاقتصاد ، ثم حرب ١٩٦٧م وغيرها من الأحداث التي تركت أثراً سلبياً على الحياة الاقتصادية العامة في مصر . . ولا ننسى أن حركة الاقتصاد العالمية قد أثرت في مختلف البلدان بدرجات

متفاوتة فانتعشت معظم دول الشمال بينما قاست أكثر البلدان التي يطلق عليها العالم الثالث من انفجارات سكانية وهجرة جماعية من الأرياف إلى المدن، كما قاست من الجمود واللامبالاة. مصر بلد عريق بتاريخه وحضارته وثرواته الطبيعية وخيراته عامة، وهي اشتهرت من قديم الزمن بجذب الناس إليها، وكما يقال: من شرب من ماء النيل فلا بد أن يعود إليه!.. ولا شك أن هناك ألف سبب وسبب يدعو زوار مصر إلى العودة إليها مرات ومرات.. ليس أقلها أهراماتها الشامخة التي تتحدى كثر الزمان، ومساجدها الأثرية، ونيلها وتاريخها المفعم بعبق الماضي التليد، ناهيك عن سماحة أهلها وطيبتهم التي تجعلهم يصادقون الغريب بعد دقيقة واحدة من المقابلة الأولى.

لم تكن التغيرات الكبيرة التي أتت بها الثورة المصرية قد تغلغلت بعد في حياة الناس، أو بدلت من رتبة الحياة التي اعتادها المصريون طوال العشرات من السنين. لم تكن القاهرة إلى ذلك الوقت، أي أوائل الخمسينات، قد أخذت بالنمو السريع والخروج عن الحدود التي عرفتها لأزمان طويلة، فقد كانت مساحتها كافية وتزيد عن احتياجات المليونين من سكانها في ذلك الوقت. فعندما رأيت مصر لأول مرة سنة ١٩٥٤م كانت منطقة الدقي مثلاً ما يزال أغلبها حقولاً زراعية كما أن الجيزة كانت بقعة خضراء ريفية.

لم تكن هناك حاجة في ذلك الوقت إلى الاستيلاء على الأراضي الزراعية وتحويلها إلى مواقع لعمارات سكنية كما حدث فيما بعد،

فالعمارات الموجودة كانت تكفي وتزيد عن حاجة الناس . وأذكر أنه كان من السهولة بمكان أن تجد شققاً للإيجار في أي منطقة تبحث فيها عن شقة ، ولا سيما المناطق التي كان يقطنها الطلبة السعوديون وهي الدقي والجيزة والعجوزة ، وهي كلها قريبة من جامعة القاهرة ، بل كان هناك حسب التعبير الاقتصادي فائض في أعداد الشقق المعروضة للإيجار . ويقال : إنه كان من المألوف عندما تصبح عمارة ما جاهزة للإيجار أن يلجأ أصحابها إلى إطلاق البخور ورفع الدعوات الطيبة لاجتذاب المستأجرين دون تأخير . . !! أين تلك الأيام من أيامنا هذه حيث لم يعد هناك شيء اسمه تأجير . . فأنت إما أن تكون قادراً على دفع مقدم ضخّم لشراء شقة وإما لا تكون ، وفي هذه الحالة كان الله في عونك .

كنا نجتمع نحن الطلبة السعوديين كل اثنين أو ثلاثة ونستأجر شقة . . كان الإيجار الشهري يتراوح بين عشرة وخمسة عشر من الجنيهات . كما كانت هناك شقق معروضة بإيجارات تقل عن ذلك . فإذا تذكرنا أن الطالب السعودي كان يأخذ ثلاثين جنيهاً مصرياً في الشهر ، وأن ثلاثة طلاب يأخذون تسعين جنيهاً شهرياً ، أدركنا أن الطالب السعودي كان يعيش عيشة أبناء الذوات !! طبعاً يجب أن نسرع ونشرح لأولادنا وأبناء اليوم أن الجنيه المصري في ذلك الوقت كان جنيهاً حقاً يؤخذ له " تعظيم سلام " . . كان الجنيه يساوي بالقيمة النقدية عشرة ريالات سعودية!! . . وكانت قوته الشرائية حسبما يقول الاقتصاديون قوية . كان بالإمكان إعداد ثلاث وجبات شهية محترمة في اليوم بجنيه واحد ويبقى منه بعض القروش! . .

تعلمت بالتجربة أن من الحكمة أن أوفر مبلغاً من المرتب الشهري احتياطاً للطوارئ، إذ حدث ونحن ثلاثة في الشقة أن تكفل أحدنا بالصرف على الأكل وغيره من مستلزمات المعيشة، فسلمناه مخصص الشهر كاملاً. ولكن لم تمض إلا بضعة أيام حتى أعلن أنه أفلس، وأنه لا يملك ما يشتري لنا به حاجيات اليوم!.. ولما استفسرنا منه عن كيفية نفاد المبلغ المخصص للشهر كله في بضعة أيام قال: إنه من الناس الذين يحبون الشوكولاته وأنه لم يتبّه إلا ومصروف الشهر كله قد نفذ!.. يا للمصيبة!.. تصور شخصاً يأكل شوكولاته بحوالي عشرين جنيهاً على الأقل وبحسبة تلك الأيام!!.. ومنذ ذلك الشهر الأغبر لم نعد نعهد لأخيّننا هذا بأي مشتريات؛ بل أعفيناه نهائياً من مسؤولية التدبير المنزلي، وعهدنا بها إلى الثالث الذي قام بالمهمة بجدارة تامة. كنت أنا أيضاً قد تعهدت لوقت قصير بالصرف على المنزل وتدبير شؤونه، ولكنني أيضاً لم أنجح فيه كما ينبغي، وكان فشلي راجعاً إلى أسباب أخرى لا علاقة لها بالشوكولاته! وأخيراً استقر رأي الجميع على أن يكون ثالثنا هو المسؤول الدائم عن تصريف شؤون المنزل.

يبدو أنني استبقت الحوادث ويستحسن أن أسرد الأحداث حسب ترتيب حدوثها.. فلقد وصلت إلى القاهرة من المطار برفقة عمي وعائلته الذين سبق أن ذكرت أنهم كانوا في ذلك الصيف في القاهرة.. كانوا يقطنون داراً أنيقة بالعجوزة، وكان من الطبيعي أن أكون ضيفاً عندهم بعد أن أطلق سراحني من الحجر الصحي. وصلنا إلى المنزل وكنت طوال الوقت أملاً ناظري بكل شيء وأي شيء أراه على جانبي الطريق.. وكنت أملاً ناظري طوال الطريق بالمناظر على جانبي الطريق.. كان كل شيء جديداً، الأعداد

الكبيرة من السيارات والشوارع الفسيحة التي انتصبت على جنباتها الأشجار والناس يملؤون الشوارع حتى خيّل إليّ أن كل سكان القاهرة قد خرجوا من منازلهم لأمر ما؛ كانت النساء يسرن سافرات وهو شيء لم أعهده في المملكة حيث ينشأ الشاب عندنا وهو لا يرى من النساء سوى محارمه . كانت أمي رحمها الله تطردني من بيتنا الصغير في المدينة عندما كانت تزورها بعض نساء الجيران خشية أن أرى وجه إحداهن أو أسمع صوتاً لأنثى ! .

وصلنا بسيارة العم وعائلته إلى المنزل الذي كانوا قد استأجروه لقضاء فصل الصيف . كان بيتاً جميلاً أنيقاً يقع في شارع متفرع من شارع النيل بالعجوزة قريباً من نهاية ذلك الشارع من جهة الدقي ، كانت فخامة المنزل أيضاً شيئاً لا عهد لي بها؛ فقد كنت في المدينة أسكن منزلاً صغيراً منزوياً في حارة مغمورة ، وفي مكة كان سكني في قلعة جبل هندي . . أما المنزل هنا فكان عبارة عن فلة حديثة واسعة تتبعها حديقة غناء وأشجار باسقة كثيفة . أما أثاثها فكان من الفخامة مما يدل على ثراء أصحابها . . كانت حجراتها أنيقة وشبابيكها واسعة تشرف على الحديقة التي حوت أنواعاً عديدة من الزهور الحسنة التنسيق . كل ذلك كان جديداً عليّ وكنت أخشى أن أتحرك كثيراً داخل المنزل حتى لا أعثر بشيء وأحدث تلفاً .

خصص لي أهل المنزل غرفة من غرف الدور الأرضي سعدت بها سعادة لا توصف ، إذ كانت الغرفة تلك هي المرة الأولى التي أحظى فيها بالعيش في غرفة بهذه الفخامة وبمفردتي ! . . تفحصت الغرفة وكان كل شيء فيها محل إعجابي وتقديري : السرير والستائر والطاولة التي بجانب السرير ؛ كل

هذا كان شيئاً جديداً عليّ وكنت سعيداً به كل السعادة .

إلا أن سعادتي سرعان ما بدأت تتلاشى . . كان وصولي إلى القاهرة قبل الظهر ، وبعد الغداء عدت إلى غرفتي ، ومتعت نظري مرة أخرى بمنظر محتوياتها منتشياً بالخصوصية الجديدة التي أمتع بها ، إلا أن شعوري هذا بدأ يتلاشى مع اقتراب المساء . . شعرت أن مكاني لن يكون في هذه الغرفة ؛ بل يجب أن يكون خارج المنزل كله . . في القاهرة بوسعها . . لم أكن أريد الانتظار إلى المساء حتى أذهب مع العم وعائلته إلى السينما ؛ بل تسلفت خارج الغرفة إلى حيث غرفة السائق في الحديقة ، وطلبت منه أن يأخذني بالسيارة في جولة في الأحياء القريبة من المنزل . . لا أدري إن كان السائق اعتقد أن لديّ إذنًا من العم بذلك لأنه استجاب لطلبي دون نقاش . وراحت السيارة تعبر دوغما هدف محدد . . كنت سعيداً بكل دقيقة قضيتها ونحن نتجول من مكان إلى مكان دون أن نقصد مكاناً بعينه . وقتها شعرت بسعادة غامرة ، وكنت أتمنى لو قضيت الليل بطوله أتجول في شوارع القاهرة وحاراتها . . أذكر بهذه المناسبة قصة قرأتها عن شخص اتهم بجريمة قتل ، ولما عجز المحققون عن العثور على دليل قاطع يدينه ، تفتق ذهن أحد المحققين عن وسيلة جعلت الرجل يعترف بجريمته . أركبوه في سيارة أخذت تجوب به شوارع البلد دون هدف معين ، تروح وتجيء في الشوارع نفسها عشرات المرات إلى أن نفذ صبر الرجل وانفجر صائحاً بالسائق أن يتوقف واعترف للمحققين بأنه الفاعل المطلوب للعدالة . كان اعترافه بالجريمة أهون عليه من التجوال بسيارة دوغما هدف . لم أذكر حادثة ذلك الجاني لأدلل على غرابة فعلتي وأنا أتجول بسيارة في شوارع مصر على غير هدى ، فالإنسان

يتصرف بطرق متباينة في مراحل حياته ؛ وما يفعله ابن العشرين قد يستنكف منه إذا وصل الأربعين .

كنت قد ذكرت أن جميع طلاب التوجيهي في القسم الأدبي اختاروا كلية الحقوق وأن جميع طلبة القسم العلمي رأوا أن الطب هو الطريق الصحيح لمستقبل واعد . وهكذا فلم أشد عنهم ، ووقع اختياري على كلية الحقوق . لم تكن رغبتني تلك قائمة على دراسة متأنية حبذت بنتيجتها ذلك التخصص دون غيره ؛ بل كان من قبيل " المشي مع الجماعة -ولو على الموت- رحمة " ، والجماعة هنا هم زملائي الطلبة الذين كانوا يسرون على نهج من سبقهم إلى جامعات مصر ، ويقلد بعضهم بعضاً . كان مكتب الملحق التعليمي بمصر يقوم بالتنسيق مع وزارة المعارف لإعادة توزيع الطلبة على الكليات طبقاً لما تراه الوزارة من حاجة البلد إلى التخصصات العلمية المختلفة . وكان كل شيء يسير غالباً على ما يرام ، وسرعان ما ينسى الطلبة اختياراتهم الأولية دون أي أسف . . أما أنا فقد بقيت على اختياري الأول كلية الحقوق ، ولم أسع إلى مقابلة الملحق التعليمي بالقاهرة . كان ذلك لسبب وجيه هو أن فرع أسرتنا الغني أبدى استعداداً لتحمل كافة مصاريف دراستي وذلك دون أن يعرفوا أو يهتموا بمسألة الاختصاص الذي اخترته . وكنت لهذا أرى نفسي متميزاً عن باقي زملائي من الطلبة الذين أنهوا دراستهم الثانوية .

كان الوقت بداية الصيف وكان علينا جميعاً أن نتنظر إلى بداية العام الدراسي بعد بضعة أشهر . . كنت ضيفاً على عمي وعائلته كما ذكرت ،

ولاشك في أنهم كانوا يعاملونني وكأنني واحد من أولادهم، ولكنني أبقى ضعيفاً على الرغم من كل شيء، ثم هم سيغادرون القاهرة بعد انتهاء إجازتهم، وعليّ بعد ذلك أن أجد نفسي سكناً آخر، أو على الجهة التي تكفلت بي أن تجد هي لي هذا السكن، وأن تتكفل بكل ما أحتاج إليه من مصاريف الدراسة والكتب واللوازم الأخرى. وفكرت في الأمر... هناك حكومة ترسل أبناءها من الطلبة إلى مصر وغير مصر، وتقدم لهم كل ما يحتاجون إليه وكل ذلك بكرم يقصر عنه ما قد تقدمه أية عائلة لابنها!.. لماذا إذن أجفوا البعثة الدراسية الحكومية، وأقبل منحة دراسية من أقربائي... هم والحق أقول أبدوا هذا الاستعداد دون أن يطلب أحد منهم ذلك، وجزاهم الله خيراً... ولكن هذه الأريحية لا شك ستطوق عنقي ما حييت، فلماذا أعطي عنقي لأي أحد يطوقه إلى أن أموت؟ ولماذا بدلاً من ذلك لا أعطيه إلى الدولة تطوقه كما تشاء؟ فالدولة تطوق أعناق الكثيرين غيري من أبنائها... والفرق بين الطوقين أن الأول نحس به ثقيلاً حول أعناقنا بينما الثاني نتعامل معه وكأنه من المسلمات، وكأن الدولة وجدت فقط لتعني بشؤوننا!..

وما دمنّا في معرض الحديث عن رعاية الدولة لمواطنيها والعناية بهم فإنني أود أن أذكر أن الكثيرين منا اعتادوا فقط أن ينتظروا ما يمكن أن تعمله حكومتهم من أجلهم. ولكن إذا أردنا أن نعطي تعريفاً للدولة فهي ليست أكثر من جزء من شعب ما في أرض ما، ورجال الدولة هم أبناء البلد، والبلد ينهض ويقوى ويزدهر بما يعمل رجاله من أجله، فالدولة والناس هما في النهاية شيء واحد. وقد أعجبتني عبارة جميلة قالها الرئيس الأمريكي

الراحل جون كينيدي في إحدى خطبه وهي : " لا تنتظر ما يمكن لبلدك أن يعمل من أجلك بل انظر ماذا تستطيع أنت أن تعمل من أجل بلدك " . وهكذا فعندما نتكلم عن الطوق الذي يطوق أعناقنا جميعاً للدولة فإننا في المقابل يجب أن ندرك أن الطوق هذا دين علينا لبلدنا وعلينا بالخدمة المخلصة أن نؤديه . ، ويؤلني هنا أن أضيف أن كثيراً منا ولا أقول كلنا ننتظر فعلاً ما تعمله الدولة من أجلنا ، أو على الأقل نسأل عن الفوائد التي يمكن أن نحصل عليها من بلدنا والتي ربما نرى أنها حق مشروع لنا ما علينا سوى أن نطالب به . وأود أن أتساءل كم من الوقت يمضيه أحدنا في قدح زناد فكره ليجد أحسن الوسائل وأنجحها ليقدم هو خدمة ما لبلده ؟ من منا يجلس في أوقات خلوه بنفسه يعدد الخدمات التي قدمها لبلده مقابل كل الخدمات التي يقدمها لبلده له ؟ إن كثرة استعمالنا لكلمة " معطاءة " في سياق الحديث عن الوطن دليل على أننا نجلس دائماً وننتظر العطاء دون أن نفكر مرة واحدة في أن نعطي نحن لبلدنا شيئاً ، كلمة " معطاءة " أو " معطاءة " أصبحت في الحقيقة مستهلكة ومموجة لدرجة أنني في حالات كثيرة أقطع قراءة أي نص أجدها فيه . على أي حال لم أضع وقتاً طويلاً في اتخاذ القرار . . فقد أسرعت إلى مكتب الملحق الثقافي في ذلك الوقت الأستاذ الجليل عبدالله عبد الجبار . . وقابلني أستاذنا الكبير ببشاشته المعروفة وحنوه الأبوي ، ولم أخرج من عنده إلا وقد التحقت بالبعثة التعليمية ، وسجلت في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية .

والشيء الغريب الذي ما أزال أذكره إلى اليوم أنني شعرت حين خروجي من مكتب الأستاذ عبدالله وكأنّ حملاً ثقيلاً كان فعلاً يثقل كاهلي

قد انزاح فجأة! .

وفجأة أيضاً انتهت جميع المشاكل التي كنت أفكر فيها! أين سأسكن ، وكيف سأحصل على ما يكفيني كمصروف لكل شهر وسداد تكاليف الملابس والعلاج وغير ذلك ، كل هذه انتهت همومها فجأة . . فأنت عندما تكون عضواً في البعثة التعليمية السعودية تأتيك كل هذه المخصصات تسعى . . عليك فقط أن تجدّ وتسعى أنت أيضاً لتحقيق النجاح في دراستك التي اخترتها وبعد ذلك تنام قرير العين . كنتُ ما أزال أسكن مع عمي وعائلته ولكن ما إن التحقت بالبعثة حتى أسرع إلى البيت الذي كنت ضيفاً فيه أعد نفسي للانتقال . انتابني شعور غريب بالارتياح أحسست وكأنني عبرت فجأة مرحلة الصبا إلى مرحلة متقدمة من النضج المبكر ، أو ربما كان ما شعرت به هو الاعتزاز بالاستقلال وتحمل المسؤولية بعيداً عن انتظار «العطاء» من أحد من العائلة ، أو لعله الرغبة في العيش المشترك مع الزملاء ، أو لعلها كل هذه النوازع مجتمعة ، وهو الأصح على الأرجح .

حملت متاعي واتجهت إلى شارع المساحة بالدقي حيث كانت العمارة التي تضم الطلبة السعوديين . وشارع المساحة هذا شارع هادئ جميل تكتنفه الأشجار الباسقة الخضراء ويقع في حي حديث هو حي الدقي على أطراف منطقة العجوزة التي كان معظمها ما يزال مزارع خضراء تمتد على مرمى البصر . كان من بين مميزات هذا الحي أنه قريب من الجامعة ، جامعة القاهرة العريقة التي كان من حسن حظ أغلب الطلاب السعوديين أن يكونوا طلبة فيها .

كان الوقت الذي أنا بصده ما يزال منتصف الصيف ، وكان قد بقي

هناك شهران أو ما يقارب ذلك قبل بداية الفصل الدراسي ، وكانت تلك الفترة هي فترة تعارف واندماج في مجتمع جديد غريب يحاول كل واحد من الطلبة أن يتأقلم معه حسب مفهومه .

لم نكن نصدق ونحن صغار عندما كان الكبار يؤكدون لنا أن أجمل الأيام في حياة الشخص هي أيام التلمذة . . كنا نظن أن المقصود بذلك هو تخفيف هم الدراسة علينا . ولا أعتقد الآن أن يوماً سيأتي يصدق فيه تلميذ بأن أجمل أيامه هي التي يمضيها كل يوم في المدرسة بصحبة الأولاد ممن هم في مثل سنه . . ولا غرابة في ذلك ، فالتلميذ ينظر إلى حياته كسلسلة من حفظ نصوص ، وكتابة واجبات ، واستيقاظ مبكر ، ورعب من الامتحان ، لا يوجد عالم غير هذا العالم في وجدان الطالب ولا يهمه إن وجد . أذكر - وذلك من عهد ليس ببعيد - إننا كنا نطير فرحاً ونحن طلاب دراسات عليا عندما يصادف أن تلغى محاضرة لسبب ما أو تعطى لنا إجازة طارئة لم تكن في الحسبان . . ذلك كان واقع الحال قبل أن نكبر ونجرب حياة ما بعد الدراسة ، وقبل أن نجد أنفسنا في مواجهة مباشرة مع هموم الحياة الكثيرة والمعقدة . أيام الدراسة كان كل هم الطالب فيها أن يحصل على درجات النجاح تحمله إلى مرحلة دراسية أعلى من تلك التي هو فيها ، ولم يكن في الإمكان أن ندرك ونحن في دوامة الدروس والامتحانات واحتمالات النجاح والرسوب أن فترة الدراسة هي الأجمل في حياتنا لأنها الوحيدة التي تخلو من أية مسؤولية خلاف مسؤولية النجاح من سنة إلى أخرى . وحيث إنه لا يمكن الحكم على شيء ما بطريقة صحيحة إلا بعد أن يعرف ضده فقد

أدركت كما أدرك من سبقوني أن أيام المدرسة كانت هي فعلاً الأيام التي سعدنا فيها، والتي خلت مما سيأتي من مسؤوليات الحياة فيما بعد .

ينطبق هذا القول بصفة خاصة على أيام الدراسة بمصر . . فقد كانت فعلاً أياماً جميلة هنيئة . . لم نشعر نحن طلاب المملكة بالغبرة أولاً . لأننا جئنا مع زملاء وأصدقاء لنا من مدارس المملكة، وثانياً لأن الشعب المصري هو من أكثر شعوب الأرض ترحيباً بالوافدين إليه .

جاء اليوم الأول من الفصل الدراسي وبكرت في الوصول إلى الجامعة . . أول يوم بالجامعة هو يوم مشهود، فهو يمثل مرحلة انتقال من الصبا إلى الشباب، مرحلة الإحساس بأن الفتى قد أصبح رجلاً، فها هو مقبل على عالم الجامعة الواسع، عالم جديد غريب عليه أن يثبت أنه أهل له . يحس الفتى لأول وهلة وكأنه يسير في غابة كثيفة مترامية الأطراف لا يرى السائر فيها أبعد من قدميه، وعليه أن يتلمس طريقه بحذر وحيطة، وعليه في الوقت نفسه أن يثبت أنه أهل لأن يلج عالمه الجديد ويشق طريقه عبره إلى النهاية . كان هذا إحساسي عندما ولجت باب جامعة القاهرة لأول مرة، ومع ذلك فقد شعرت أنني أطير من النشوة وأني لا أسير على قدمين! . .

كنت ممتلئاً زهواً وفخاراً، وأنا أمر من أمام مباني الأقسام المختلفة، متجهاً إلى قسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب، كانت تتابني في الواقع أحاسيس متباينة أشد التباين، فأنا ممتلئ سروراً عندما أتذكر أنني وصلت إلى الجامعة، ثم بعد لحظة أبدأ في التفكير في مصيري ماذا عسى أن يكون

إذا لم أفلح في تعلم اللغة الإنجليزية والاندماج في عالم الأدب الإنجليزي؟! وهنا يبدأ العرق البارد يتصبب على وجهي، ثم أعود فأنظر حولي وأرى جموعاً من الطلبة المستجدين، وأرى الحيرة وبعض علامات الضياع بادية على وجوههم هم أيضاً، فأحمد الله على أنني لست الوحيد الذي اختلطت لديه المشاعر.

سألت عن كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية حتى اهتديت إلى بغيتي، وبعد بعض الإرشادات من طلبة قدامى عرفت الطريق إلى المكان الذي ستلقى المحاضرات فيه. اتجهت إلى حيث وضعت الجداول وأخذت ورقاً وقلماً وابتدأت أنقل المكتوب على لوح كبير معلق في ردهة المبنى. كتبت واكتشفت بعد أن انتهيت من نقل كل ما على اللوح أنني سجلت جداول المحاضرات لكل القسم الإنجليزي من السنة الأولى إلى الرابعة وليس فقط الجدول الذي يخصني!.. بعدما انتهيت من نقل الجداول جميعها وصل عزت خطاب، وكان يبحث عني، وبسؤاله لي أطلعته على ما فعلت، فضحك عالياً من سذاجتي، وشعرت أنا بالإحباط، وكان ذلك أول درس عملي لي في جامعة القاهرة!..

انقضت الأيام الأولى في كتابة الجداول والتعرف على المكان والحصول على الكتب المقررة ثم ابتدأت الدراسة الفعلية، استمعت لأول محاضرة، وكانت على ما أتذكر تقديماً لما على طلاب الأدب الإنجليزي أن يتوقعوه ويعدوا له. كان المحاضر واحداً من أساتذة القسم المرموقين هو الدكتور مصطفى العيوطي، وكانت المحاضرة بطبيعة الحال باللغة الإنجليزية. وماذا

كنت أتوقع . . ؟ أريد أنؤكد هنا، وبكل صدق وأمانة، أنني لم أفهم شيئاً واحداً مما قاله الدكتور العيوطي . . ! وكان ذلك لسببين : أولهما : وهو السبب الواضح، أن معرفتي بالإنجليزية في ذلك الوقت كانت تقصر عن استيعاب محاضرة تلقى بتلك اللغة، والسبب الثاني : البنات ! نعم . . فقد كانت القاعة تعجّ بالفتيات . . وللعلم فإن البنات يقبلن أكثر من الأولاد على تعلم اللغات الأجنبية، وعليه كان عدد الفتيات في المحاضرة يزيد عن عدد الطلاب . كانت تلك أول مرة أجد نفسي في فصل دراسي واحد مع أعداد من البنات بدلاً من زملاء من الأولاد الذين ألفتهم وألفوني ! . . في البداية، وعندما دخلت قاعة المحاضرات أسرعرت إلى حيث تكتل الأولاد ودسست نفسي بينهم . ولكن القضية لم تكن قضية عدد بل كانت كيفية التأقلم مع هذا الجو الجديد الذي لم أعتده . . كنت في ذلك الصباح والساعات والأيام التي تلتها أتجنب أن أجلس قرب فتاة، وأبحث دائماً عن مكان تجمع الأولاد كما ذكرت فأختار لنفسي مكاناً بينهم . . ولكن على الرغم من المجهود الكبير الذي كنت أبذله لأحتفظ بتركيزي وقدرتي على متابعة الأستاذ المحاضر وما كان يجري من مناقشات وأسئلة إلا أنني لم أستطع في اللاحق من الأيام أن أسيطر على نظراتي ولا على التفاتي يميناً وشمالاً صوب البنات لأقرر أيهن أكثر جمالاً من الأخرى، ومن هي تلك التي سأخصها بحبي في الأيام القادمة ! . وليس بخاف على القارئ الحصيف، أو حتى غير الحصيف، خاصة إذا كان زميلاً، أن يدرك أي نوع من الحب أقصد .

كانت هناك مجموعة من الفتيات يتواجدن دائماً معاً، ويظهر أنهن كن

خريجات بعض المدارس الإنجليزية . . كن تقريباً الوحيدات اللاتي يناقشن المحاضر ، ويسألن الأسئلة التي لم أكن في البداية أدرك ماذا تعني ولا ما هو موضوع المناقشة . . ويا لها من ورطة! . . ترى ما الذي دفعني إلى الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية . . ؟ كانت الأيام الأولى من الدراسة عبارة عن أزمة نفسية رهيبة ليس لي فقط بل لمعظم الطلبة السعوديين ، وكذلك لكثير من المصريين ممن التحقوا بهذا القسم . كنا ندرك أن شهادة ليسانس باللغة الإنجليزية شيء جميل ، ولكن لم نكن نعلم أن الرحلة بين أول محاضرة وبين الليسانس دونها خطر القتاد! ولهذا لم يضع بعض الأخوة وقتهم وقرروا بعد أيام قليلة تغيير خط الدراسة إلى تخصصات تتلاءم مع ميولهم .

انسحب من الدراسة الإنجليزية بعض الطلبة السعوديين وبقي أربعة طلاب صمموا على المضي في الدراسة هم : عزت خطاب ، إبراهيم ملاوي ، وأنا ثم شخص رابع . مرت أيام الضياع الأولى ، وبدأت بالتدريج أعني بعض الذي يقوله المحاضر ، واعتدت وجود النساء في قاعة الدرس ، ولم يعد ذلك يسبب لي أي شتات ذهن ؛ بل أصبح وجودهن حافزاً على بذل مجهود حقيقي ، إذ من العار أن يقصر الرجل عما تستطيع فتاة إنجازه . . ! قررنا نحن الأربعة أن نتعاون على فهم المحاضرات واستيعابها . وقد قسمنا الواجبات فيما بيننا . . فكنت أنا وعزت نسارع إلى كتابة ما يليه المحاضر من دروس ، بينما يقوم الاثنان الآخران بكتابة بعض عناوين المراجع التي قد يكتبها المحاضر على اللوح . كان إبراهيم ملاوي يتمتع بذكاء حاد ، ولكن أغلب هذا الذكاء لم يكن موجهاً لتعلم اللغة الإنجليزية . كان يكفيه أن

(١) لقد توفي إبراهيم ملاوي رحمه الله قبل ظهور هذه الطبعة من الكتاب .

ير سريعا على المحاضرات التي يدونها في مذكراته من حصيلة ما كنا ننقله من المحاضر، ويضمن لنفسه نتائج إيجابية جيدة. إبراهيم هذا عمل فيما بعد مترجماً بوزارة الدفاع، وهو الآن متقاعد^(١). كان كل همه في تلك الأيام أن يرتدي بدلته "الشاركسكين" ذات اللون الطحالي، ويتبخر بها في حدائق الكلية ومقاصفها. وكان في الغالب يصل إلى الجامعة وقد انتهت المحاضرتان الأولى والثانية وجاء وقت الفسحة الطويلة.

من أمثلة ذكاء إبراهيم أن جاءني عشية اختبار اللغة اللاتينية يشتكي من أنه لم يستطع أن يستوعب أي شيء في هذه اللغة الميتة التي كانوا يصرون على أن نتعلم بعضاً من أساسياتها بصفقتها مصدر اللغات الأوروبية الحية. فما كان مني إلا أن هونّت الأمر عليه وأخبرته أن كل ما أنجزناه من تعلم اللاتينية لا يتعدى بضع كلمات وتصريفاتها. وصحبته إلى مسكني، وأعدت عليه ما درسناه في تلك السنة مطمئناً إياه بأن الامتحان لن يتعدى بعض تلك الكلمات البسيطة. . وفي صباح الامتحان وجدت أن ما تنبأت به كان صحيحاً، فالامتحان كان عبارة عن بضع كلمات لاتينية كان مطلوباً أن نترجمها أو نصرّفها. . وانتهى الامتحان، وظهرت النتيجة، ونجح إبراهيم باللاتيني وسقطت أنا. . !



كان فريق العمل الذي كوّنناه نحن الباقين بقسم اللغة الإنجليزية ذا فائدة كبيرة لنا، فقد كنا نسرع بعد انتهاء آخر محاضرات اليوم إلى غرفة أحدنا - عندما كنا نقيم في بيت الطلبة السعوديين - أو إلى شقة أحدنا فيما بعد، لإعادة كتابة ما استطعنا أن نستوعبه من المحاضرة. كانت هذه الاجتماعات في حد ذاتها فرصة للمذاكرة والاستيعاب، ولرياضة أنفسنا على أنماط البحث والتحصيل. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن ارتياد مكتبة الجامعة كان شيئاً لا يكاد يذكر، فقد كنا نكتفي في الغالب الأعم بما نسجله من فم المحاضر، ثم نذهب وننقحه بالطريقة التي أشرت إليها، وكان الله يحب المحسنين. لم أعرف طرق البحث والغوص في الكتب إلا بعد أن سافرت إلى إنجلترا ثم أمريكا للدراسة العليا. ولا أدري إن كان هذا تقصيراً مني أم من النظام الدراسي نفسه. . وأنا أميل إلى أن أتهم نظام التدريس بالتقصير. . إذ إن على المحاضرين وأساتذة المواد أن يجعلوا التردد على المكتبة واجباً ملزماً. والطريقة للوصول إلى هذا أن يشير أستاذ المادة في محاضراته إلى هذا الواجب مثيراً في طلبته حب البحث والاستزادة من المعرفة، ومذكياً فيهم كذلك روح المنافسة على غرار ما كان يفعله أساتذتنا في إنجلترا وأمريكا. أما أن يقف المحاضر ويلقي محاضرة محددة لا يحيد قيد أنملة عما أعده في الليلة السابقة فهذا تعليم جامعي هزيل. وكما يعرف

المختصون فإن التعليم الجامعي ما هو إلا تمرين للطلبة على البحث والحصول على المراجع التي لها علاقة بما يدرسون .

أحب الكتب حباً جماً ، وأعني بذلك الكتب التي لا علاقة لها بالمنهج الدراسي . أما الكتب الدراسية فقضية أخرى . أذكر أنني دخلت مكتبة الجامعة بالقاهرة طوال سنوات الدراسة مرة واحدة فقط ! . ذهبت أبحث عن كتاب ذكره على ما أعتقد بعض الطلبة كمرجع لا بد منه لإعداد بحث كان أحد المحاضرين قد كلفنا كتابته . . ولم أجد الكتاب لأن جميع طلبة الفصل كانوا يبحثون عنه ، ولا بد أن أحدهم قد سبق الآخرين واستعاره . ولست أنا بالذي تعييه الحيلة . لجأت إلى واحد من قرؤوا موضوع البحث في الكتاب المذكور " واستعرت " مقالته ، وكتبتها بطريقة مختلفة قليلاً ، محاولاً بذلك أن أظهرها وكأنها أصلية وليست منقولة . كان هذا العمل شائعاً مألوفاً بين الطلبة . أذكر ذلك وليس من مقصدي أن أفتح به باب الاعترافات ، ولكن للتأكيد على أهمية البحث والرجوع إلى المراجع الأساسية في التعليم الجامعي . وقد اكتشفت عندما سافرت للدراسة العليا النقص الكبير في قدراتي الدراسية . فحينما وصلت إلى إنجلترا وبدأت في دراسة ما بعد الجامعة وجدت أنني لم أكن مؤهلاً لها أبداً ، وكنت كأني في واد وباقي الطلبة في واد آخر . . وكان المدرس يعجب كيف أن شخصاً تخرج في قسم اللغة الإنجليزية لا يتقن النطق بجملة إنجليزية واحدة صحيحة ! . . وكان عليّ أن أضاعف جهدي وأعرق لكي ألحق ببقية الطلاب في الفصل .

لقد ابتعدت منذ سنين عديدة عن مجال العلم والتعليم ، وما أعرفه عنه وعن مشاكله لا يزيد كثيراً عما يعرفه الإنسان العادي من شؤون بلده ؛ ولهذا فلست مؤهلاً للكتابة عن أمراض التعليم عامة ، وإن كنت أسمع دائماً أن جيلي مثلاً كان أكثر علماً وثقافة من الأجيال التي أتت بعده ، كما أن الأجيال التي سبقت جيلي كانت أيضاً أكثر ثقافة من الجيل الذي أنتمي إليه . وأسمع أيضاً أن التحصيل العلمي والثقافي في تدهور مستمر . . وقد حدث فعلاً أن اطلعت على بعض كتابات لشباب خريجي الثانوية العامة والجامعة أيضاً فوجدت العجب العجائب . . فالأسلوب رديء ركيك ، والغلطات الإملائية يخجل من مثلها صبي في المرحلة الابتدائية . وبلا أي فخر أو تواضع كاذب كنت أكتب بصورة أفضل من كتابة هؤلاء الشباب وأنا ما زلت في المراحل الابتدائية . وأسارع فأقول إن هذا ليس فرط ذكاء مني ، فلو كنت من طلبة اليوم لما كنت أحسن منهم . في أيامنا كنا نجد الوقت الكافي للقراءة ، وكنا نلتهم من الكتب ما نستطيع أن نجهده . أما الآن فوسائل جذب الطلبة بعيداً عن القراءة والدروس كثيرة جداً ، وأسأل الله تعالى أن يعين أبناءنا على تحقيق ما يصبون إليه من حياة كريمة ويعين القائمين على شؤون التعليم على إيصال الأولاد إلى غاياتهم .

أعود إلى الأسابيع الأولى لبدء الدراسة في الجامعة ، فسرعان ما درجت مع الدارسين واتبعت وزملائي من المملكة الطريقة التي شرحتها ، والتي مكنتنا إلى حد ما من السير مع المدرس فيما يليق به علينا ، أو في بعض ما يليق به علينا ، دون أن ندعم ذلك بمراجع أو قراءات إضافية . كان كل واحد منا يحاول أن يرقى بمستوى تحصيله بالطريقة المتاحة له ، ولم تكن هناك طرق

كثيرة متاحة، فنحن كما ذكرت لم نعتد ارتياد المكتبة، وهو السبيل الأمثل لرفع المستوى الدراسي إلى الحد اللائق بطالب الجامعة. كانت الطريقة الأخرى والبديلة هي أن نلجأ إلى الطلبة الأذكياء الذين نظن أنهم متمكنون من المادة فنستعير مذكراتهم لنقل ما قد نكون قد عجزنا عن استيعابه أثناء المحاضرة. وهذه كما يعرف الجميع وسيلة قديمة جديدة يلجأ إليها التلاميذ في كل السنين والمراحل الدراسية. في الجامعة طبعاً يلجأ إليها الطلبة أيضاً لغرض ثان هو التعرف إلى الفتيات. .! فمسألة استعارة كراسة المحاضرات شيء بادي البراءة وسلاح سهل الاستعمال. . الملاحظ فقط أن استعارة المذكرات لم يكن يلتمسها الطالب في الغالب إلا لدى الفتيات الجميلات. .! ولعل محاسن المصادفات هي التي جعلت كل الفتيات الجميلات على جانب كبير من الذكاء وسعة الاطلاع، فما كان الطالب ملوماً والحالة هذه إذا لجأ إليهن في طلب المساعدة!! .

كانت البيئة المحافظة التي نشأنا فيها لا تسمح لنا بالاختلاط بالنساء. وكنا شديدي الخجل والخوف أيضاً من الاقتراب من أي أنثى. فكانت إذن الوسيلة الوحيدة لتبادل كلمات قليلة مع فتاة معينة هي طلب دفتر محاضراتها للاطلاع على آخر محاضرة لم نحضرها لسبب ما. لم يكن ادعاء عدم حضور المحاضرة دائماً صحيحاً مائة في المائة، إذ إن كل ما كان الطالب يحرص عليه هو أن يكون بعيداً عن عين الفتاة التي خطط لاستعارة كراستها لتلك المحاضرة؛ وفي معظم الحالات كانت جرأة الطالب تقف عند حدٍّ معين لا تتعداه هو طلب دفتر المذكرات وتبقى الحال هكذا إلى أن يفترقا عند التخرج.

روى لي أحد الأصدقاء تفاصيل أسلوب شبيه بهذا التكتيك كان يستخدمه مع الفتيات فقال : " عندما كنت في الجامعة كنت مثل غيري من الطلبة أنظر من بعيد إلى الطالبات متخيلاً أنني سأتزوج واحدة منهن هي التي يختارها قلبي . . . وفعلاً بعد مضي عدة أشهر من السنة الأولى وجدت ضالتي ، وكانت فتاة تهيأ لها كل ما كنت أحلم أن أجده في المرأة من رقة وجمال . والذي يبدو أن كل واحد منا كان دون أن يشعر يرسم في خياله صورة لامرأة معينة ثم يبدأ - دون وعي - بالبحث عنها . هكذا وجدت ضالتي في تلك الفتاة التي كان يميزها عن غيرها قوام ممشوق تام التناسق بين جميع أجزائه ، لا يكاد الناظر إليها للمرة الأولى يراها حتى تشده ملامحها المصرية الصميمة السمراء وجاذبيتها الطاغية التي تشع منها فتتغلغل في تجاويف القلوب . . . كان جمالها فرعونياً أصيلاً مع رقة وعذوبة وله من السطوة ما يدير رؤوس الرجال ، وصوتها عندما تتكلم أحلى من أعذب نغم موسيقي . كانت حركاتها متأنية هادئة ، فهي لم تكن كباقي الفتيات كثيرة الحركة والكلام لتجذب إليها الانتباه ؛ بل كانت إذا تحدثت مع صديقاتها لا تتحدث إلا بصوت هامس رقيق . وكان لصوتها هذا عذوبة تنساب بيسر شديد إلى أعماق القلب فترسل في أوتاره ذبذبات مملوءة حباً ورغبة في وضع صاحبه في سويداء ذلك القلب " .

يسترسل صديقي فيقول : " ومن أول نظرة همت بها وقررت أنها هي فتاة أحلامي كما يقولون في الروايات . . . أخذت أتابعها بنظراتي حيثما توجهت ، أو جلست في الفصل ، أو في أي مكان آخر في حرم الجامعة أكون موجوداً فيه . . . كان هدوءها وأرستقراطيتها يقفان حائلاً أمام محاولاتي الساذجة للاقتراب منها . . . كما أنها كانت لا تتواجد بمفردها أبداً

فهي دائماً محاطة بمجموعة من صاحباتها . . اكتفيت بالنظرات لبضعة أسابيع ، وأخيراً تجرأت ولجأت إلى الطريقة التقليدية وهي طلب دفتر المحاضرات بدعوى أنني لم أحضر المحاضرة الأخيرة . كانت الفتاة كريمة معي فأعطتني دفتر المحاضرات مع تأكيد منها بأنني أستطيع أن أستعير الدفتر كلما كنت مضطراً لذلك .

"أسعدتني المبادرة ، وحاولت أن أضيف شيئاً آخر إلى طلب المحاضرة ، إلا أن حلقي جف فجأة فلم أستطع ، علاوة على أنه لم يكن لدي شيء أقوله فأسرعت بالابتعاد ! . وتكررت مرات الاستعارة ، وتكررت معها المرات التي حاولت فيها أن أقول شيئاً آخر ، إلا أن المحاولات كلها باءت بالفشل . كنت في كل مرة أتسمر أمامها كالأبله ، وكانت الثواني تمر فأحس بها كأنها دهر كامل لعدم قدرتي على الخروج عن موضوع الاستعارة هذا إلى غيره من الموضوعات ! . . كنت دائماً أنتهي بمسح حبيبات العرق المتصبب على جيني وأنا أقدح زناد فكري بحثاً عن أقذع الشتائم لكي أكيلها لنفسني على ذلك الفشل المتكرر " .

ويسرع صديقي فيقسم بأنه كان يحمل في طيات نفسه أشرف المقاصد والأهداف ، فقد وُطن نفسه على أن هذه بإذن الله ستكون زوجته في المستقبل ، ويضيف : " فكرت مرات عديدة أن أرسل في طلب بعض أفراد عائلتي لخطبة الفتاة ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأنا لم أكاشفها بالأمر ، ولم أستأذن لزيارة والدها أو أحد من أهلها كما هو متعارف عليه في مثل هذه الحالات . . ومضت السنة الأولى والسنة الثانية والسنة الثالثة والسنة الرابعة والحال كما هو عليه ! . . وانتهت الدراسة -يقول الصديق- ولم أفلح

ولو مرة واحدة في أن أجس نبض الفتاة ولو بإشارة لمعرفة ما إذا كانت تشعر نحوي بأي شيء وأنا الذي أمضى أربع سنين أتلظى بنار حبها من جانب واحد .

ويتابع صديقي سرد قصته التي أحرص على نقلها بحذافيرها لما انطوت عليه من طرافة: " انتهت سني الجامعة، وتخرجت وخضت مجال العمل بحلوه ومره، ونسيت موضوع الفتاة، وتزوجت ورزقت أولاداً والحمد لله وكبر الأولاد وشيبت أنا .

" وفي مرة وكان ذلك منذ وقت ليس ببعيد وجدت نفسي وحيداً في القاهرة في رحلة عمل . وعندما انتهيت من مهمتي التي جئت من أجلها وجدت نفسي وحيداً في الفندق، ولم يكن لدي ما أعمله، فأمسكت بالتليفون وطلبت من عامل التليفون أن يجد لي السيدة (. . . .) وأعطيته اسم الفتاة التي عرفتها منذ سنين عديدة . لم تمض إلا دقيقة أو نحوها حتى طلبني العامل ليقول إن السيدة على الخط! . . يا للعجب . . هل هذا معقول؟ . أمسكت بالسמاعة وتكلمت، وردت المرأة وبعد تبادل بضع كلمات وجدت أن محدثي هي حقاً نفسها الفتاة التي همت بها في تلك الأيام البعيدة، والتي لم أجروء أبداً أن أخرج معها عن نطاق طلب دفتر المحاضرات!! . .

" واتفقنا على الهاتف أن نلتقي . . ذهبت إلى منزلها في الموعد المحدد للقاء فاستقبلني زوجها وأولادها وعائلتها بالترحاب . جلست بينهم وتحدثنا وأخبرتهم أنني كنت يوماً ما زميلاً للسيدة بالجامعة، وأنني الآن في القاهرة في زيارة سريعة، كنت سعيداً بهذا اللقاء الذي رتبته المصادفة البحتة . .

وإنها لمصادفة عجيبة حقاً فقد كانت هذه السيدة وزوجها ، كما علمت منها خلال اللقاء ، يقيمان في أمريكا ، وكانا في ذلك الوقت في زيارة لبلدهما ، ثم إن الشقة التي زرتهم فيها كانت ما تزال باسم الزوجة لأنها جديدة ولم تسجل باسم الزوج بعد ، وكذلك التليفون كان أيضاً باسمها وكانت الحرارة قد وصلت إليه في اليوم نفسه الذي طلبتها فيه ! .

" شيء واحد أحزنني - يضيف الصديق منهيّاً حكايته - هو أن السيدة لم تذكرني على الإطلاق ! . . طبعاً أسفت أشد الأسف على المرات العديدة التي طلبت دفتر محاضراتها دون أن أكون بحاجة حقيقية إلى الكلام الفاضي المحشوبه . . شيء آخر حيرني أيضاً هو أنني فشلت كلية في أن أقنع نفسي بأن هذه السيدة الوقور الممتلئة ذات الشعر الذي أصبح فضياً هي نفسها تلك الفتاة الرقيقة الناعمة ذات الصوت الهادئ الموسيقي والقدر الشيق . . وإلى هذه الساعة ما زلت أعتقد بأن الناس الذين زرتهم قد أخفوا عني فتاتي التي عرفتها وقدموا لي والدتها ! " .

لو حاول شخص ، أي شخص ما أن يتحرى عما صنع الزمان بالفتاة التي كان ذات يوم يهيم بها ، أو يخيل إليه أنه كان يهيم بها ، أو لو تتبع مصيرها لما وجد شيئاً مختلفاً مثيراً عما وجدته صديقي ؛ فالبنات اللاتي كن شابات يانعات يمتلئن حيوية ونشاطاً وشقاوة قبل أكثر من ثلاثين سنة أصبحن أمهات بل جدات يغلب عليهن الوقار وتكسو وجوههن تجاعيد الزمن الذي لا يرحم . وتلك سنة الله في خلقه .

كان كل همي في السنة الأولى - قسم اللغة الإنجليزية - أن أنجح في نهاية

العام وانتقل إلى السنة الثانية . كان انتقالي من السنة الأولى إلى الثانية -كما تخيلت- هو الحد الفصل بين قدرتي أو عدمها على دراسة اللغة الإنجليزية . وبشيء من المجهود وقبل ذلك بفضل الله تعالى جاءت النتيجة وكنت من الناجحين . لم أعرف النتيجة فور انتهاء الامتحان ، ولم أنتظر حتى تظهر النتائج ؛ بل حجزت لي مقعداً على أول طائرة متجهة إلى سوريا . وكان ذلك سبباً في معاناة قاسية منها فيما بعد كما سأوضح . رجوت زميلاً مصرياً لي أن يبلغني بالنتيجة حالما تظهر . لم أسافر إلى المدينة رأساً كما ذكرت بل توجهت إلى سوريا أولاً . وحين عدت إلى المدينة وجدت رسالة زميلي تنتظرنني . فضضت الرسالة بيد مرتعشة قليلاً وفوجئت بأن الأخ يخبرني بأنني لم أنجح ؛ بل رسبت في جميع المواد! . . ولكي يخفف الأخ عليّ وقع الصدمة راح في نهاية الخطاب يذكرني بفضائل الصبر على المصائب ، وأن الرجال الشجعان هم الذين لا ينهارون من أول صدمة . كما نصحني في النهاية بأن أختار شيئاً آخر غير اللغة الإنجليزية لأنني لم أخلق لها! . . . كانت الصدمة قاسية للغاية بطبيعة الحال ، فحزنت وخاب أمني في نفسي . ولكن كان من حسن الحظ أن الإجازة الدراسية الصيفية كانت على وشك الانتهاء فأسرعت عائداً إلى القاهرة لأجد أنني نجحت في جميع المواد ونقلت إلى السنة الثانية . وعندما واجهت الزميل الذي كتب لي الخطاب المفجع أجاب أنه هو أيضاً لم يكن في القاهرة عند ظهور النتائج ، بل سافر إلى بلده في الريف ، وأنه توقع أنني لن أفلح في دراسة الإنجليزية ، وعليه بنى تقديره بأنني لا بد أن أكون قد رسبت في جميع المواد! .

obeikandi.com

نبح الحنين لا يجف: عودة إلى القريتين

لم تخفف أيام المدينة أو مكة وبعدها مصر من حدة شوقي لزيارة سوريا وخاصة القريتين؛ ولهذا فلم تكد الفرصة تسنح لي بعد أن سافرت إلى القاهرة حتى اغتتمتها، وسافرت في أول إجازة دراسية إلى دمشق. كان ذلك في الحقيقة بعد نهاية السنة الدراسية الأولى إذ بدلاً من أن أرجع إلى المدينة المنورة رأساً اخترت السفر إلى دمشق ومنها إلى القريتين على أن أسافر طبعاً إلى المدينة فيما بعد كما سبق أن ذكرت. ومما حبب إليّ السفر إلى سوريا أولاً أنني كنتُ أمني نفسي بزيارة مرابع الطفولة والصبا في القريتين والاجتماع إلى أصدقائي وأقربائي لأول مرة بعد مرور حوالي سبع سنوات. وكنت كذلك أتطلع إلى رؤية دمشق تلك المدينة الكبيرة الجميلة التي كانت ولا شك تعج بالكثير مما يجذب شاباً قادماً من المدينة المنورة؛ فهي بشوارعها الفسيحة وحراراتها القديمة الأثرية وميادينها وغطتها الشهيرة ونهر بردى الرقاق ومصايف الزبداني الرائعة، كل ذلك كان له في نفس شاب قادم من الصحراء جاذبية لا تقاوم.

وعلى هذه فلم يكد العام الدراسي ينتهي حتى شددت الرحال إلى دمشق. كان الشيخ عبدالله العتيبي رحمه الله وهو زوج خالتي ووالد الأستاذ محمد العتيبي السفير السابق للمملكة بدولة الإمارات، يقيم في ذلك الوقت مع عائلته في سوريا. استقبلني محمد في مطار دمشق، وأخذني إلى بيتهم في حي الميدان العريق. كانت دمشق في ذلك الوقت

قطعاً أجمل مما هي عليه الآن . وللأسف لا أعلم السبب الذي جعل بعض العواصم العربية تفقد كثيراً من رونقها ونظامها في ظل التوسع العمراني العشوائي الذي أدى إلى زوال الكثير مما كان يميز تلك العواصم . كانت دمشق في تلك الأيام مثل القاهرة عاصمة نظيفة تزين شوارعها الأشجار الباسقة المنسقة ، وتقوم على جوانب تلك الشوارع بيوت غلب عليها اللون الأبيض الناصع وسط حدائق خلابة ضمت الأشجار بأنواعها إلى جانب الزهور المتقنة التنسيق ، حتى بيوت دمشق التقليدية القديمة كانت مثلاً للجمال الهندسي ورقي ذوق أصحابها . والبيت الدمشقي القديم يحتوي على ما يسمى " صحن الدار " وهذا أشبه ما يكون بحديقة البيوت الحديثة وكانت تتوسط الصحن في الغالب بركة ماء صغيرة لها نافورة ، وتصطف حجرات البيت المختلفة على جوانبه . كانت أغلب البيوت من هذا النوع وهي تتكون من طابق واحد ، وإذا كانت هناك غرف أخرى في مستوى أعلى فهي في الغالب تخصص لتخزين المؤونة واحتياجات القاطنين .

استقبلني الأخ محمد في المطار . كان كل شيء يدل على أنها ستكون رحلة ممتعة ، وقد كانت بالفعل كذلك . ما إن وصلنا إلى بيت العتيبي في الميدان حتى بدأنا نستعد للقيام بجولات في المدينة التاريخية العريقة . أهم ما يميز دمشق هو مسجد الأموي الشهير الذي بناه الخليفة عبد الملك بن مروان . لم يفتنا أن نزور المسجد الشهير وهو يقع في نهاية سوق الحميدية ، ذلك السوق المسقوف الذي لا تكتمل زيارة الزائر لدمشق ما لم يقطعه جيئة وذهاباً مرات عديدة ، فهو سوق شعبي وحديث في نفس الوقت ويجد الزائر فيه كل ما يشتهي من ملابس ومفروشات وأشياء قديمة وأخرى حديثة ومقاهٍ

ومطاعم . باختصار هو عالم متكامل قائم بذاته .

أما مصايف دمشق فقد طبقت شهرتها الآفاق ، وهي بجمال طبيعتها الساحرة وهوائها العليل ومياهها العذبة الباردة المناسبة في جداول وأنهار عديدة أشهر من أن أتكلم عنها الآن . ويكفي أن أذكر أن أصحاب المطاعم «الكازينوهات» المنتشرة على طول نهر بردى تجاه منبعه الذي يبدأ من جبال الشيخ ويخترق معظم المصايف القريبة من دمشق ، أصحاب المطاعم والمقاهي أولئك لا يحتاجون إلى ثلاث لاجات لكي يبردوا مشروباتهم إذ يكفي أن تضع القارورة مثلاً في مجرى النهر لبضع دقائق ليصبح السائل داخلها بارداً جاهزاً للشرب . . ! مصايف الزبداني هذه توحى للمصطافين دون شك بأشياء كثيرة . ولك أن تتخيل نفسك شاباً في مقتبل العمر ، وقد جلست عند الأصيل في واحد من تلك المصايف التي يشرف معظمها على نهر بردى ، بينما هبت أنسام خفيفة عليلة أنعشت المكان ومرتاديه ، وطفقت الشمس إلى المغيب ، لتبدأ العصافير تتراكم نحو وكناتها ، وقد علت سقسقتها استعداداً للمبيت . إنك لتجلس متشياً مفتوناً بذلك الجو الحالم الرومانسي الذي يزيد من روعته منظر الشابات ذوات القدود المياسة وهن رائحات غاديات في الشارع الرئيسي الذي غالباً ما يكون هو الوحيد في المصيف . ماذا سيكون شعورك وأنت تشاهد كل هذا وتقع تحت تأثير ذلك كله ، خاصة وأن نساء سوريا يتمتعن بنصيب من الجمال أكبر من غيرهن . ؟ الجواب أن الشاب يقع في الحب مرات ومرات في عصر يوم واحد ، وكلها من النظرة الأولى . وكم هي كثيرة النظرات الأولى بعد عصر أيام صيف الزبداني . . !! ومن يستطيع مقاومة كل ذلك الجمال والسحر

يكن صدره قد خلا من قلب يحس . . !! ولأنني كنت عندئذ شاباً له قلب يحس وينبض أيضاً فقد كانت سهام «كيوبيد» لا تخطئ هدفها كل ما وقع نظري على مجموعة من تلکم الحسناوات وهن يخرن متضاحكات مزهوات ويرقبن بنظرات خفية ما يفعله سحرهن في الرجال الذين تخفق قلوبهم ، كما يخفق قلبي بل تكاد تقفز من صدورهم مندفة نحو مواكب الحسناوات لعلها تحظى ولو بالنصف المسموح به في القول الدمشقي الحكيم : "شم ولا تذوق" .

على أي حال كان الهدف الأكثر أهمية في زيارتي لسوريا هو العودة إلى القريتين . كانت السنوات التي غبتها عن تلك القرية الهادئة التي تقع على أطراف بادية الشام هي المرحلة التي ينتقل بها المرء من الصبا إلى الشباب . عندما غادرت القريتين كنت مجرد صبي قصير القامة هزيل الجسم أرتدي ثوباً ممزقاً . والآن وبعد ذلك العدد من السنين عدت وأنا شاب طويل إلى حد ما وأنيق بالملابس الأوروبية الحديثة التي أرتديها وقد بدت على وجهي آثار النعمة والعيش الرغيد ! . ولقد حرصت في تلك الزيارة الأولى على أن أرتدي أحسن حلة لدي وكانت - يعلم الله - بدلة متواضعة بأي مقياس من المقاييس . كان ذلك في عام ١٩٥٥م وقد فصلت البدلة المذكورة عند خياط كان هو الأرخص من غيره ، وكان دكانه في باب اللوق بالقاهرة ! كنت أراها أجمل مما يمكن أن يبدعه مصمموا الأزياء الباريسيون .

وصلت إلى القريتين مع الأخ محمد العتيبي وبعض أفراد عائلته . لم يصدق الناس الذين غادرتهم منذ سبع سنوات أن هذا هو منصور . كانت

الدهشة تبدو حقيقة في وجوههم ، وعلى كل حال فالمعروف أنه إذا غاب شخص خاصة في سنين النمو بضع سنين وظهر فجأة فإن التغير الذي يكون قد طرأ عليه سيفاجئ من غاب عنهم وكأنهم كانوا يتوقعون أن يروه باقياً على حاله حتى بعد غياب كل تلك السنين . كنت أمشي وأشعر حسب التعبير الإنجليزي أن طولي عشرة أقدام ! وهذا ليس غريباً جداً ، وليس أيضاً من باب المجاز كلية إذ كما ذكرت في مكان آخر بدت لي حيطان البيوت أقصر مما كانت عليه عندما تركتها آخر مرة اللهم إلا إذا كنت أنا قد أصبحت طويلاً جداً في الفترة نفسها . ! وأدرك أن من يعرفونني لا يرون الرأي الثاني .

كانت تلك العودة الأولى إلى القريتين ممتعة جداً ومرهقة جداً . القرويون أناس كرماء بطبعهم ولا ينسون علاقاتهم القديمة وصادقاتهم ؛ ولهذا فما إن رأوني حتى تعلقوا بي كأنني لم أغادرهم أبداً ، أو ربما لأنني غادرت بلدتهم طوال تلك المدة ، وهم لا يتقيدون بمواعيد أو أوقات معينة لزياراتهم ، فكل ساعات النهار مناسبة . . يأتون وقت الغداء ووقت العشاء وفي الصباح والضحى وقبل الظهر وبعد الظهر . . في كل الأوقات . هذه عادات كنت قد بدأت أنساها فإذا بي أعيشها من جديد . أولئك الناس يتمتعون بطيبة وعفوية أرجو ألا يفقدوها ، وأرجو أيضاً أن تبقى حياتهم كما هي دون أن يقيدوا أنفسهم بقوانين وقيود غريبة عليهم . وهم ولا شك يفعلون ما يفعلون دون أن يخطر ببالهم أن سلوكهم قد يكون جديداً أو غريباً أو مزعجاً لضيوفهم ، وقد لا يخطر ببالهم أن الضيف ربما يود أن يترك لنفسه بعض الوقت ، أو أنه لا يستطيع أن يلبي كل دعواتهم . والواقع أنني لم أقابل أناساً بمثل كرم أهل القريتين ؛ إذا أصر أحدهم على دعوتك فلا تظن

أنه يمكنك الاعتذار، فهو لا يتردد أن يقسم بأغلظ الأيمان ومن بينها الطلاق من زوجته إلا إذا دخلت منزله وأكلت وليمته، وعندها لا يبقى لك خيار إلا أن تلبى الدعوة؛ لأنك لا تعرف إن كان الرجل قد وجدها فرصة ليتخلص من زوجته!.

ولكن إذا عدنا للجد فأولئك الناس فعلاً قوم كرماء. كان عليّ أن أتغدى في منزل وأتعشى في ثان وأفطر في بيت ثالث!.. كانت سعادتي كبيرة في القريتين وقد رحت أجوب شوارعها وحاراتها وأتذكر الماضي.. ولكن أكثر ما كان يزعجني أحياناً ويخرجني هو الجملة التي كان يبدوني بها كثير من الذين يقابلوني للمرة الأولى.. فما إن أصادف أحدهم حتى يسألني إن كنت قد عرفته. ولأنني أصلاً أضعف إنسان في تذكر الأسماء أو معرفة الوجوه، حتى أولئك الذين أكون قد رأيتهم منذ يومين، فلم أكن أتذكر أياً من أولئك الذين يختبرون فراستي. وكان العتب أحياناً والضحك أحياناً أخرى. تغير الحال بعض الشيء عندما أصبح يلزمني طوال الوقت بعض الشباب من أصدقائي الذين كنت على صلة قريبة منهم، وكانوا يسرعون بالهمس في أذني بأسماء الأشخاص الذين يقبلون للسلام عليّ. بعدها أصبحت أسارع للترحيب بهم وأدعوهم بأسمائهم مع أنني لم أكن أعرفهم حتى عندما كنت في القريتين. كان الذين يرافقوني يفسرون ذلك بأن ذاكرتي بدأت تعود شيئاً فشيئاً. قضيت أياماً حلوة في القرية التي كنت غادرتها منذ بضع سنين؛ وما أجمل أن يشعر الإنسان أنه محل رعاية واهتمام. إنه شعور يجلب الرضا للنفس، ويجعلها بدورها تشع حباً على كل من حولها.

لم أنس طبعاً بعد أن قمت بالسلام على الأحياء من الأقارب والأصدقاء أن أقوم بواجب الزيارة والسلام على أبي وأختي اللذين غيبهما الموت قبل أن نغادر القريتين . لا أتذكر الشيء الكثير عن الوالد رحمه الله فهو قد مات كما ذكرت وأنا ما زلت طفلاً لم أتجاوز السابعة من عمري ، ولكن وقوفي على قبر فاطمة نكأ الجراح من جديد . ها أنا ذا أقف بجانب قبرها لا يفصلني عنها إلا عمق متر من التراب ، ولكن يا لها من مسافة لا نهائية . تلك الفتاة النضرة الخجول التي غيبها الموت قبل أن تصل إلى عنفوان شبابها .

تلك كانت إرادة الله . حاولت أن أتذكر ملامحها جيداً ، ومكثت أركز نظري على التراب الذي ووريت تحته فلم أنجح إلا في استعادة بعض الذكريات الخاطفة منها ذكرى الأيام التي كنت أتوجه فيها معها ومع أختي الصغيرتين إلى الكرم نركض فرحين جذلين فتحاول هي أن تمثل دور الكبير الذي يُعنى بالصغار فتصيح منبهة بأن نمشي الهوينا حتى لا نتعر بالحصاة الكثيرة التي تملأ الطرقات .

وكما يموت الناس تموت أيضاً الأشجار والينابيع والبرك . كانت القريتين عندما غادرناهما تبدو ملفوفة بعباءة من البساتين والحدائق الوارفة التي ترتفع فوق أديمها أشجار ونباتات من أنواع شتى ، وتتدفق في أرجائها أنهار وجداول رقراق طاب مأوها حتى كأنه الشهد . كانت فترة العصر وما قبل المغيب من أجمل الأوقات عندما يهب النسيم العليل فتستجيب لأنغامه أغصان الحور والصفصاف فتميل وتنثني بغنج ودلال بينما زقزقة الطيور قد ملأت الكون ألحاناً عذاباً . تلك كانت سيمفونية لا يمكن لمن سمعها أن ينساها .

كنت في صغري أمر ببعض الأزقة المتعرجة التي تفصل البساتين بعضها عن بعض، وكم كان يعجبني ويبهمني منظر أشجار المشمش والتوت والتفاح وقد تشابكت أغصانها تحتضن بعضها البعض مكونة مظلة عملاقة خضراء تمتد بطول الشوارع الضيقة التي تفصل بين البساتين، بينما يجري وسط الزقاق جدول يتعرج مع تعرج الطريق وتندفع موجاته الصغيرة بصخب فوق الصخيرات والحجارة التي تملأ مجراه. وكم كان حزني عميقاً عندما عدت إلى القريتين بعد سنين من مغادرتها لأجد أن يد الزمان القلب قد أسدلت على مناظرها الخلابه ستار الضياع. وصفت لمن معي مكاناً كان مألوفاً لدي في الماضي مبدئياً الرغبة في الشخصوص إليه لأرى ماذا صنع به الدهر. أخذني المرافقون إلى المكان، ولما وصلنا إليه ظننت أنهم أخطؤوا الموقع، ولكنهم أكدوا أنه المكان الذي عنيت، لأنهم يعرفونه جيداً. قلت حسناً خذوني إلى مكان آخر سميتهم فأخذوني إليه، ثم أخذوني، بناء على طلبي إلى مكان ثالث. لم أصدق عيني. أهذا كل ما بقي من الخُصرة اليانعة والأشجار والماء الجاري والعيون؟ أين ذهب ذلك كله؟ كانت هناك أرض بيضاء جرداء لم أرَ فيها عوداً أخضر واحداً!.. أين ذهب الأشجار المتعانقة؟! وأين ذهب الجدول الذي كان يندفع بعنف متحدياً الحجارة والصخور التي تعترض طريقه؟! أين راحت تلك السيدة التي كنت أراها دائماً تجلس على باب حديقته الغناء المطلة على الزقاق الضيق المتعرج الذي تظله آلاف الأغصان المتشابكة فتمنع أشعة الشمس من أن تتسلل إلى الأرض؟ أين اختفى ذلك كله؟ وأي يد جبارة مسحت كل ذلك الجمال وتلك الطبيعة الفاتنة؟ من هو ذلك المارد الذي مسح بيده العملاقة نضرة

الحياة هنا فأماتها، وكيف لم يتصد له أحد؟ أسئلة لم أجد لها جواباً. وقفت مع من رافقوني وسط أرض جرداء خلت من كل أثر للخضرة، وكانت الريح تهب مثيرة بعض الأتربة التي كانت تلتف حولنا وكأنها تهزأ بنا. لم أسأل عن السبب الذي أدى إلى تلك الكارثة، ولكنني أدركته بسرعة عندما تذكرت أنني ما اجتمعت إلى أحد من الآباء أو الأمهات في رحلتي تلك والرحلات السابقة إلا وطلب مني أن أجد لابنه أو ابنها عملاً في بلادنا.

جميل أن يسعى الناس ويعملوا ولكن ما ليس بالجميل أن يهجروا الأرض التي عاشوا من خيراتها منذ أن خطا الإنسان أول خطوة نحو الحضارة. قامت حضارات العالم القديمة كلها على ضفاف الأنهار وكان عصبها الزراعة. ولكن مع دخول العالم في عصر الاختراعات والتقنية بدأ بعض الناس يهجرون قراهم وأريافهم ويفدون إلى المدن بحثاً عن أعمال سهلة تريحهم من عناء الفلاحة والزراعة التي تتطلب جهوداً تصدى لها أسلافهم بصبر وشجاعة على مدى قرون عديدة. وكنتيجة حتمية للتكرار لثاني أقدم مهنة في تاريخ البشرية (الصيد كان المهنة الأولى) هزلت الأرض، وذبلت خضرتها، ونضب ماؤها، وقل ثمرها، فبكت، وما تزال تبكي، على مجد راح وعز لم يدم. مما ساعد على وقوع المأساة أيضاً أن كثيراً من الأنهار والجداول والعيون والآبار قل ماؤها أو جف تماماً نتيجة للجفاف العام الذي لحق بكثير من بلدان العالم. إلا أن ذلك لا يبرر هجر الشباب للزراعة وإهمالهم العناية بالأرض واتجاههم بدلاً من ذلك إلى الأعمال الوظيفية التي قد لا تؤمن لهم ولعائلاتهم سوى حياة الكفاف.

هذه ولا شك موضوعات بحثها المختصون في شؤون التنمية في البلاد المختلفة، وإنما أتيتُ على ذكرها بمناسبة الحديث عن الصدمة التي أصابني عندما شاهدت بعد سنين ما أصاب ريف القريتين من جفاف نتيجة لهجره وإهماله مع ما صاحب ذلك من نزوب مصادر مياهه .

ذكرت أنني بعد زيارة سوريا في نهاية السنة الأولى بجامعة القاهرة عدت إلى المدينة المنورة . ما إن صعدت إلى الطائرة التي أقلتني من دمشق إلى المدينة حتى بدأت أسأل نفسي كيف سرت وراء هوى ورغبة طارئة في أن أتوجه إلى سوريا قبل أن أعود إلى أمي بالمدينة وأرتقي في أحضانها . ما أزال إلى هذا اليوم وأقولها صادقاً أشعر بغصة تجثم على قلبي كلما تذكرت تلك الزلة . لا يوجد أحد أو شيء في حياة المرء أغلى وأعز وأعظم من الأم ؛ ومهما أبدع الكاتب أو تغنى المغني في تمجيد فضل الأم وعظمتها فإن ذلك لن يوفيها ولو جزءاً يسيراً مما هو حق لها . وقد أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن فضل الأم ومكانتها، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تفضل بثلاث مرات الإنسان الثاني في حياة الأبناء وهو الأب . لا شيء في الدنيا يعادل لدي لحظة وضع رأسي على صدرها عندما أكون قادماً من سفر ، ولا يوجد هناك موسيقى أجمل وأعذب من كلمات ترحيبها بي . وعندي أن من لم يكن هذا شعوره وإحساسه نحو أمه فهو شقي في دنياه ، أما آخرته فهي بيد الله تعالى .

عندما وصلت إلى المدينة أسرع إلى البيت ، وقبل أن أدخل المنزل الصغير بالمحمودية كنت أسمع صوتها الفرح يردد كلمات الترحيب المميزة

لها: " حيو . . حيو . . حيو . . " قالتها عشرات المرات بلهجتها السورية الريفية وقد اختلطت ضحكاتها مع دموعها . وبعد أن أمطرتني بعشرات القبل وضعت رأسي على صدرها وكأنها تريد أن تحتويني في طيات قلبها . كانت تلك لحظة مسحت فراق السنة كلها ؛ وهناك على صدر أمي الحنون بكيت من عذوبة اللقاء ، وأحسست أنني أحلق في سماء من السعادة الغامرة والطمأنينة الكاملة التي لا يتوفر مثلها إلا لأم وابنها جمعهما اللقاء بعد الغياب . الحب الذي زرعه الله تعالى في قلب الأم نحو وليدها لا يمكن أن يقارن بأي حب آخر من أي كان لأي كان . والأمثلة كثيرة وما علينا إلا أن نشاهد حتى الأمهات من الحيوانات وهي تدافع عن أبنائها حتى لو أدى ذلك إلى هلاكها . وللأسف الشديد فإن تلك العلاقة الطاهرة الصافية تجدد من يدنسها ويتنكر لها من بعض بني البشر . وكم تقشعر الأبدان عندما نسمع أو نقرأ عن إنسان تخلى عن صفاته الإنسانية - لا نقول أصبح حيواناً لأن الحيوان لا يتنكر لأمه - وأهان أو حتى اعتدى على أمه ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر : أحدهما أو كليهما ، فلم يدخل الجنة " . ونحن كمسلمين والحمد لله عندنا من ديننا الحنيف ما يحثنا على أن نخفض لأبويننا جناح الذل من الرحمة ، وأن ندعو لهما بالرحمة كما ربيانا صغارا . ولا نحتاج إلى إرشاد أو توجيه من أناس آخرين وحضارات أخرى لكي نجزي آباءنا بما هو حق لهم من حب وتوقير وطاعة .

ولا أجد سخافة أكبر من سخافة بدعة عيد الأم التي تلقفناها من الغرب ، وصار بعض المسلمين يحتفلون بها كل عام . لقد نسي أولئك

الناس أن السعيد من امتدت الحياة بأمه وأبيه فحوّل كل يوم في حياته وحياتهما إلى مناسبة سعيدة يؤدي فيها ما لهما عليه من واجب البر والطاعة والعناية والخضوع والحب والرأفة وكل ما في قاموس اللغة من كلمات بهذا المعنى . توفيت أمي رحمها الله في عام ١٩٧١م في المدينة المنورة . جاءني الخبر وكنت يومها في جدة في عملي بالديوان الملكي . كانت الوالدة قد تعرضت لجلطة عانت منها سنة كاملة قبل أن تلاقي وجه ربها . أسرع مع زوجتي وأبنائي بسيارتي إلى المدينة في محاولة مني لألقي عليها نظرة الوداع الأخيرة قبل أن توارى في مثاها الأخير . وصلت بعد ساعة واحدة فقط من دفنها ببقيع الغرق؛ فذهبت من فوري إلى هناك وذرفت دموعاً ساخنة على قبرها . رحمها الله وأسكنها فسيح جناته .

يقال أحياناً إن الرجل ما هو إلا طفل كبير ، وأنا أقول إن هذا صحيح ولو بغير المعنى الذي تعارف عليه الناس ، كما أزيد أنه حسب تفسيري للقول السابق فإن المرأة هي أيضاً طفلة كبيرة . المعنى الذي أقصده هو أن كل إنسان يحتاج إلى أم مهما كبر سنه ، وأن كل إنسان يفقد أمه عندما تموت مهما كان عمره ؛ وهذا ينطبق طبعاً على الرجل والمرأة . فمهما تقدم بنا العمر فإننا نبقى أطفالاً لأمهاتنا ، وعندما نفقد ذلك النبع الهائل من الحنان نصبح أيتاماً حتى ولو كنا كباراً في السن ، ونبدأ البحث عن أم بديلة . عندما ماتت أمي أصبحت أختي الكبيرة هي أمي ؛ صارت هي نبع الحنان وهي الصدر الذي أستريح عليه عندما تتكالب عليّ صروف الدهر ومصاعب الحياة . وأحمد الله كثيراً أن أختي قامت بدور الأم بكل جدارة واستحقاق ليس فقط لي بل لأخواتي أيضاً ، ولأبنائنا كلهم . لم يقدر لها الله أن تتزوج وترزق بأولاد ،

ولكننا نحن جميعاً أبناءها، وهي خير أم لنا وندعو الله تعالى أن يطيل في عمرها. ودعوتي هذه لها تذكروني بقصة طريفة سمعتها منها منذ فترة قصيرة. قالت: إنها وهي طفلة رضيعة مرضت مرضاً شديداً، وكان ذلك في سوريا طبعاً وفي القريتين نفسها. ساءت حالتها لدرجة أن والدي وأمي رحمهما الله بدأا يتوقعان حلول قضاء الله في ابنتهما في أي لحظة. في تلك الأثناء صدر الأمر للوالد بأن يسافر في واحدة من المهام التي كان يكلف بها عندما كان هجاناً. حاول أن يقنع رئيسه بتأجيل سفره كي يتولى القيام بما يجب نحو ابنته عندما يحل بها القضاء لكن دون جدوى، فما كان من الوالد إلا أن ذهب إلى دكان في السوق واشترى مترين من القماش الخام الذي يستعمل في تكفين الأموات، وأعطاه لصديق له طالباً منه أن يجهز ابنته ويكفنها عند وفاتها؛ لأنه لن يكون موجوداً في القرية في ذلك الوقت. أنا وأخي وأختاي الأخريان وأولادنا نحمد الله تعالى أن أبقى لنا أختنا لتكون بديلاً عن أمنا.

obeikandi.com

طالب الجامعة

كانت مناطق الدقي والعجوزة والدري أشبه ما تكون ببيوت سكن للطلاب السعوديين ، ففي كل عمارة كنت تجد أكثر من شقة يشغلها بعض الطلبة . كانت القاهرة في تلك الأيام كما سبق أن ذكرت ، مدينة جميلة نظيفة قليلة الازدحام سهلة المواصلات تستطيع في أي وقت أن تنتقل في حافلات أبي رجيلة إلى أي مكان وبالدرجة الأولى بقرشين فقط . كنا في بداية الشهر ولمرات قليلة نأخذ سيارة أجرة " ونضرب العظمة " كما يقولون بالتعبير الدارج . ولكن ذلك كان لمرات قليلة فقط ثم لا نلبث أن نعود إلى حافلة أبي رجيلة وبالدرجة الثانية بقرش واحد! . . . هذه هي الحياة! . . . كنا نفضل عندما نذهب إلى السينما في آخر الأسبوع أن نعود إلى مسكننا سيراً على الأقدام من وسط البلد وبعد منتصف الليل لتتمتع بمنظر ميدان التحرير والشوارع التي حوله و " كوبري " قصر النيل وغيره وهم يغسلونها بالماء والصابون ذي الرائحة الزكية .

الجو في ذلك الوقت من الليل يكون جميلاً منعشاً يبعث على البهجة . لم تكن القاهرة قد ابتليت بعدُ بالاختناق في المرور وفي الجو معاً ، ولم يكن هوائها قد خالطه التلوث كما هو عليه الحال الآن . وقد سمعت أن السلطات المدنية المسؤولة بمصر قد بدأت تعالج قضية التلوث ، وأنهم ابتدؤوا يغسلون بعض الشوارع بالماء والصابون كما كان الحال عليه سابقاً ، وأرجو لهم النجاح ، مع العلم أن من أصعب الأمور علاج مشكلة التلوث التي تعاني منها مدن كبيرة كالقاهرة .

لا شيء يساوي الحرية عندما تشعر أنه أصبح بإمكانك أن تحيا حياتك كما تشاء لا رقيب يحصي عليك حركاتك وسكناتك أو يأمرك بأن تفعل هذا أو تكف عن ذاك . كان شعوراً جميلاً سرى في كيائنا جميعاً عندما تقرر إغلاق بيت الطلبة بالقاهرة وإعطاء الطلبة بدلات سكن وطعام على أن يتولوا هم توفير السكن لأنفسهم بالطريقة التي يرونها . كان هذا شيئاً جديداً لم نعهده نحن الطلبة من قبل . كان الواحد منا يسكن في بيت عائلته مع الأب والأم والأخوة . . أما الآن فقد أصبحنا أحراراً طلقاء لا نخضع لرقابة من رقيب اللهم سوى رقابة الضمير والسلوك القويم . كانت لا شك تجربة جديدة للطلبة للعيش معاً كل اثنين أو ثلاثة في شقة واحدة وبالطريقة التي يرونها مناسبة . لم يكن هناك إعداد نفسي لمثل تلك التجربة ، ولعل أحداً لم يفكر في أن الطلبة كانوا بحاجة لمثل ذلك الإعداد . لا شك في أن الحياة في القاهرة في الخمسينات كانت تستدعي من القادمين الجدد أن يكونوا على شيء من الدراية بما سيواجههم في مدينة جديدة غريبة ومجتمع يختلف قطعاً عن المجتمع الذي أتوا منه . كنا في تلك الأيام في السن التي تبدأ الشخصية فيها تستنُّ لنفسها النهج الذي ستسير عليه بقية حياتها . . هي السن التي يبدأ الإنسان فيها يبحث عن هويته . يبقى الولد في دائرة الطفولة إلى أن يدخل الجامعة وتنضج شخصيته التي سيخوض بها معترك الحياة .

أمضيت السنة الأولى - مثل غيري من الطلبة الذين جاءوا معي في العام نفسه - في دار الطلبة التي كانت ما تزال قائمة . وعند بداية السنة الثانية ، وعندما تقرر إغلاق الدار ، خرج الطلبة منها إلى شقق متفرقة بالدقي والعجوزة ومناطق القاهرة الأخرى القريبة من جامعتي القاهرة وعين

شمس . لأول مرة شعرت أنني أصبحت فعلاً رجلاً أعتمد بعد الله تعالى على نفسي دون حسيب أو رقيب . سكنت في البداية مع زميلين ممن كنت على صلة طيبة بهما . واستأجرنا شقة على شارع النيل الهادئ الجميل الذي تنتصب الأشجار العالية على كلا جانبيه . وكان لا بد للشركاء الثلاثة من " دستور " ينظم لهم حياتهم ، ويضمن سير الأمور فيما بينهم على النحو المرجحى . كما قلت كانت تلك السنة الثانية لي وللأخوين اللذين سكنا معي ، وكان قد اتضح إلى حد ما النمط الذي اختاره كل شخص في تعامله مع دراسته الجامعية وحياته في المجتمع القاهري الجديد . كنت مواظباً على حضور المحاضرات جميعها دون أي تأخير ، وكنت أعود إلى المنزل وفي أغلب الأحوال لا أخرج منه إلا في صباح اليوم التالي لأذهب إلى الجامعة . كانت تتخلل تلك الساعات اجتماعات مع بعض الزملاء مثل عزت خطاب لمقارنة ما نقلناه من المحاضرة وتصحيح ما يحتاج إلى تصحيح بمشاركة أحد الزميلين اللذين سكنا معي بوصفه هو الآخر ملتحقاً بقسم اللغة الإنجليزية . كانت ثورة مصر في تلك الأيام ما تزال تبحث عن هويتها حيث لم تكن قد بدأت بعد في تبني فكرة الوحدة العربية ، وبعد ذلك فكرة عدم الانحياز وتطبيق الاشتراكية إلخ . . وعلى أي حال فلم يكن يعنيني من أمر السياسة شيء بل استمر اتجاهاً منصّباً على قراءة ما أستطيع قراءته سواء كان ضمن دائرة الدراسة أم خارجها . وما تزال القراءة عاملاً مهماً في حياتي ولو أنني للأسف لا أقرأ الآن كما كنت أقرأ في السابق .

كان الاتفاق فيما بيننا نحن الثلاثة منعقداً على الاهتمام بالدراسة طوال الأسبوع على أن تكون عطلة الأسبوع وقتاً يتصرف فيه كل شخص منا

حسبما يشاء . سار الحال هكذا لفترة محدودة ثم بدأ خرق الاتفاق . . بدأت الشقة تستقبل زواراً في غير أوقات الزيارة وكان المتسبب بذلك يتلقى الشكوى من زميليه في السكن فيعتذر بأعذار واهية ، ولما تكررت مثل هذه المخالفة وجدت من الأوفق لي أن أغادر الشقة وأودع الزميلين ، وهذا ما فعلته دون أن أجد أي أسف من أي منهما على فراقني .

كان لا بد لي من أن أغادر الشقة التي اشتركت في استئجارها مع الزميلين "العزيزين" . فكما ذكرت كانت الحرية التي نخوض تجربتها لأول مرة في حياتنا تتطلب منا أن نتعامل معها بحذر ، وكنت أعرف أن أي استسلام ربما قاد إلى عواقب غير محمودة . ومما لا شك فيه أن سلوك غالبية الطلبة كان يتسم بالمعقولية والاعتدال ، حتى من حاد منهم عن الطريق القويم كان ما يلبث أن تتغلب عليه تربيته الإسلامية الصحيحة فيعود إلى الدرب الصحيح نادماً على ما بدر منه . ولقد كانت هناك سمات تميز الطلبة بعضهم عن بعض . . فكان البعض مثلاً يهوى التجول في أنحاء القاهرة ويجد في ذلك لذة كبيرة خاصة عندما يزور معالمها التاريخية المشهورة ، بينما كان البعض الآخر لا يخرج من دار للسينما إلا ليدخل أخرى ، وقد يرى الفيلم الواحد مرات عديدة . . أحد الزميلين اللذين فارقتهما كان يتمدد على فراشه في قيلولة بعد الظهر وهو بكامل ملابس الخروج بما في ذلك الحذاء ، وهذا - كما كان يقول الآخر - تحسباً للطوارئ ، لأنه كان دائم التجوال خارج البيت ! . . ثلاثة آخرون من الزملاء سكنوا إحدى الشقق ، وكان من فرط حرصهم على ألا يتعرضوا لأي إغراءات قد تفسد عليهم حياتهم العفيفة أن أحضروا لخدمتهم امرأة كانت من القبح بحيث لم أستطع طوال فترة سكناهم ووجود تلك المرأة في خدمتهم أن أذوق الطعام الذي تطبخه . . !

مرة ثانية يخفق القلب .. ويخفق

في عامي ١٩٥٥م و ١٩٥٦م كان نجم عبدالناصر في صعود إذ استطاع تثبيت نفسه كزعيم لمصر وللضباط الأحرار، واتجه نحو تأميم الممتلكات الخاصة والأخذ من أراضي الإقطاعيين والأغنياء بحجة توزيعها على الفقراء .. وهذا ما أطلقوا عليه اسم الاشتراكية .. ورحب الشعب المصري بتلك الإجراءات، فتشجع عبدالناصر وأم قناة السويس . كان ذلك في عام ١٩٥٦م، وكانت القناة إلى ذلك الوقت تدار من قبل جهاز يخضع لحكومتى بريطانيا وفرنسا .. لم يعجب ذلك الإجراء البلدين المذكورين طبعاً فما كان منهما إلا أن قررا غزو مصر، وانضمت إليهما إسرائيل . كانت مصر في ذلك الوقت تعمل على جبهتين هما تبني الاشتراكية والدعوة إلى الوحدة العربية . وكان جهاز الدعاية في القاهرة نشطاً جداً، وكان راديو صوت العرب بقيادة أحمد سعيد في أوج تألقه ؛ ولهذا فما إن حدث الغزو الثلاثي حتى سرت شرارة الحماسة في البلدان العربية من أقصاها إلى أقصاها . لم نكن نحن الطلبة العرب في القاهرة أقل حماساً من غيرنا فقد أسرع معظمنا إلى الانخراط في الجندية كمتطوعين . كان الواحد منا على أتم الاستعداد لأن يحمل رشاشه ، كما كان يحثنا عليه أحمد سعيد ، ويذهب ليواجه الجيوش الغازية .. ! ولحسن حظنا أن الجيش المصري لم يكن بحاجة إلى تضحياتنا ولذلك كانت حماستنا في تلك الحرب محصورة على ارتداء البزة العسكرية والسير في مناطق سكننا نحث سكان العمارات عن طريق

حراس أبوابها على إطفاء الأنوار وطلّي زجاج الشبايك باللون الأزرق . . !
أما من خدمه الحظ بأن التحق بإحدى دورات التدريب على إطلاق الذخيرة
الحية فقد اعتبر نفسه بطلاً بلا منازع . . !! كنت طبعاً ضمن من سارعوا إلى
التطوع ، وقد سلمتني قيادة الجهة المسؤولة عن المتطوعين بدلة لبستها وأنا في
قمة الفخر بما أفعل . سارعت وأنا أرنديها لزيارة بعض أقاربي الذين كانوا
في القاهرة في تلك الأيام وأنا شامخ بأنفي زهواً وفخاراً ، وكنت أنتظر أن
أرى في عيون أولئك الأقرباء نظرات الإعجاب والانبهار ، إلا أن ما حدث
كان غير ذلك . فقد فوجئت بعاصفة من الضحك اكتشفت بعدها أن الذي
أثار الضحك هو حجم البدلة التي كنت أرنديها ، فقد كانت تناسب في
مقاسها عملاقاً ضخماً الجثة بينما كنت شخصاً نحيفاً فضعت تماماً بين طياتها
الفصفاضة .

غير أن الإسراع إلى التطوع للقيام بأي مساهمة ولو بسيطة أثناء الحرب
كان يدل على تشبع الشباب في ذلك الوقت بالدعوة إلى الوحدة العربية .
كان ذلك أملاً يراد كل إنسان عربي ، وكان شيئاً جديداً بعث من حالة
سبات امتدت لقرون طويلة . كنا جميعاً في ذلك الوقت على أتم الاستعداد
للذهاب إلى الجبهة وإلى خوض القتال إذا دعا الأمر بجانب قوات الجيش
المصري . قطعاً ما كان وجود مجموعة من الشباب المتطوعين ليؤثر في نتيجة
المعركة ، ولكن الاقتناع بالهدف الكبير الذي يمثله الحديث عن الوحدة العربية
كان ذا مغزى . لكن للأسف لم تعيش أحلام الوحدة العربية طويلاً إذ سرعان
ما صارت تتهاوى واحداً بعد الآخر ، ومع كل صدمة وخيبة أمل كانت
العقول تكبر وتنضج إلى أن وصلت إلى الاقتناع بأن الوحدة تتطلب أكثر من

مجرد خطب تلقى أو مديعين يلهبون حماس الناس بشعارات جوفاء لا فائدة منها .

كنت أيام حرب عام ١٩٥٦م ما زلت أقيم في شقة شارع النيل مع الزميلين اللذين أتيت على ذكرهما سابقاً . وذكرت أنه عندما ابتدأ العدوان الثلاثي على مصر أسرع إلى الالتحاق بمركز المتطوعين ، ووضعت نفسي مع من تطوعوا مثلي في خدمة الجيش المصري ، وذكرت نوع ما كلفنا به من مهمات . أكرر هذا الكلام لأصل إلى نقطة أودُّ أن أذكرها وهي أن الإنسان يمر غالباً في سني حياته المختلفة بعدة مراحل فكرية كل مرحلة منها تناسب سناً معينة . فهو بعد الطفولة وقبل الشباب يكون حالمًا يريد أن يكون كذا ويفعل كذا ، وفي مرحلة الشباب تبدأ المرحلة الرومانسية التي تفور فيها العواطف ، وتتصف الأعمال التي يقوم بها الشباب بالحماس الشديد والدفاع بقوة عن كل ما يقتنع به . وتتميز هذه المرحلة أيضاً بالمثالية ، فالشباب يتطلع إلى أن يكون كل ما يقوم به مثلاً يحتذى ربما لإيمانه العميق ، بأن نبل القصد هو ما يحركه .

كانت هذه هي المرحلة التي كنت أمر بها في عام ١٩٥٦م وهي طبعاً مرحلة من العمر يمر بها معظم الشباب في مثل سني ، ولهذا فلقد ساءني أن تكون هناك حرب على البلد الذي أعيش فيه ، وأن ينشغل بعض الناس بحياتهم العادية وبملذاتهم الشخصية وكأن كل شيء على أحسن حال . وعلى كلِّ فأننا على يقين أنني كنت واحداً من الأكثرية التي شعرت بمثل شعوري هذا ، وكما لا يخفى فقد حقق العرب في تلك الأيام من التكتل والتضامن الجماعي ما لم يتوفر لهم مثله في أي وقت لاحق .

عندما يكون المرء في عنفوان الشباب تتسلط على شخصيته قوى معينة ما تلبث قبضتها القوية أن تضعف أو تتلاشى نهائياً مع التقدم في السن واكتساب الخبرة بعد طول التصارع مع شتى التيارات في الحياة، وأبرز تلك القوى هي التي تحبب إلى الشاب الاندفاع والعنف، وتشعل في جوانحه الحماس وحب المغامرة، ثم هي التي تجعله قبل ذلك وبعده أسيراً مستديماً لعاطفة من نوع معين هي عاطفة الحب الرومانسي. وهناك قيود كثيرة في الحياة يصرف المرء العمر كله محاولاً التخلص من نيرها والانعقاد من إسارها، إلا أن قيداً واحداً يسعى إليه الإنسان بمحض اختياره، ويكبل به نفسه روحاً وجسداً عن طيب خاطر، فإذا جاءه من يعرض عليه أن يفك وثاقه رفض العرض، وفضل البقاء في الأسر على الانطلاق إلى الحرية. لقد عرف القارئ أي قيد أعني، ومع ذلك لا مانع من أن أسميه باسمه الذي لا أروع ولا أعذب منه : إنه الحب ! .

لم تسل الأقلام بحديث عن موضوع شغل الرجال والنساء مثل ما سالت وهي تتحدث عن الحب . ولم تكتب مسرحية أو رواية إلا وكان فيها للحب النصيب الأوفى . وأغلب الظن أنه لم تخل حياة إنسان من ومضة حب بشكل أو آخر . وكان لا بد للقلب والحالة هذه أن يستجيب لهاتف الغرام، ويصوب سهامه إلى الهدف، لكنها جميعاً طاشت، بل إنها ارتدت إليه لتتركه مثخناً بالجراح، وتدفعه في لحظة يأس إلى أن يوصد كوة الأمل ويقبع في شرنقته ليموت ببطء قبل أن يتذوق طعم الحياة . بقيت العاطفة العذرية المتأججة حبيسة الصدر تفور وتتقلب على نفسها فلا تجد لها متنفساً . كانت تغلي داخل الضلوع، فإذا لاح لها بريق أمل انتعشت، ودبت

فيها الحياة من جديد، واندفعت تحاول الإفلات من زنزانيتها والتحليق بأجنحة من اللهفة بحثاً عن مرفأً آمن يمكن أن تلوذ به رجاء أن وجود فيعزف لها ولو مقطوعة صغيرة من سيمفونية الحب الكبير. لكن برق الأمل كان خُلباً فما تلبث الجمرة أن تفقد توهجها وتعود رماداً. وسار الحال على هذا المنوال طوال سنوات الدراسة لا الأزاهير تفتحت، ولا القلب حقق شيئاً، أي شيء من أمانيه، حتى أن الطلّ الذي كان ينزل على الأوراق العطشى مع تقدم الربيع انحبس هو الآخر ليحتجب ويحل محله خريف مستديم!.

مع حلول السنة النهائية للدراسة كان واضحاً أنني سأفوز من الجامعة بشهادة الليسانس، ولا شيء سواها. لا شيء! فالجامعة على ما يبدو ليس من اختصاصها أن توزع مع الشهادات الورود والرياحين، ولا أن تقوم بتمريض القلوب التي أضناها الحرمان! ومع فقدان الأمل داخل أسوار الجامعة أخذ القلب الحزين يتطلع إلى العالم الواسع خارج الأسوار. لم يطل بحثه إذ كان قد أعد العدة واتخذ كل الاحتياطات. لن تخيب السهام هذه المرة فهي في جعبة «كيوبيد» نفسه، ولم يحوج الأمر إلى أكثر من سهم رماه فأصاب الهدف. بدأ الحب عنيفاً من الجانبين، وكان الطرف الثاني ينتظر أن يصبح ضحية في مذبح الغرام فعرض قلبه الفضي للاختراق. عشت قصة الحب الثانية هذه بكل جوارحي وأحاسيسي وأغرقت الحبيبة بشلالات منهمة صاحبة من العواطف التي ظلت سجينة في صدري طوال السنوات الماضية. طغى الحب الجديد على كياني ولفني بغلالة سميكة من الوله لم أعد أرّ خارجها شيئاً، وكان الآخذ كالمعطي. وأصاب الطرفان من السعادة أقصى ما يمكن أن يتمناه شاب وشابة. كان حبنا طاهراً نقيّاً عبّر عن نفسه في

الحقيقة عن طريق الهاتف معظم الأوقات ، وإن كانت هناك مشاهدة فهي لا تتعدى لحظات وبحضور آخرين . لم أشتك ، وهي لم تحتج ، ولم يكن أي منا يطمح إلى أكثر من التعبير عن الحب الصادق العنيف الذي كنا نتبادله عبر الأسلاك . عشنا أياماً وكأنه لا توجد نهاية لمهرجان الورود والرياحين التي كانت تمطر علينا فتغطيها بأريجها العبق . كنت قد بدأت أستعد لامتحانات النهائية ، ولكن ذلك ما كان ليقف حائلاً دون مكالمات السهرة التليفونية التي كان تمتد في أيام الاختبارات نفسها إلى الصباح ، وإلى أن أضطر إلى قطعها للذهاب إلى الجامعة ! وفجأة وبدون مقدمات أعلنت الفتاة أنها قطعت علاقتها بي . لم تمنحني أي وقت لأعد نفسي للصدمة ؛ بل قالت إنها اتخذت القرار وأن عليّ أن أدرك أن مفعوله أصبح سارياً وبأثر رجعي ! .

أطارت المفاجأة صوابي لدرجة أنني مرضت جسدياً وليس نفسياً فقط . زلزلت الصدمة كياني . لماذا هذا الظلم ؟ وما هو الذنب الذي جنيته ؟ ضاقت بي الدنيا وعادت عواطف الفياضة منكسة الرأس مهیضة الجناح تبحث عن قمقم تنحبس فيه من جديد . كيف استطاعت هذه المخلوقة الرقيقة التي كانت تذوب حباً وحناناً في حديثها أن تقرر فجأة أنها لم تعد تحبني ؟ وهل الحب يخضع للأوامر التعسفية التي تلقى عليه فيجيب بالسمع والطاعة ؟ هل الحب لعبة ؟ وهل المحبوب دمية حالها كحال الكرة تتقاذفها أقدام اللاعبين ؟ آه يا توأم الروح ومنية النفس ، يا من أصدرت حكمك الجائر بموتي ما كان ضرك لو تركت لي الحق في أن أعيش الحلم الجميل حتى النهاية ؟ ألم يكن من الإنصاف على الأقل أن تؤجلي قرارك حتى أرحل عن بلادك ؟ ما فائدة الشهادة الآن وأنا دون شك لن أعيش لأقطف ثمار نتائجها ؟ لتسقط كل

الشهادات الدراسية! بل لتسقط الجامعة على من فيها! وليجف نهر النيل!
 وليخرج أبو الهول عن صمته الأبدي ليندب حظي! لم يعد هناك معنى
 لشيء... فقدت الدنيا بهجتها ومعناها ولم يكن ليرف لي وقتها رمش لو
 أعلن أحد مجانين السياسة الحرب العالمية الثالثة! وأعود لنفسي وأتساءل:
 هل كان حبها لي تمثيلاً في تمثيل؟ وإذا كان كذلك فلماذا لم تستمر في
 ادعائها وتمثيلها؟ إنه قطعاً لم يكن تمثيلاً. كان حباً صادقاً، حقيقياً، وعنيفاً.
 كنت أحس صدقه، وما كان القلب ليكذب على صاحبه. كان ينبع من قلبها
 ويصب في أعماق قلبي، ومع ذلك لا أعرف حتى الآن السبب الذي جعل
 نهر العواطف الهادر ذاك يختار أن يتوقف فجأة عن الانسياب.

انتهت الامتحانات، ولم ينته عذابي، بل تلقيت خبر اجتيازي
 الاختبارات النهائية وحصولي على الليسانس وكأنه رماد حشي به فمي.
 كان علي أن أجد حلاً لعذابي إذ لم تُجد كل الوسائل التي ابتكرتها في ثني
 الفتاة عن قرارها. أخيراً صحت مثلما صَاح أرخميدس: "وجدتها"!

كان طبيب البعثة الطلابية السعودية بمصر في ذلك الوقت هو المرحوم
 الدكتور عمر أسعد، وكانت عنده وصفة طبية مفضلة يصفها لكثير من
 الطلاب الذين يزورون عيادته للتداوي وهي استئصال الزائدة الدودية!..
 ولا أدري إلى الآن إن كان ذلك العلاج الجراحي نظرية جديدة في ذلك
 الوقت حيث إن الزائدة كما يدل عليه اسمها شيء زائد عن حاجة الإنسان،
 أم أنه كانت لديه أسباب أخرى مثل استخدام العملية ذاتها كعقاب للبعض
 على سلوكهم. المهم قصدت الدكتور عمر ولم أنتظر حتى يشخص مرضي

بل بادرته بأنني أريد استئصال زائدتي الدودية. ولم يكذب الدكتور عمر خبراً فقد أرسلني إلى المستشفى، وفي اليوم الثاني طارت الزائدة. كانت نظرتي هي أن دخولي المستشفى وإجراء عملية سوف يساعدني على نسيان عذاب القطيعة الذي نزل عليّ كالصاعقة، وثانياً وهو الأهم أنني أملت أن أجد بين ممرضات المستشفى واحدة ترثي لحالي عندما تعرف قصتي فتقدم لي قلبها بدلاً عن القلب الذي انقلب عليّ. .! جاءت حساباتي للأسف كلها خاطئة فقد راحت الزائدة ولم أحصل في المقابل على أي قلب بديل. لا أزال أذكر أنني عندما أفقت من البنج وجدتني أهذي باسم الفتاة التي هجرتني وأطالب بإحضارها حالاً. كانت تجلس على طرف سريري امرأة فاضلة وصديقة للأسرة. كانت السيدة الكبيرة تمسح بيدها على رأسي وجبيني، وتؤكد لي أن فلانة ستصل بعد قليل. كان الألم يعصر قلبي كلما رجعت إلى عالم الواقع قبل أن تغشاني الرحمة فأغيب للحظات جديدة وصوت تلك السيدة الحنون ينساب إلى سمعي وكأنه أت من مسافات بعيدة يؤكد أن فلانة في طريقها إليّ. وراحت الأيام ولم تأت فلانة، ولاقت السيدة الطيبة وجه ربها، وراح الباقيون كل في سبيله.

هناك كلمة أخيرة أحب أن أضيفها قبل أن أنهي قصتي هذه. وهي أنني بعد أن فشلت في تحقيق هدفي من إجراء العملية، وبعد أن خرجت من المستشفى، دعاني بعض الإخوان إلى غداء في شقتهم الواقعة في إحدى العمارات الشاهقة في ميدان الدقي. لم يكن الجرح قد التأم بعد. لبيت الدعوة وحين وجدت المصعد معطلاً. وكانت الشقة في الدور الثاني عشر. لم أتردد في صعود السلالم قفزاً. عند باب الشقة سقطت من الإعياء،

وانفتح الجرح من جديد، وأخذ الدم ينزف منه بغزارة. خشي الزملاء ألا ينتهي الأمر بسلام فحملوني إلى المستشفى، وهناك أعاد الدكتور عمر قفل الجرح مرة أخرى، وبعد أن انتهى من ذلك قرص ذقني قائلاً: "بطل شقاوة، كنت على وشك تضييع نفسك". كدت فعلاً أضيع نفسي بأوهام وحسابات خاسرة لم أجن من ورائها إلا الخيبة المرة فقد طارت الفتاة، وتبعته الزائدة، ولم تقع أي من الممرضات في حبي ويا للأسف!.. والأسف الأشد أن دخولي المستشفى والآلام التي عانيت بها بعد ذلك لم تثر في المحبوبة السابقة أي قدر من العطف مع أنني لفرط سذاجتي في ذلك الوقت ظننت أن تلك المعاناة كانت هي الأسلوب الأمثل لاستدرار عطفها.



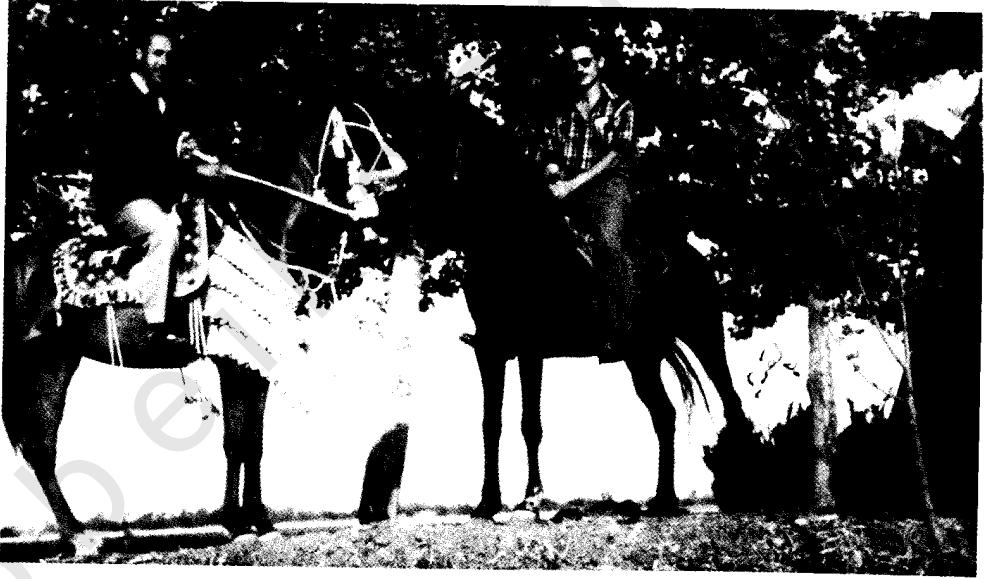
سكان الشقة بالقاهرة: محمد الفايز ومحمد العتيبي وأنا



طائرة أرامكو نقلتنا من الظهران إلى مناطق أخرى في المنطقة الشرقية للاطلاع على منشآت بترولية في برنامج أرامكو تدريب الطلبة السعوديين الجامعيين



سنة أولى جامعة أمام مبنى الإدارة بجامعة القاهرة



في القاهرة كنت أسرع إلى منطقة الأهرام بالجيزة كلما سنحت الفرصة لركوب الخيل وفي الصورة دعاني الزميل المصري الذي يركب الحصان الآخر إلى قريته القريبة من القاهرة



كنا ننتهز كل فرصة نجدها لركوب الدراجات . ويظهر معي بالصورة الأخوان عزت خطاب وإبراهيم ملاوي



مع الأخ محمد العتيبي وأصدقائه في بعض مصايف سوريا



مع الطلبة السعوديين في القاهرة في رحلة إلى أنشاص في أوائل عام ١٩٥٤ م.

obeikandi.com

بعد التخرج .. البحث عن المرتبة الرابعة

من المزايا التي يتصف بها الشباب أنهم يقدمون على معظم الأعمال التي يمارسونها باندفاع ودون روية، وهكذا فإنه وعلى الرغم من كل العلاقة الحميمة التي ربطت بين القاهرة وبينني لما حان وقت الرحيل عنها غادرتها دون أن أذرف الدموع على فراقها -سوف يأتي الحزن فيما بعد- . ولعل مما سهل أمر الرحيل أنه جاء بطبيعة الحال وقت الصيف وهو الوقت الذي تعودت أن أشد الرحال فيه إلى المدينة المنورة أو دمشق في كل عام . صدف أيضاً أنه في ذلك العام كان الأهل يقضون إجازتهم السنوية في سوريا ولذا فلم يكن لدي وقت لذرف الدموع على فراق القاهرة وأهلها .

عندما عدت إلى أرض الوطن أدركت أن وقت الجد قد حان، وصار لزاماً عليّ فيه أن أتحمّل مسؤولية نفسي على الأقل، وأن أبدأ حياتي العملية، وأرد على قدر جهدي المتواضع المعروف الذي أسداه لي وطني طوال سنوات الدراسة . غير أنني لم أكن أعرف تماماً ماذا أريد أن أعمل . . كان في مخيلتي شيئان غامضان هما وزارة المعارف حيث يمكن أن أكون مدرساً للغة الإنجليزية أو وزارة الخارجية . وقد كان لوزارة الخارجية سحر عندي لا تنافسه وزارة المعارف . . كان هناك سحر الدبلوماسية، وبريق السفر إلى بلاد غريبة، والعمل في السفارات في أقطار مختلفة . . كل ذلك كان له جاذبية طغت على ما سواها . ومن الناحية الأخرى فإن وزارة المعارف هي الوزارة التي يمكن أن نطلق عليها نحن الطلبة الذين علمتنا

وابتعثنا " الوزارة الأم " ، صحيح أن الوزارة كانت تؤكد في كل مناسبة أن على الخريجين من المبتعثين أن يعملوا بها على الأقل عدداً من السنين يساوي سني ابتعائهم ، ولكن هذا القول لم يكن دائماً يطبق بالفعل ؛ بل غالباً ما كانت الوزارة تغض النظر عن قيام مبتعثيها باختيار مكان آخر للعمل . ومن هذا المنطلق ابتدأت رحلة البحث عن الوظيفة . لم يكن في الواقع ذلك البحث الشاق ، فقد كانت مجالات العمل في ذلك الوقت (١٩٥٨ م - ١٣٧٨ هـ) متوافرة تقريباً في أي مجال أو أي وزارة أو مؤسسة حكومية يختارها الشخص . . . وابتدأت فعلاً بوزارة الخارجية خاصة وأنها كانت في جدة وهي أقرب إلى المدينة من الرياض . توجهت إلى جدة وقصدت المرحوم السيد عمر السقاف الذي استقبلني بترحاب وعطف كبيرين . وعلى الرغم من أنني لم أفهم تماماً ما قاله لي إلا أنني التقطت من غمغمته المشهورة اسم شخص معين من موظفي الوزارة الكبار واستنتجت أنه يريد مني أن أقابله - أو هكذا قررت أن أفهم . ذهبت إلى الشخص الذي أشار علي به السيد عمر رحمه الله . . . وقابلني الرجل وعرض علي مسمى وظيفة ودرجة في سلم الوظائف لم أتقبلها ، وخرجت من الوزارة . بعد ذلك قررت أن أختصر الطريق وأذهب إلى البيت الكبير الذي يتسع للجميع ، الرياض ، وأن أضع نفسي في كنف الأم التي تتسع أحضانها لكل أبنائها : وزارة المعارف .

وصلت إلى الرياض وكان الوقت لا يزال أواخر صيف ١٩٥٨ م . قصدت بيت أحد أقاربي ونزلت ضيفاً عليهم . وما إن أشرقت شمس اليوم التالي حتى كنت أتجول في دهايز الوزارة . أعرف أنه كان قد سبقني في

الوصول إليها الأخوان رضا عبيد وعزت خطاب : هما الآن طبعاً الدكتور رضا عبيد عضو مجلس الشورى ومدير جامعة الملك عبدالعزيز سابقاً، والدكتور عزت خطاب أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة الملك سعود . كانت درجات الوظائف في تلك الأيام على عكس ما هي عليه الآن ، بمعنى أن الدرجة الرابعة أعلى من الخامسة والخامسة أعلى من السادسة وهكذا . . . وقد وجدت عندما وصلت أن كلاً من الزميلين قد صدر قرار تعيينه على الدرجة الرابعة . وكما ذكرت في مكان سابق فالأخ عزت خطاب كان زميلي في الدراسة الإنجليزية بينما تخرج رضا عبيد في كلية العلوم . كانت الطريقة التي لجأ إليها في التعيين غاية في البساطة : كانا يأتیان الوزارة قبل وصول أي موظف ، ويتنظران أمام مكتب الأستاذ حمزة عابد ، وكان يومها مدير عام الوزارة ، وحينما يريانه قادماً يسرعان ويدخلان المكتب معه . . . طبعاً كان الأستاذ حمزة يعرف أنهما ينتظران التعيين ، وكان يعرف أنهما يلجأان إليه للمساعدة على تعيينهما على الدرجة الرابعة . ويجلس الأستاذ حمزة على مكتبه ، ويأخذ رضا وعزت مكانيهما في صدر الغرفة المقابل ، و "هات شاهي يا ولد " و "هات قهوة يا ولد " . ولكن لا فائدة . . فمهما طلب الأستاذ من أكواب الشاي والقهوة فإن الشايين ثابتان في مكانيهما لا يتحركان . . ! هما لا يريدان القهوة والشاي بل يريدان الوظيفة وعلى الدرجة الرابعة . . ولم يكن أمام الأستاذ حمزة عابد إلا أن يتبنى قضية تعيينهما التي تمت فعلاً بالتنسيق مع رؤسائه وعلى الدرجة التي أرادها .

وجاء دوري وقد استوعبت الدرس منهما . . وبدأت دورات الجلوس والشاي والقهوة في مكتب الأستاذ حمزة . ويبدو أن الوزارة رأت أنها

أعطت ما يكفي من الدرجة الرابعة وعلى الباقي أن يقنعوا بالدرجة الخامسة . تكررت جلساتي صباح كل يوم عند الأستاذ حمزة عابد دون أن تظهر أي بوادر لتعييني على الرابعة . . ولما رأيت أن الجلوس عنده لم يؤت ثماره المطلوبة قررت أن أرقى نفسي درجة : فبدلاً من الجلوس عند مدير عام الوزارة قررت غزو مكتب وكيل الوزارة نفسه ، وهو الشيخ الجليل عبدالعزيز آل الشيخ رحمه الله رحمة واسعة . كان هذا الرجل بمثابة الأب العطوف الذي يستمع بصدر رحب وصبر لا ينفد إلى كل صاحب قضية . . كان في كل ما يفعله إنما يستقي من صاحب القلب الكبير الرجل الذي جعل من أول أهدافه النهوض بالحركة التعليمية ، والذي يعد بحق رائد النهضة التعليمية في المملكة ، ألا وهو خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز متعه الله بالصحة وأمد في عمره وكان آنذاك وزيراً للمعارف . ارتقيت كما قلت بمكان جلوسي وانتظاري من مكتب الأستاذ حمزة إلى مكتب الشيخ عبدالعزيز . كانت اللعبة كما ذكرت هي أن أجعل المسؤول يراني أمامه أول شيء كل صباح ، وأن تستمر الخطة هكذا إلى أن ينفد صبره ويسلم لي بما أريد . ومريوم واثان وثلاثة على هذا الحال ، وأنا في كل يوم أجد لنفسي كرسيّاً في أحد أركان مكتب الوكيل . . لا أذكر عدد الأيام التي انقضت على هذا المنوال ، وإنما أذكر أنه كلما رفع الشيخ رأسه من فوق أوراقه ، ورآني ما زلت جالساً في مكاني ، قال جملة واحدة : " ما خلصت يا الخريجي ؟ " وكان جوابي واحداً لا يتغير : " إلى الآن طول الله عمرك ما أعطوني الدرجة الرابعة مع أنني خريج قسم إنجليزي " . . كنت أقولها بثقة كما لو كان خريج القسم الإنجليزي لديه القوة السحرية لحل مشاكل العالم . . ! ولكن النتيجة

جاءت كما خططت لها فقد طفح الكيل بالشيخ ، ووجد أنه لكي يتخلص مني ، عليه أن يعينني على الدرجة الرابعة ، وهكذا كان . . فقد أمرني ذات صباح أن أراجع مكتب شؤون الموظفين لإنهاء إجراءات التعيين .

obeikandi.com

الرياض بين الأمس واليوم

صدر قرار تعييني مفتشاً للغة الإنجليزية بالمدارس المتوسطة والثانوية . .
 هكذا رأساً من مقاعد الدراسة إلى مفتش لغة دون المرور بالتدريس . . !
 ولكن كان المبرر لذلك هو قلة الخريجين آنذاك في هذا الحقل من التعليم .
 والحقيقة أنني والأخ عزت خطاب فقط تخرجنا في ذلك العام ١٣٧٨ هـ ،
 أما الآخرين فقد انتهى أحدهما بعد سنتين والآخر بعد أربع سنين أخرى .
 ومن الملاحظ أنه لم يكن هناك مدرسون سعوديون للغة الإنجليزية في ذلك
 الوقت .

لم أمارس التفتيش عملياً فقد استقر رأي المسؤولين في الإدارة على أن
 أرافق بعض المفتشين من ذوي الخبرة في جولاتهم على المدارس لأتعلم
 منهم الأساليب الصحيحة في التفتيش . كان أن بدأت أجوب أنحاء المملكة :
 جدة . . المدينة . . تبوك . . ينبع . . الطائف . . وغيرها في رحلات تفتيشية
 لا تكاد تنتهي رحلة حتى تبدأ رحلة أخرى . وكنت تراني مع مجموعة من
 الكهول الذين عينوا للتفتيش بعد إحالتهم رسمياً إلى التقاعد ، وقد قويت
 بيني وبينهم أواصر الزمالة ، وكان بينهم واحد كان من عهد قريب أستاذي
 في مدرسة تحضير البعثات وكان لا يفتأ يقول : " سبحان مغير الأحوال . .
 منذ مدة بسيطة كنت تلميذاً عندي والآن أصبحت زميلاً . " لم تكن الفنادق
 متوافرة في كل البلاد التي زرتها ، ففي العلا مثلاً كنا ننام في المدرسة نفسها
 بعد أن نفتش على طلابها أثناء النهار ، وكان أحسن وقت عندي في اليوم

هو الساعة التي أعد فيها "يطقي" للنوم. و"اليطق" هذا كما يعرف قدامى المسافرين عبارة عن فراش كامل يلف بعناية بحيث يحوي المرتبة والمخدرات والأغطية، ويلف ذلك كله بسجادة، ويفرد عند النوم، ثم يعاد طيه في الصباح دون أن يختل ترتيبه.

كانت الرياض هي المقر الذي أعود إليه بعد كل رحلة عمل، وكنت ما أزال في ضيافة أقربائي في منزلهم الصغير. كانت الأوقات الصعبة عندي هي تلك التي أكون فيها في الرياض ولست مسافراً. فما عدا الأخ عزت وعدداً قليلاً جداً من الزملاء الذين كنت أقابلهم على فترات متباعدة لم يكن هناك شيء كثير يمكن لمثلي أن يعمل في الرياض. وحتى مقابلة الزملاء لم تكن شيئاً سهلاً، فالأخ عزت مثلاً كان يسكن في منطقة الملز مع المرحوم الأخ عبدالله فطاني في منزله الذي كان واحداً من مجموعة مساكن قامت ببنائها شركة تسمى "البحر الأحمر" مما جعل اسمها يطلق لفترة طويلة على المنطقة كلها. كانت المسافة بين الرياض القديمة ومنطقة الملز كبيرة، والوصول إليها يتطلب سيارة، ولم يكن لدي سيارة. وكذلك لم يكن هناك تلفزيون مثلاً ليستهلك بعضاً من وقت الفراغ الكبير المتاح، ولهذا لم أكن أعود من المكتب بعد ساعات الدوام إلا لألجأ إلى قراءة شيء ما أو محاولة كتابة شيء ما. . . وكانت تلك هي السنين التي كتبت فيها بعض القصص القصيرة، وترجمت بعض قصص أخرى عن الإنجليزية، وقد نشرت جميعها في بعض جرائدنا المحلية مثل "البلاد السعودية" و"حراء" وللأسف ضاع أغلبها ولم أحتفظ إلا بوحدة أو اثنتين منها. ولا أدري فلعل بعض من يقرؤون ما أكتبه الآن يحمدون الله أن باقي كتاباتي قد فقدت!

أين رياض الأمس من رياض اليوم؟ عندما تولى الأمير سلمان بن عبدالعزيز إمارة منطقة الرياض كانت المدينة لا تزال على حالها القديم الذي عاشته لأجيال وأجيال. كان قلب المدينة هو الصفاة وما حولها من مبان، بما فيها مبنى الإمارة القديم، ثم المقيبرة وشارع الوزير (الملك فيصل الآن) والشميري وبعض الشوارع الأخرى المجاورة. كانت منطقة الملز قد بدأت تظهر أيضاً، وشق شارعا الجامعة والمطار القديم، وما عدا ذلك كان صحراء تمتد إلى ما لا نهاية.

ثم جاءت فترة الانتعاش بعد حرب ١٩٧٣م بين العرب وإسرائيل، وما تبع ذلك من ارتفاع في أسعار البترول أدى إلى تدفق الثروة على المملكة والبلاد المنتجة للنفط. ومع الثروة الجديدة، وإنشاء صناديق القروض في المجالات المختلفة، ومنها صندوق التنمية العقاري، وإقبال الناس على الحصول على قروض ميسرة، وكذلك حصول كثير منهم على أراض ممنوحة من الدولة، بدأ النمو العمراني الذي لم تر البلاد وربما لم ير غيرها من البلاد أيضاً مثيلاً له في سرعة الانتشار والامتداد. كانت الرياض تكبر وتنمو وتتسع على مدار الساعة وكان يحدث -وليس في ذلك أية غرابة- أن يضل ابن الرياض نفسه طريقه فيها، لأن شوارع كانت تشق ومبان جديدة كانت تقام بين ليلة وضحاها. في ظروف كهذه تظهر همم الرجال، وتبرز طموحاتهم، وقد هيا الله تعالى للعاصمة رجالاً من هذا النمط شمروا عن سواعدهم، وجابهوا بقوة وثقة التوسع العمراني والامتداد النشط للمساحة الإسكانية في العاصمة وضواحيها. كان النمو أسطورياً بحيث لم يمض وقت طويل قبل أن نرى مناطق كاملة كانت تعتبر قرى منفصلة عن العاصمة

قد اتصلت بالرياض وأصبحت مجرد ضوايح مكملة للأحياء الجديدة . كانت المباني تقام قبل أن يجري تخطيط المناطق ، وقبل أن تكون هذه المناطق مستعدة لاستقبال السكان ، وذلك اعتقاداً من أصحاب هذه المشروعات بأن الخدمات العامة آتية دون ريب .

حاولت السلطات المسؤولة حصر مناطق السكن في المواقع التي تتوافر فيها الخدمات ، إلا أن عوامل كثيرة حالت دون نجاح هذه المحاولات ، ومنها توزيع أراض بالمجان على المواطنين وأيضاً بروز أسلوب المساهمات . كانت تلك المساهمات تقوم على قطع أراض كبيرة نسبياً في أماكن خارج نطاق العمران وكان الناس يقبلون عليها لرخص أسعارها وليقينيهم أنهم سيحصلون على قروض من بنك التنمية العقاري لبناء المساكن .

لم تفلح كل الجهود في الحد من انتشار تلك الظاهرة . كان الناس يبنون ، ثم يطالبون الدولة بإيصال الكهرباء والماء وشق الطرق وإنشاء المدارس وغير ذلك من خدمات . كانوا يدركون أن الدولة لن تخبب آمالهم ، وأنها سوف تستجيب لمطالبهم إذا رفعوا عقائهم بالشكوى . واستمر هذا النسق ردحاً من الزمن ؛ الناس يشيدون منازلهم على أطراف المدينة ، والحكومة تلاحقهم بإيصال الخدمات . وقد أخذ الناس يشجع بعضهم بعضاً ، فمن كان يعتقد بأن الخدمات لن تصل إلى مكان ما بعيد عن العمران ثم يرى أن مقومات الحياة قد وصلت إليه كان يسرع ويشيد منزله في مكان أكثر بعداً ، وهكذا دواليك . لا شك أن الأمم والشعوب تمر عليها حقب تهب خلالها الرياح رخاء ، رياح السعد والتوفيق ، نتيجة لظروف طارئة

مواتية، وهذا ما حدث لبلادنا . فمع تدفق الثروة التي من الله تعالى بها على هذه البلاد، انتقلت المملكة بمدنها وشعبها من حال إلى حال أحسن والحمد لله . لم تبخل الدولة بالإنفاق، ولم تتردد في بذل ما هو مطلوب لتحسين أحوال الناس وإسعادهم، وما حدث للرياض حدث مثله لباقي مدن وقرى المملكة، فالنعمة كانت غامرة وسدت احتياجات الجميع .

هناك كلمة أخيرة أود أن أضيفها وهي أنه من حسن حظ الرياض أن أميرها في الحقبة التي أتيت على ذكرها هو سلمان بن عبدالعزيز . فهذا الرجل قد جعل من هذه المدينة الصحراوية معشوقته المفضلة . ومهما قيل من ثناء على الأمير سلمان، وما قام به من أعمال، وما حققه من منجزات لهذه المدينة، كان أكثر المتفائلين يظن أنها مجرد أمان بعيدة المنال، فإن ذلك يبقى أقل كثيراً مما يستحق . هذا رجل يغنيه عن الثناء والإطراء أنه نجح بتوفيق من الله فيما تصدى لإنجازه، فجعل من مدينته الأثيرة مثلاً تحتذيه بقية المدن . فالرياض تنعم الآن بشبكة طرق حديثة تباهي بها أحدث وأجمل ما أقيم في أية مدينة أخرى . ولقد أقيمت فيها مشروعات سكنية شتى مثل الحي الدبلوماسي وغيره تعتبر نماذج للذوق العمراني الراقي إلى جانب ما ارتفع فوق أديمها من صروح النهضة في مختلف مناحيها .

لقد أعيد تنظيم وتنسيق أحياء أخرى قديمة مثل منطقة الصفاة والشوارع المحيطة بها مما جعلها مثلاً يحتذى من حيث الجمال وحسن الذوق في التصميم ودقة التنفيذ مع المحافظة على الطابع التقليدي . وإذا شاء الله تعالى لشيء أن يكون فهو كائن بعد أن يهيئ له الأسباب . وهكذا أراد الله للرياض

أن يكون الأمير سلمان رجلها في الوقت المناسب ، كما هيأ لها أيضاً أشخاصاً آخرين بنوا وعملوا وهم كثيرون أذكر منهم هنا أمينها الأسبق الأمير فهد الفيصل الفرحان الذي بدأت المدينة في عهده تأخذ شكل المدن الحديثة ، ولا يفوتني أن أذكر أيضاً أمين الرياض السابق الأستاذ عبدالله النعيم الذي نذر حياته ووقته وراحته طوال سنين خدمته ليجعل من الرياض مدينة ضخمة جميلة تربض في كبرياء وشموخ فوق هضبة نجد ، ولا شك أن الشموخ والكبرياء سيتطاولان ويسطعان في سماء اليمامة أكثر وأكثر في عهد أمين الرياض الحالي معالي المهندس الصديق مساعد العنقري ، كما لا يفوتني أن أذكر هنا معالي الأخ الدكتور غازي القصيبي الذي كان وزيراً للصناعة والكهرباء معظم فترة التوسع العمراني السريع آنفة الذكر . كان غازي لا يكاد يهني نفسه على إيصال الكهرباء إلى منطقة حتى يجد نفسه مطالباً بإيصالها إلى منطقة أخرى أبعد من الأولى . كان الوزير أحياناً يصصر على أن يذهب بنفسه ليعاين المنطقة التي تريد الكهرباء مضطراً في بعض الأحيان إلى استعمال سيارة ذات دفع رباعي منعاً للتغريز ليضمن الوصول إلى المنطقة المقصودة .

ومهما كان البعد أو وعورة الطريق فلا بد مما ليس منه بد لأن الأوامر والتوجيهات الصادرة من مهندس النهضة الشاملة في المملكة خادم الحرمين الشريفين حفظه الله كانت واضحة وصريحة ، وهي أن تجاب طلبات الناس مهما كانت الظروف ، فلم يكن ثمة عذر لمقصر بعد فتح كنوز الثروة للإنفاق منها على الشعب بسخاء . بعد كل رحلة كان الدكتور غازي يعود إلى مكتبه ويجمع مهندسيه ومخططيه ويبدأ معهم العمل من أجل تأمين إيصال

الكهرباء إلى حي آخر جديد . وها هو هنا يشكو همه في قصيدة نشرت له
في إحدى الصحف المحلية :

على العرائض أقضي اليوم منهمكاً في حل معضلة يعيا بها " الرازي "
وفي المساء كوابيس تروعني من انطفاءات لمبات وتلفاز
في كل فج يصيح الناس كهربية في بطن واد وفي أعماق بوغاز
هذا بنى شققاً ما نال أجرتها وحل قسط " لصندوق " هو الباز
وذاك يطلب تياراً لفلته وقد بناها بقفر خلف " بنغازي "
وذي ظباء خراش أصبحت أما أما خراش فأضحى اسمه غازي

ونقل هنا بعض أبيات من قصيدة الأديب الشاعر عبدالله بن خميس
الذي كان قد تقدم بطلب صاغه شعراً لإيصال التيار إلى واد أنشأ فيه مزرعة :

وشعر قلته أبغيه خضراً لعلي أستبرك بالقوافي
فما كانت سوى أحلام ليل وهذي منه ثالثة الأثافي
أيسبح جل قومك في ضياء ونسبح نحن في مثل الأثافي
وأفة حظنا أنا قريب وأنا الود والخل المصافي
وأنا لا نكلفكم عناء ونقنع من كثير بالغطافي
وعدمت غير أن الوعد خبل أتى منا على خمس عجاف

ويرد غازي شعراً بشعر :

هجرت الناس والدنيا وحيداً
يفرقها عن العمران درب
فلا هيلو كبتتر تفضي إليه
أقمت بدوحك النائي تُغني
فمن مستوصف أضحي ركاما
ومن هجر إلى الماطور تصبو
وألهث في الحواضر والبوادي
وأقرأ ألف معروض وشكوى
يكبلني النظام وكنت تشقى
فبالتصميم نبدأ ثم تأتي
ويعقب ذاك "تحليل" طويل
فهذا "العرض" نزر غير كاف
وهذا "العرض" جاء بلا ضمان

"بعمارية" وسط الفيافي
طويل ذو انعراج وانعطاف
ويشكو "الجمس" من طول المطاف
وأشقى "بالكهارب" و"المشافي"
"لمستشفى" يضر ولا يعافي
إلى تلك المصانع والمصافي
وأركض في الشواطئ والمرافي
وتقرأ أنت أشعار "الرصافي"
به قبل "التفرغ" للقطاف
"مناقصة" وفتح "للغلاف"
وقد يتلوه "تقييم" إضافي
وهذا "العرض" فج غير واف
وهذا "العرض" ذو سعر خرافي

والنتيجة أن الرياض الآن تعد بحق واحدة من أجمل المدن الحديثة وأرقاها تخطيطاً وتنظيماً، وهي بشوارعها الفسيحة النظيفة، وطرقها السريعة العريضة التي تقطعها طولاً وعرضاً، وبالتشجير الذي يتخلل

شوارعها، وبمبانيها ومبانيها الأنيقة، ومجمعاتها التجارية الحديثة، تستحق أن يطلق عليها لقب "عروس اليمامة"، ويستحق أميرها النشاط صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز وساعده الأيمن صاحب السمو الملكي الأمير سطاتم بن عبدالعزيز والعاملون معهما التهئة من القلب.

* * *

قررت بعد فترة أن أبحث عن سكن مستقل، فانتقلت إلى فندق شعبي بالبيضاء ريثما أجد شقة مناسبة. كان فندقاً صغيراً فتقاسمت مع شخص آخر غرفة فيه. فوجئت في الليل، وأنا أتهيأ للنوم، بذلك النزيل يفتح معي حديثاً عن الشمس وسكانها!! نعم فقد أخذ يؤكد لي أن الشمس كوكب مأهول، وأن بها سكاناً كثيرين، وأنهم أكثر حضارة من أهل الأرض! لا حول ولا قوة إلا بالله... من بين جميع سكان الفندق يسوقني حظي إلى هذا الإنسان الغريب الذي أخذ يحاضرني عن سكان الشمس الراقين... كانت عينا الرجل تلمعان بشكل مخيف، طبعاً لا أحتاج إلى القول بأن قشعريرة سرت بجسمي وأنا جالس على سريري أستمع مرغماً إلى ما يقوله لي دون أن أجروء على الاعتراض... في النهاية طبعاً أسلمت أمري لله ووافقت معه على أن الشمس مأهولة بالسكان وأن ساكنيها أرقى من سكان الأرض!! ودعوت الله أن تمضي الأمور على خير إلى الصباح... طبعاً حاولت أثناء محاضرة الرجل أن أجد غرفة أخرى، ولكن كانت كل غرف الفندق القليلة مؤجرة بالكامل.

في الصباح الذي لم أتم ليلة لم يكن بُدُّ من الإسراع في البحث عن شقة

مهما كلفني الأمر . . ولحسن الحظ لم أجد صعوبة في العثور على طلبي في عمارة تقع على الركن الذي يلتقي به شارع الخزان بالبطحاء واستأجرتها حالاً . . لم يكن معي إلا حقيبتي الصغيرة وبها أمتعتي . وضعت الحقبة في الشقة التي كانت خالية تماماً من أي فرش ، وأسرعت إلى السوق واشترت سريراً وفراشاً ، كما اشترت كأساً واحدة من " التوتيا " ، وكان هذا كل أثاث الشقة . كنت سعيداً أيما سعادة بأنني أصبحت حراً في شقتي فلا أعود أثقل على الناس الذين استضافوني ، ولا أضطر للنوم في غرفة واحدة مع مجنون يصصر على أن الشمس مأهولة بالسكان . . وجاء وقت النوم ، وأنا معتاد على القراءة قبل النوم ، وهي عادة لازمتني منذ زمن بعيد . بحثت عن شيء أقرأه فلم أجد إلا رواية دراكيولا !! وأخذت أقرأ وأقرأ . . كانت الدنيا حولي هادئة فقد هدأت ضوضاء شارع البطحاء والشقة خالية إلا مني . . عندما وصلت في قراءتي إلى النقطة التي يخرج دراكيولا فيها من تابوته لبدأ جولته في مص دم ضحاياه أخذت أوصالي ترتعد ، وسرت قشعريرة في جسمي ، ولم أستطع أن أكمل القراءة . . ولما كانت الغرفة خالية تماماً إلا من سريري الحديدي الصغير في وسطها فقد وضعت الكتاب تحت المخذة وأطفأت النور . . حاولت النوم ولكن كيف يأتي النوم ودراكيولا وكل ضحاياه ودماءؤهم التي يمتصها . . كل هذا موجود تحت رأسي !! ونهضت من السرير وأخذت الكتاب ورميته خارج الغرفة وأغلقت الباب على نفسي بالفتاح وغمت قرير العين إلى الصباح .

انضم لي فيما بعد أخوان هما محمد الباز والدكتور عبدالله النافع بالإضافة إلى أخ سوداني يعمل في المملكة اسمه علي زين العابدين . لقد

تتابع على السكن في تلك الشقة بعد ذلك أناس آخرون منهم الدكتور أحمد الضبيب والدكتور عبدالرحمن الأنصاري . كان لنا بعض مواقف ونوادير في هذه الشقة خاصة في البداية . أول شيء طبعاً قمت به هو أنني وجدت الأخ محمد الباز والأخ علي زين العابدين -الذي قابلته بالمناسبة في الفندق نفسه الذي نزلت به ، ولم يكن هو الذي حدثني عن الشمس وسكانها- ودعوتهما إلى السكن معي ، ثم انضم إلينا بعد ذلك الأخ عبدالله النافع . أذكر أننا بعد أن استقر بنا الحال من حيث فرش الشقة وإعدادها بحثنا عن شخص يقوم بالخدمة والطبخ . والفرش والأثاث الذي أقصده هنا لم يكن يزيد كثيراً عن سريرين مثل سريرين للأخوين الآخرين ، واشترينا أيضاً حنبلاً من النوع الجيد وضعناه في الصالة التي أصبحت هي صالون الجلوس وغرفة الطعام ؛ لأن الأخ عبدالله النافع عندما أحب أن ينضم إلى المجموعة لم يجد غرفة غير مأهولة سوى الصالون فاستولى عليه وحولّه إلى غرفة نوم ! بدأنا بعد ذلك نفكر في توظيف شخص يتولى الطبخ لنا ويعنى بشؤون الشقة ، وبعد البحث عثرنا على ضالتنا المنشودة . كنا نمني أنفسنا بوجبات شهية تغنينا عن أكل السوق الذي لم يكن من حيث التنوع والجودة بالمستوى الذي هو عليه الآن . وجاء اليوم الأول ، وكل منا حريص على سرعة العودة إلى الدار والتمتع بوجبة لذيذة من يد طبّاخنا الماهر ؛ مدت السفرة ، وفوجئنا بمادة سائلة خضراء وضعت في صحون صغيرة كالتي توضع فيها السلطة . ظننا في البداية أنها سلطة من نوع ما ، ولكنها كانت حارة ينبعث منها البخار ، ولم يكن هناك شيء غيرها . لم نعرف ما هي حتى بعد أن ذقناها . . وعند سؤال الطباخ أجاب إنها بقدونس !! . . إن عدم التوفيق له زبائنه المختارون ،

والا كيف يترك ذلك الإنسان كل أنواع الخضراوات الموجودة في السوق ويشترى بدلاً منها بقدر ونسأً ويطبخه؟! وكان ذلك اليوم هو الأول والأخير للطاهي المعجزة في خدمتنا .

أمضيت ذلك العام ١٣٧٨ هـ بوزارة المعارف أتدرب كما ذكرت كي أصبح مفتشاً للغة الإنجليزية وذلك بمرافقة المفتشين من ذوي الخبرة في جولاتهم التفتيشية . وما لبثت أن انتهت السنة الدراسية لعام ١٣٧٨-١٣٧٩ هـ (١٩٥٨-١٩٥٩ م)، وأخذت أعد نفسي لإجازة الصيف، خاصة وأنها كانت السنة الأولى لي في الحياة العملية . كان الانتقال من حياة التلمذة إلى مسؤوليات الحياة ومعرّكها يتطلب التدريب على تحمل المسؤولية والقيام بعمل ما يطلبه الرؤساء . . وكل هذا يحتاج إلى شيء من الانضباط وإلى تهذيب النفس والنزول من الأبراج العاجية وهجر خيالات التحليق في الهواء . كان العام الأول هذا صعباً قاسياً . فالرياض كما قلت كانت لا تزال بلدة صغيرة تكاد الحياة الاجتماعية فيها تكون غير موجودة، وكان الاتصال يقتصر بالنسبة لي على الزملاء القلائل الذين تخرجوا في العام نفسه . كنت وهؤلاء الزملاء نجتمع غالباً بعد صلاة المغرب أو العشاء في شقة واحد منا، ثم نقرر أن نذهب إلى السوق، وبالسوق أقصد شارع الوزير (الملك فيصل الآن)، فهو المكان الوحيد في ذلك الوقت الذي كنا نقصده سواء للشراء أو لمجرد التسكع . لم تكن لدى أحد منا سيارة، فقد كانت السيارات في ذلك الوقت ترفاً لا نقدر عليه . . كانت هناك سيارات في الدوائر الحكومية المختلفة لنقل الموظفين إلى أعمالهم . . أما السيارات الخاصة كما نعرفها الآن فكانت مقصورة على فئة قليلة من المحظوظين لم

نكن نحن منهم . فإذا حدث وتكرم أحدهم بإركابنا في سيارته في المساء كنا غالباً ما نطلب منه أن يوصلنا إلى " قهوة العويد " في طريق خريص . . فقد كان هذا المقهى مقصد طالبي الهدوء الذين ينشدون الاستمتاع بجلال الصحراء بالليل وكذلك الهواء النقي البارد . . كنا حتى في أيام الصيف القائظة نحتاج إلى ملابس ثقيلة تقينا البرد بعد منتصف الليل وسط جو يلفه ظلام دامس ، ويحيط به سكون له رهبة تقطعها أحاديث وضحكات مجموعات صغيرة من مرتادي المقهى تفرقت فوق كراسيه التقليدية المصنوعة من سعف النخيل .

obeikandi.com

من الرياض إلى المدينة .. على متن شاحنة

كنت أنتظر انتهاء العام الدراسي بفارغ الصبر كي أسرع إلى المدينة المنورة لأقضي فيها جزءاً من إجازتي مع أهلي . . كنت حريصاً على أن أجد لنفسني مكاناً على طائرة إلى المدينة ، ولكن يبدو أن هذا كان أصعب مما كنت أظن ، خاصة وأنه حدث أن بداية إجازة ذلك العام ١٣٧٩ هـ صادفت بداية عيد الأضحى المبارك ، ولذلك فقد كان الضغط شديداً جداً على الطائرات التي لم تكن وقتئذ بالكثرة التي هي عليها الآن . كنت ترى مطار الرياض وقد امتلأ براغبي السفر إلى وجهاتهم المختلفة . ولكن أتى للجميع أن يحصلوا على بغيتهم ، وقد أوشك العيد على الحلول ، والكل يود أن يقضيه مع أهله حيثما كانوا .

بعد عدة محاولات في المطار وجدت أن فرصة إيجاد مقعد على طائرة ضعيفة جداً ، لذلك قررت أن أبحث عن وسيلة أخرى توصلني إلى أهلي بالمدينة . وجدت في المطار شابين من المدينة وضعهما مثل وضعي يبغيان الوصول إلى أهليهما ولا يجدان سبيلاً لذلك . الشبان مدرسان منتدبان من قبل وزارة المعارف لأعمال المراقبة في الامتحانات النهائية . سرعان ما انضمت إليهما وقررنا نحن الثلاثة أن نسافر بسيارة . لم يكن هذا قراراً غريباً بمفهوم اليوم فنحن نرى مئات المسافرين كل يوم بسياراتهم يقطعون الطرق الحديثة الممتدة في كل أرجاء المملكة . كان الوضع في تلك الأيام مختلفاً ، فالسيارة التي وجدناها كانت شاحنة كبيرة ذات حوض واسع

وعميق، وكانت هي الوسيلة الوحيدة المهيأة. كنا مصممين على قضاء العيد مع عائلتنا بالمدينة. تذكرت بطبيعة الحال الشاحنة التي عدت بها مع العائلة لأول مرة من سوريا إلى المملكة. لم أتردد كثيراً فقد سبق لي في رحلات التفتيش أيضاً أثناء العام الدراسي أن سافرت على سيارات كبيرة نوعاً ما. صحيح أن السفر بتلك السيارات كان مختلفاً؛ لأن إدارتنا كانت تستأجر السيارة خصيصاً لمفتش أو اثنين، وكان بإمكانهما السفر داخل غمارة السيارة وليس على ظهرها بطريقة لا تليق بمفتشين. . !

كان علي الآن أن أتخلى عن وقار الوظيفة وأسافر بالطريقة المتاحة خاصة إذا كنت أنوي قضاء العيد مع الأهل. وبعد مشاورة قصيرة مع الشابين اتخذنا نحن الثلاثة القرار بالسفر إلى المدينة على الشاحنة. في اليوم المقرر أحضر كل منا متاعه إلى حيث تقف السيارة استعداداً لبدء الرحلة. . . لحسن الحظ كان الموقف يقع في منطقة على أطراف مدينة الرياض في مكان فسيح خصص للسيارات المسافرة للمناطق المختلفة. معنى ذلك أن الاحتمال بأن يرانا أحد من معارفنا ونحن نتسلق جانب السيارة لنستقر في جوفها كان ضئيلاً. !

بدأت الرحلة بعد عصر أحد الأيام، وكنا نحن الثلاثة سعداء؛ لأننا مسافرون للتمتع بإجازاتنا بين أهلنا وذوينا بعد أن أنهينا أعمالنا مع نهاية فترة الامتحانات. . . في أغلب الأحيان يكون السفر مرادفاً لشيء مختلف عن نمط الروتين الذي يعيشه المرء، ودائماً يبعث على شيء من الإثارة، حتى وإن كان فقط من مدينة إلى أخرى في البلد نفسه. هكذا كنا نشعر ونحن في

حوض الشاحنة التي أخذت تتبختر في بداية انطلاقها الطويلة متجهة إلى القصيم ثم المدينة المنورة . . كانت كما قلت شاحنة ضخمة أخذت تتهاذى على الطريق الترابي الذي لم يسفلت بعد . . اتخذ كل منا لنفسه جانباً من الحوض الواسع وفي رؤوسنا سؤال لم نتفوه به وهو: كيف يهدر ذلك السائق كل الفراغ الموجود في ذلك الحوض الكبير من أجل ثلاثة مسافرين؟

ما إن ابتعد السائق عن الرياض وسلك الطريق المؤدي إلى القصيم حتى وضع كل ثقل قدمه على دواصة الوقود مطلقاً للشاحنة العنان لتسير بأقصى ما تستطيعه من سرعة . كان يبدو أنه هو الآخر يستعجل الوصول إلى المدينة المنورة ربما لأن له أيضاً عائلة أو زوجة تنتظره هناك . . أخذت السيارة تشق الطريق مخلفة وراءها سحباً عالية من الغبار ، وكانت بحجمها الكبير ، تقفز المطبات وكأنها مهرة جامحة . . سعدنا في البداية ولكن عندما وجدنا أننا لم نعد نستطيع الاستقرار في مكان معين بالصحن الواسع ، وأننا نتدحرج من جانب إلى آخر مع ما في ذلك من خطر اصطدام رؤوسنا بجوانب الصندوق أخذنا ندق بأقدامنا وأيدينا على ظهر " الغمارة " لتنبيه السائق إلى سرعته الزائدة . كان يبطئ قليلاً ثم لا يلبث أن يعود إلى اندفاعه الأهوج ونعود نحن إلى التطوح يمين ويسرة في جوف السيارة الفسيح .

كان أحد الرجلين المسافرين قد أحضر معه فراشاً كاملاً ، وما لبث أن أعلن أنه تعب واندس في فراشه تاركاً لي ولزميله مناوشة السائق حول سرعته المتهورة . ولت الأمر اقتصر على السرعة فقط ؛ إذ لم يمض جزء بسيط من الليل حتى توقف السائق استجابة لإشارة من مجموعة من البدو

كانوا يقفون على جانب الطريق . أخذ يتحدث مع أحدهم بما يظهر أنه يتفق معهم على إركابهم ، وما إن تم الاتفاق حتى ركبوا جميعاً ، وكانوا حوالي خمسة أشخاص . وحين ابتدأت السيارة في التحرك أشار واحد منهم إلى السائق بأن يتجه إلى يمين الطريق ، وهو ما فعله ، وسار حوالي كيلو متر ، ثم توقف عند كومة ضخمة من الأخشاب . ففهمنا أنهم يريدون نقل الأخشاب إلى المدينة المنورة . . كنت والأخ الثاني نشاهد ما يجري دون أن نحرك ساكناً ؛ إذ ماذا كان في وسعنا أن نفعله ونحن لم نستأجر السيارة بأكملها بل دفعنا فقط أجرة نقلنا من الرياض إلى المدينة . . نزل الجماعة وهجموا على كومة الأخشاب وأخذوا يقذفون بها من موقعهم على الأرض إلى باطن السيارة حيث كنا ما نزال نقف مشدوهين مما يجري محاولين تجنب إصابتنا بإحدى الخشبات المتطايرة . . أما أخونا مدعي التعب والمرض والمهندس في فراشه الدافئ فقد سقطت قربه خشبة كبيرة كادت أن تحطم رأسه .

انزويينا في ركن قصي من الحوض محاولين تهدئة ثورة الأخ النائم هذا الذي هاج وماج بعد أن أيقظته الجلبة التي أحدثها المسافرون الجدد ، وأخذ يهددهم بالويل والثبور ، ثم ما لبث أن استأنف نومه فجأة كما صبحا فجأة ، تاركاً لنا أن نتدبر الوضع الجديد الذي طرأ . صعد الإخوة الجدد مرة أخرى إلى صندوق السيارة ، وقد حاولنا عبثاً أن نجعلهم يجمعون حطبهم في ركن واحد ، إلا أن طلباتنا ذهبت أدراج الرياح . استأنفنا سيرنا وقد انتصف الليل الآن أو كاد ، وأخذ البرد يشتد علينا ، ولم يكن أحداً - الأخ الثاني وأنا - قد احتاط لمثل هذا الموقف بينما كان أخونا الثالث ملتفماً بالأغطية في فراش وثير

دافئ . كنا نتطلع إلى النعمة التي هو فيها وفرائصنا ترتعد من برد الليل . أخذ كل واحد منا يحاول أن يجعل من قطع الخشب الكبيرة درءاً ولو بسيطاً ضد الهواء البارد الذي أخذ يتسلل إلى عظامنا . لم نستطع طبعاً النوم ، وهذا لحسن حظنا ، إذ لو كان بالإمكان أن ننام لما استطعنا ذلك على أي حال ، فقد ارتفعت عقائر أبناء البادية بالحداء ، واستبدَّ بهم الطرب على ما يبدو ، وهيهات أن يتوقفوا ! كنت أظن أن الحداء هذا يحلو للحداء فقط وهم على ظهور الإبل في قلب الصحراء ، أما الآن فقد اكتشفت أن ابن الصحراء يعشق الحداء في كل زمان ومكان حتى وهو على ظهر شاحنة تنهب الأرض نهباً على طريق وعريين الرياض والقصيم والساعة بعد منتصف الليل والبرد قارس . . . !! جربت مرة أخرى أن أطلب منهم السكوت حيث قلت إن زميلنا مريض ونائم كما يرون ، ولكن كلامي لم يُجد معهم نفعا ، بل خيل إليّ أنهم ازدادوا انغماساً في الغناء ، وكأنهم مقبلون على معركة شرسة مع عدو متربص . . حاولت أن أتبع المثل الإنجليزي الذي يقول : إذا لم تستطع هزيمتهم فانضم إليهم ، ولكن وجدت أنني لا أفهم كلمة واحدة مما يقولون . . أسلمنا أمرنا لله وانكمشنا على أنفسنا كل في مكان نرتجف من البرد الذي ازدادت حدته مع تقدم الليل مما جعلنا لا نعبأ بتراب الطريق الذي أخذ يغطي بنا بكثافة .

سرنا هكذا إلى أن جاء وقت صلاة الصبح فوقفنا قرب مزرعة صغيرة كانت تظهر فيها أشباح نخلات بدت أشكالها مخيفة في الظلام الدامس . . لا شك أن السائق كان يعرف الطريق جيداً فقد أعلن عند طرف المزرعة أنه توجد بركة ماء صغيرة لمن يريد أن يتوضأ . . كان الوقوف في حد ذاته فرصة

رحبنا بها لالتقاط أنفاسنا وراحة آذاننا من حذاء زملائنا المسافرين ، علاوة على أداء فريضة الصلاة ، ثم تحريك أقدامنا قليلاً ، والتخفيف عن جنوبنا التي كانت تثن تحت ضغط جدران الصندوق القاسية والكدمات التي أصابتها من الأخشاب المتطايرة هنا وهناك تبعاً لحركة الشاحنة وميلانها .

توضأنا من ماء كان قريباً من درجة التجمد ، وأدينا فريضة الفجر ، ودعونا الله تعالى أن يسهل لنا ما تبقى من الرحلة . . كان المكان الذي وقفنا فيه في القصيم ، لا يبعد كثيراً عن مدينة الرس . تهيأنا لاستئناف السفر ، ولكن قبل أن نتسلق الشاحنة أقبل نحونا رجلان يسوقان أمامهما بضع عنزات وتيوس!! . ظننت أول الأمر أنهما قادمان ليسقيا ماشيتيهما من بركة الماء ، ولكنني سرعان ما اكتشفت خطئي عندما أخذ الرجلان يساومان السائق على الأجرة التي يطلبها مقابل إركابهما وعنزاتهما إلى المدينة المنورة!! التفت إلى رفيقي وقلت له : " هل تسمع ما يقوله ذلك الرجل للسائق؟ إنه يطلب منه أن يركبه هو وزميله وعنزاته وتيوسه معنا بالسيارة" . . كان رد زميلي : " عال . . الآن اكتملت الحفلة!" . قلت : " ما العمل ولا توجد وسيلة أخرى تنقلنا إلى المدينة؟" ولم أتوقع جواباً على سؤالي إذ كان علينا أن نقبل بالأمر الواقع ونسافر بصحبة المعيز والتيوس! .

أخذتنا فجأة نوبة من الضحك خاصة وأن الحيوانات أخذت طريقها إلى حوض السيارة بثقة كاملة وكأنها معتادة على مثل ذلك السفر وأنها تمتلك السيارة بأكملها . . اندست البهائم بين الأخشاب ولم تعبأ وهي تجد لها مكاناً أن تصطدم بنا ونحن نقبع في مكاننا الذي عدنا إليه قبل أن تحتله

الحيوانات وأصحابها . . كان زميلنا الثالث الذي أمضى وقته كله نائماً أو مدعياً النوم من النوع الرقيق الذي يتأفف من أي شيء ، والذي ينظر إلى الناس الآخرين من عل . كان ينظر حوله بتقزز وأنفة ، ويحاول قدر الإمكان أن يبقى في قوقعته . كان من ذلك النوع من البشر الذين يعتقدون بأن بقية الناس خلقوا ليقوموا على خدمتهم ، فإذا طلبوا شيئاً وجب على الجميع أن يكونوا دائماً رهن الإشارة ! . عندما انضم إلينا المسافرون من أبناء البادية في الطريق كدت أنا والمسافر الثاني تشابك بالأيدي معهم لأنهم لم يراعوا أي مبدأ للسلامة في رميهم أخشابهم فوق رؤوسنا ، ومع ذلك لم يحرك أخونا الثالث ساكناً ؛ بل لاذ بالسلامة تحت غطاءه المحكم . ولحسن الحظ أن الشجار لم يصل إلى الأيدي لأنهم كانوا أكثر عدداً منا وقطعاً كنا سننتهي " بعلقة ساخنة " . ولكن كل ذلك الآن أصبح سهلاً مقارنة بوجود المعيز التي أخذت تتجول في بطن السيارة . كان أحسن ما أعجبها لسبب ما هو شكل أحنينا الممدد والملفوف بفراشه . . فقد أخذت الحيوانات تمر فوقه ثم تعود أدراجها . ولم نستطع أن نكتم ضحكنا عندما هب مذعوراً عند أول تماس بينه وبين أحد التيوس . . وقف مذعوراً لا يصدق ما تراه عيناه خاصة وأن الموقف كان قبيل انبلاج النهار . . الوقت الذي ترى الأشياء المحسوسة فيه وكأنها أكبر من حجمها الحقيقي . مكث لحظات بلا حركات وكأنه كان يستعيد وعيه كاملاً ويتذكر أين هو . وفجأة انطلق بصراخ غير مفهوم اختلطت فيه الشتائم للبدو وماشيتهم وأخشابهم ولنا نحن زميليه . . كان يصرخ طالباً أن نقف في أقرب قرية أو مدينة نصل إليها حتى يقدم شكوى رسمية إلى أميرها . . ! كنت والزميل الآخر نغالب الضحك ، ونجاهد في أن

نبدو جادين ومتعاطفين ، بينما راح المسافرون الآخرون ينظرون إليه بلا أي اكتراث وكأن الصياح لا يعنيهـم .

هدأنا من روع أحيانا ما استطعنا . . وماذا كنا نستطيع غير ذلك؟ وأخبرناه أن الجزء الأكبر من الطريق قد انتهى ، وأنا عما قريب إن شاء الله سنكون في المدينة . ولم ننس أن نذكره بأننا قضينا ليلة ليلاء نقاسي من البرد الشديد بينما هو دافئ تحت فراشه ، وأن النهار قد طلع الآن وسوف يكون من السهل التعايش مع البدو وعنزاتهم وتيوسهم في ما بقي من الطريق ، خاصة وأن تلك الحيوانات أخذت تتقرب منا تشمنا وتحاول أن تعقد معنا تلك العلاقة الأليفة التي تنشأ عادة بين المسافرين في رحلة واحدة .

من الصفات التي يتصف بها الإنسان والتي أراها غريبة وتثير فيَّ حب البحث عن أسرارها هي سرعة تأقلمه مع ما يعترض حياته من أوضاع ومواقف وظروف مهما كانت جديدة وغير عادية . . ولشرح ذلك أقول : إنني عندما ركبت تلك الشاحنة الكبيرة لأول مرة كنت أرى أن ذلك لا يليق بموظف محترم مثلي يعمل مفتش لغة إنجليزية بوزارة المعارف . . !! كنت أرى أنني سأضحى بشيء من كبريائي بسفري بمثل هذه الشاحنة الضخمة ، وكنت حريصاً على ألا يراني أحد ممن يعرفني . . !! كنت في ذلك الوقت شاباً معتزاً بشبابي وفخوراً بعلمي وكأني قد تسلمت زمام الأمور في العالم كله !

أقول هذا توطئة للنتيجة التي أريد الوصول إليها . عند بداية الرحلة كانت ملابسي مثلاً نظيفة ، وكنت حريصاً على إبقائها كذلك . لم يدر

بخلدي أننا مقبلون على طريق صحراوي غير معبد، وأن الغبار والتراب سيرافقانا طوال الطريق، وسرعان ما ابتدأت أستسلم للتراب والغبار، ثم بدأت أغض النظر عن أي بقع أخرى قد يتسبب بها الطعام أو غيره دون أن يتوافر الماء لإزالتها أو حتى لغسيل اليدين . . وعندما انضم إلينا المسافرون بحطبتهم أصبحت قضية النظافة مسألة ثانوية تأتي بعد الحرص على السلامة الجسمية من الأخشاب المتدحرجة هنا وهناك. وجاء الاستسلام الأخير عندما انضم إلينا المسافران الآخران مع «معيزهما». عند هذا الحد تبخر كلية أي شعور بالأهمية الشخصية ناهيك عن النظافة. بل لقد خيل إلي أنني لم أعرف في حياتي وقتاً تمتعت فيه بنظافة ما، أو على الأقل لم أعد أذكر أن النظافة كانت ضمن اهتمامي. كانت الأغنام تتمسح بنا بألفة واضحة، بل كانت لا تتردد في التخلص من فضلات أمعائها ومثاناتها دون أي إحراج، كما أننا لم نجد ذلك غريباً أبداً وكأنه شيء عشنا معه طوال حياتنا!

شيء واحد فقط في النهاية جعلني أنتبه إلى نتيجة ما حدث، وهو أنني عندما وصلت إلي بيتنا بالمدينة وفتح لي أخي الباب لم يلبث أن أغلقه ثانية، فقد رأى أمامه مخلوقاً قائماً يشبه الإنسان إلا أن شكل ملابسه كان غريباً فهي لم تعد ذات لون معين بل أصبحت أشبه ما تكون بشكل ولون الطين الذي كان أجدادنا يغطون به جدران منازلهم، مع فارق هو أن طين أجدادنا كان أنظف وأطيب رائحة . . ! لم ألمه طبعاً حينما حاول قفل باب المنزل حالماً رأيي أمامه، ولكنني أسرعت بمناداته باسمه وأكدت له أنني أخوه!

طالب الدراسات العليا

لم يشأ الله تعالى أن أعمل مفتشاً مستقلاً، فقد نقلت في السنة التالية إلى جامعة الملك سعود معيداً في قسم اللغة الإنجليزية . . وفي نهاية العام كنت قد حصلت على قبول من جامعة ليدز بإنجلترا للحصول على ما يسمى دبلوم دراسة لما بعد الجامعة . وهذا يحتسب للدارس إن كان سيواصل للماجستير والدكتوراه .

تزوجت من ابنة عمي قبل أن أسافر إلى ليدز وكان ذلك في صيف ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م . أهم ما يميز الزوجات عندما يكن بنات عم هو أن العريس لا يدفع مهرأ! هذا طبعاً هذر أسوقه للمناسبة ، ولكن لما تزوجت لم يكن معي بالفعل أي دراهم على الإطلاق . في نهاية السنة الدراسية لي بجامعة الملك سعود صدر قرار مدير الجامعة آنذاك الأستاذ ناصر المنقور بتكليفني بالسفر إلى القاهرة لشراء بعض الكتب للجامعة . شمل القرار بعض الإخوان منهم الدكتور منصور الحازمي الذي كان زميلاً معيداً في الجامعة . كانت فرحتنا بالسفر إلى مصر لا توصف فنحن الذين أنهينا دراساتنا في مصر كانت القاهرة تشدنا بقوة إليها .

كانت فرحتنا أكثر من مضاعفة ، فنحن أولاً أنهينا سنتنا الأولى في التدريس ، وثانياً كان في جيب كل منا قبول من إحدى الجامعات الإنجليزية ، وثالثاً كانت إجازة ممتعة بالقاهرة علاوة على أننا مكلفون بمهمة رسمية من الجامعة ، وهذا يعني تأمين مصروفات الإجازة . وبالنسبة لي كان هناك سبب

آخر للسعادة، إلى جانب الأسباب التي ذكرت، بل فوق كل تلك الأسباب، وهو أنني تزوجت في ذلك الصيف.

لم يكن معي من المال ما يكفي لتغطية نفقات الزواج، ولم يطلب أحد مني أي مال. فقد قام عمي رحمه الله وخالتي (حماتي) أمد الله في عمرها بكل ما يلزم وهياً عرساً يتمناه أي شاب حتى ولو كان موسراً^(١). كان الصداق ربع جنيه مصري. عندما أريد الآن أن أثير حنق أم نزار أبدي أسفي الشديد لأنني لم أنتهز الفرصة في ذلك اليوم البعيد وأتزوج أربع زوجات مرة واحدة بالجنيه كله، ومبرراتي هي أنه لما تكون الزوجة بمثل صلاح زوجتي وفضائلها فإن من الغباء أن يكتفي الرجل بزوجة واحدة. ولكنها تحبيني دائماً أنه من المستحيل أن أجد امرأة مثلها حتى لو تزوجت أي عدد من النساء. ولا أجد في النهاية إلا أن أوافقها، وأحمد الله تعالى أنها قبلت بي زوجاً لها.

وصلنا إنجلترا وكنا أنا وزوجتي لا نزال نعيش أيام ما يسمى شهر العسل، ولو أن العسل لم يكن هو الشيء البارز في هذه الفترة، إذ من أين يأتي العسل وأنا لا أملك في جيبي إلا ما يكاد يكفي لقضاء بضعة أيام في أحد الفنادق الصغيرة المجهولة المنتشرة في شوارع لندن الجانبية. كانت الغرفة تؤجر بأقل من جنيه واحد في اليوم وتلك الفنادق - وإن صح تسميتها هكذا - لا تقدم للضيوف شيئاً على الإطلاق، سوى مكان للمبيت ولا شيء غير ذلك، بل إن على الضيف أن لا يطيل السهر خارج الفندق وإلا وجد الباب مقفلاً عند عودته المتأخرة.

(١) لقد توفيت حماتي رحمه الله قبل أن تخرج هذه الطبعة الثالثة من الكتاب.

انتقلنا من لندن إلى مدينة ليدز . ومدينة ليدز هذه ليست مثل غيرها من مدن إنجلترا، فهي بلد كئيبة تقع وسط المنطقة الصناعية في يوركشر شمال إنجلترا ومعظم سكانها من الذين يعملون في مناجم الفحم المنتشرة في المنطقة . صحيح أن جامعتها من أبرز جامعات إنجلترا ولكن لا يوجد شيء في المدينة غير ذلك . شتاؤها طويل مظلم لا ترى فيه شمس النهار إلا كقرص من نحاس أصفر ، هذا إذا أطلت من وراء طبقات الغيوم الكثيفة التي تغطي سماءها في معظم أشهر الشتاء الطويلة الممطرة حيث تغيب الشمس بعد وقت قصير من نصف النهار ، ويطول ليلها إلى ما يقرب من نصف نهار اليوم التالي ، كما أن الضباب يهبط بطبقاته الكثيفة معظم أيام الشتاء فيحيل الرؤيا فيها إلى ما يقرب من درجة الصفر . وكم هي المرات التي كنت أخرج فيها من المدرجات أو من مكتبة الجامعة فأجد الضباب كثيفاً لدرجة تجعل السير حتى على القدمين - ولم أكن أملك سيارة على أي حال - شبه مستحيل .

بعد وصولنا إلى ليدز وكأي شخص متزوج ومحترم - والاحترام يأتي من كوني كنت طالب دراسات عليا - بدأت البحث عن شقة ؛ وإيجاد شقة في إنجلترا بالنسبة لشخص أجنبي وملون ليس بالسهولة التي قد يظنها البعض . سكنت في البداية في فندق صغير - دائماً فندق صغير - على قدر الإمكانات المتواضعة . كنت أتبع عناوين الإعلانات ولكن ما إن تشاهدني مالكة البيت أو مالكة إلا وتعتذر أو يعتذر أن الشقة قد استؤجرت . استشرت شخصاً أعرفه فنصحتني أن أضع إعلاناً في إحدى الجرائد المحلية

أذكر فيه أنني مدرس متزوج وأبحث عن سكن مناسب . هناك دائماً تحفظات على الطالب وخاصة الأجنبي الملون ، ولكن حتى هذه الحيلة لم تجد نفعاً إذ إنني بالرغم من تلقي عدة خطابات وكلها تقول إن هناك شقة مناسبة ولكن ما إن أقدم نفسي للمالكة أو مالك الشقة إلا ويكون الجواب نفسه وهو إن الشقة قد استؤجرت وبالأأسف ! بل إنني لاحظت أن بعض السيدات كن يصبن بنوع من الصدمة أو الهلع عندما يفتحن باب مسكنهن ويشاهدنني وكأنني إرهابي جاء لاصطيادهن ؛ كان ذلك في الستينيات ولا أدري ما هو مصير الإنسان العربي الذي يبحث عن مسكن في هذه الأيام في مقاطعة يوركشر حيث تقع ليدز .

أخيراً عثرت على شقة ، والسبب أنني عثرت عليها هو أنني أعتقد أن ملاكها لم يجدوا لها مستأجراً غيري . كانت شقة كئيبة مظلمة باردة بها بعض قطع الأثاث القديم المهترئ الذي لا يصلح لشيء . اضطررت طبعاً لاستئجارها لأنه لم يكن هناك شيء بديل .

لم أكن إلى ذلك الوقت قد جربت أو تذوقت طعاماً من إعداد زوجتي . ولا أعتقد إلى هذا اليوم أن أي شاب يختار زوجته يفكر في ما إذا كانت عروسه تتقن الطبخ . أحضرنا طبعاً المعدات اللازمة لإعداد الطعام وأسهرت في صباح اليوم التالي لإحضار متطلبات الأكل حسب القائمة التي زودتني بها زوجتي . تركتها وأسهرت إلى الجامعة وأنا أمني نفسي لأول مرة بوجبة شهية من إعداد زوجتي . عدت بعد الظهر وما إن ولجت الباب إلى الداخل المظلم أصلاً حتى قابلتني سحب دخان كثيف طار صوابي حين وجدت

نفسي وسطه ورحت أصبح بأعلى صوتي منادياً زوجتي بينما يداي تحاولان تشتيت الدخان الكثيف الذي ملأ أرجاء المنزل العتيد . وتنفس الصعداء عندما جاءني صوتها من المطبخ تطمئنني أن كل شيء على ما يرام إلا أن الأكل احترق وتصادد دخانه ليملاً أرجاء الشقة . وكانت النتيجة أن تلمسنا كلينا طريقنا إلى الخارج لتناول أي شيء من أي مكان قريب نسد به رمقنا . كان عذر الزوجة أنها لسبب أو آخر غفلت عن قدر الطعام إلى أن احترق وملاً الشقة بالدخان ذي الرائحة الشهية ولكن دون طعام .

وتكررت حكاية احتراق الأكل لدرجة أنني أصبحت أتهياً له كل مرة قبل أن ألج الشقة . استمر الحال على ذلك لفترة إلى أن أتقنت أم نزار - ولم يكن نزار قد أتى بعد- الطبخ وصارت طبخة ماهرة ولكن بعد أن عضني الجوع مرات ومرات .

ربما يوافقني القارئ الرأي أن انتقال الإنسان البالغ من مرحلة ما في حياته إلى مرحلة أخرى ، هذا الانتقال يترك وراءه نوعاً من الحنين إلى المرحلة السابقة وأن الإنسان عموماً يحتاج إلى وقت قد يطول أو يقصر قبل أن يتكيف مع أي وضع جديد ، ولأضرب مثلاً على ذلك فإن انتقال الطالب مثلاً من مرحلة الدراسة إلى معترك الحياة العملية تترك حنيناً إلى أيام الدراسة وشوقاً إلى أوقات أجمل ما يميزها حرية كاملة وعيش خال من الهموم قد لا يجدهما بعد أن تكبله قيود الوظيفة وواجب العمل والالتزام بمتطلبات الحياة العملية . كذلك قضية الزواج نفسها حيث يجد الشاب نفسه فجأة وقد أصبح زوجاً مسؤولاً عن زوجة وبيت ومسؤوليات وواجبات كان

قبل أن يرتبط بالرباط المقدس كما يسمونه حراً لا يعكر صفو حياته شيء من ذلك . ولم أشد أنا عن هذه القاعدة الأبدية إذ كنت أشعر أنني الوحيد الذي كبلته مسؤوليات الزواج وواجبات الحياة الزوجية بينما كنت أغبط زملائي في إنجلترا حيث هم جميعاً أحرار لا يقيدهم شيء مما كنت أنوء أنا تحت وطأته ، أو بالأحرى أتخيل أنني أنوء تحت وطأته ؛ إذ لم ألبث أن أدركت أنني كنت الأسعد وضعاً والأكثر استقراراً من غيري من الزملاء الذين سرعان ما انضموا إلى قافلة المتزوجين على فترات ليست متباعدة .

على أي حال كان الشعور الذي انتابني في البداية خاصة ونحن في بلد جديد ومجتمع وأجواء جديدة علي أنني كنت الإنسان الوحيد الذي افتقد الحرية وما يتبعها من متع الحياة وعلى هذا فما إن أعلنتني زوجتي أنها حامل وأنها تفضل أن تكون وسط عائلتها عند وضع طفلها الأول حتى رحبت بالفكرة ورتبت سفرها للعودة . كنت أظن أنني سأمتع أخيراً بالحرية التي افتقدتها طوال الشهور الماضية ، ولكن ما إن أوصلت زوجتي إلى الطائرة - وكان هذا بلندن طبعاً - إلا وأحسست أن الدنيا كلها قد ضاقت بي بل إنني لم أتمالك نفسي من البكاء عندما أقلعت الطائرة ووجدت نفسي «وحيداً» في لندن .

كان الوقت في ذلك العام هو نهاية الفترة الدراسية وحيث إنني كنت في لندن وهناك زملاء ابتدؤوا دراساتهم العليا في نفس العام الذي بدأت دراستي فيه ، فلم يكن بد طبعاً من الاتصال بهم في تلك الساعات التي شعرت بالوحدة فيها . كان واحداً من الزملاء أولئك الصديق منصور

الحازمي الذي كان قد وصل إلى لندن في الوقت نفسه الذي وصلت فيه . كنا عملنا معاً منصور وأنا معيدين في جامعة الملك سعود كما سبق أن ذكرت في مكان آخر من هذا الكتاب . كان منصور مثل غيره من الزملاء لم يتزوج بعد . أمضيت بضعة أيام في لندن في صحبته وباقي الزملاء . ولا أدري كيف جاءت فكرة أن نقوم منصور وأنا برحلة إلى أوروبا نبدأها من لندن ونزور فيها عدداً من البلدان الأوروبية . كان الوقت والظروف مناسبين وسرعان ما اتفقنا على أن نبدأ رحلتنا من العاصمة البريطانية على أن تنتهي في فيينا في النمسا مرة واحدة ، ثم عند العودة نتوقف في بلدان اخترناها من البلاد التي يمر عليها الخط الحديدي الذي اخترنا السفر به لمناسبته ورخص أسعاره .

كانت الرحلة التي استغرقت أكثر من ست وثلاثين ساعة إلى فيينا مرهقة إذ إننا وكما هو متوقع سافرنا في أدنى درجة بالقطار المسمى أو الذي كان يسمى قطار الشرق السريع . في تلك الدرجة لا يوجد هناك مثلاً طعام أو أي شيء من وسائل الحياة المعقولة ناهيك عما يدخل تحت بند الرفاهية . أمضينا يوماً وليلة في القطار ونحن نئن من الجوع والتعب . كان ما يملكه كل واحد منا لا يزيد على العشرين جنيهاً أسترلينياً ، كان الجنيه في ذلك الوقت يساوي شيئاً محترماً وليس مثل ما يساويه اليوم . كنا حريصين جداً على ثروتنا المتواضعة بحيث إنه حتى عند وصولنا إلى محطتنا النهائية بعد ليلة مزعجة ركبنا في حافلة عامة ولم نأخذ سيارة أجرة توفيراً لنقودنا القليلة .

وصلنا قلب العاصمة فيينا وكل منا يحمل حقيبته الصغيرة التي حوت

متاعه وأخذنا نبحت عن فندق مناسب - ومناسب تعني فندقاً رخيصاً بغض النظر عن وسائل الراحة فيه . ولحسن حظنا عثرنا بعد بحث وجيز على الفندق المطلوب . كان بناء قديماً بأثاث قديم جداً أخبرونا أنه يعود إلى عهود غابرة عندما كانت النمسا أمبراطورية . كانت السرر في غرفه الواسعة ضخمة فخمة يدل شكلها فعلاً أنها عاشت أياماً مجيدة ونام فوقها أناس مهمون ؛ بل لقد أخبرونا أن بعض أباطرة النمسا ربما ناموا فوقها . لكن المشكلة لم تكن في الفندق ولا في شكل سرره وغرفه بل كانت مع منصور الذي أصر منذ لحظة أن وطئت أقدامنا قيينا أن يبحث عن ليالي الأنس فيها . «الآن وقد وصلنا قيينا يجب أن نعيش ليالي الأنس التي غنت بها أسمهان» ! هكذا راح منصور يردد . أين نجد ليالي الأنس ونحن شاوين في بلد لم نطأ أرضه قبل ذلك ولا يزيد ما في جيب أحدنا على العشرين جنيهاً؟ .

ولم يكن أمام منصور إلا أن يرضى بنهارات الأنس في قيينا بدل لياليها إذ لم يكن أمامنا إلا أن نجوب شوارع قيينا وميادينها ونشاهد تماثيلها وحدثاتها وشوارعها الضيقة كي لا نرهق ميزانيتنا المتواضعة جداً .

توقفنا في طريق العودة في بروكسل ولم تكن سياحتنا فيها تختلف كثيراً عنها في قيينا : البحث عن فندق متواضع واقتصار تناول الطعام على «سندويتشات» وأكلات خفيفه لا ترهق الميزانية . في المحطة التالية وصلنا ميونخ في ألمانيا واستمر الحال كما كان عليه في المدينتين السابقتين واستمر أيضاً بحث منصور عن ليالي أنس ولو خارج قيينا . حصل في ميونخ أن توقفنا في طابور طويل يقف مقابل كشك صغير يبيع أسياخاً من قطع لحم

شديدة الصفار مثل ذلك الذي نسميه هنا شيش كباب . وقفنا بالطابور إلى أن جاء دورنا وأخذ كل واحد منا سيخاً وأكلناه ووجدناه لا بأس به علاوة على أنه رخيص ، وعدنا مرة أخرى ووقفنا في الطابور واشترينا سيخين آخرين ، وبعد أن أتينا عليهما سألنا عن نوع تلك الوجبة ووجدنا لدهشتنا أنها كانت قطع كبدة وكلاوي خنزير!!

من بين المدن الصغيرة الجميلة جداً التي تحوي أعداداً هائلة من القصور القديمة والحدائق الغناء والمناظر الخلابة مدينتا سالزبورج وإنزبروج ، وهما بلدتان سياحيتان صغيرتان في النمسا . قضيت أنا ورفيق السفر منصور بضعة أيام في كل من المدينتين كانت من أجمل أيام الرحلة ، ومما زاد في جمال الإقامة في سالزبورج بصفة خاصة أننا نزلنا في فندق كان كل من يعمل به نساء! فتيات في الاستقبال وفتيات في الاستعلامات وفتيات في الكافيتريا والمطعم وفي كل مكان في ذلك الفندق . كان ذلك دون شك شيئاً مثل مفاجأة سارة لنا ، فلم نعد بحاجة إلى أن نغادر الفندق إذ إننا ضمنا خدمة ناعمة جيدة دون البحث عنها خارج مكان إقامتنا . الشيء الوحيد الذي لم نلق له تفسيراً إلى الآن وبعد كل السنين الماضية أننا حاولنا لمدة أربعة أيام كاملة كل صباح أن نفطر بيضاً وفي كل مرة كنا نفشل في أن نشرح للعاملين في المطعم أننا نريد بيضاً . كان بعض زبائن الصباح يتبرعون بمساهماتهم بالشرح لكنني أعتقد أنهم كانوا يزيدون الوضع غموضاً ، أما منصور وأنا فقد قمنا بكل حركة ممكنة بما فيها تحريك الأيدي تقليداً لعملية الطيران وضم قبضة اليد على شكل بيضة ولكن دون فائدة . ولم أعد أذكر إن كان أحدهما قد قلد صوت الدجاجة أم لا ، إنما أذكر أننا قمنا بكل الحركات

الممكنة التي تقول إننا نريد أن نفطر بيضاً . وغادرنا سالزبورج وفي قلبينا غصات أليلة سببها أننا لم نأكل بها بيضاً .

* * *

بعد الحصول على الدبلوم من جامعة ليدز عدت إلى الرياض وعملت مساعداً لمدرس في قسم اللغة الإنجليزية نفسه . وبعد سنة من زواجي رزقت بابنتي الكبرى وكنت ما أزال في إنجلترا . . وبعد سنة أخرى ، وكان ذلك عام ١٩٦٣م ، سافرت للحصول على شهادتي الماجستير والدكتوراه من الولايات المتحدة . ولن أطيل المكوث عند هذه المرحلة من حياتي لأنه لا يوجد فيها شيء غير عادي يستحق الإطالة إلا أنني أود أن أقول شيئاً عن سفري إلى أمريكا وعودتي منها .

إلى أمريكا - بعد دبلوم ليدز

سافرت وزوجتي إلى أمريكا بعد دبلوم ليدز، وكانت ابنتنا الكبرى في ذلك العام (١٩٦٣م) لها من العمر حوالي سنة واحدة. توقفنا في طريق السفر في لندن حيث إن الرحلة كانت بالباخرة من ساوث هامبتون إلى نيويورك. كانت إقامتنا في لندن ممتعة حيث كان زملاء الدراسات العليا ما زالوا بإنجلترا وقضينا معظم وقتنا معهم. وعندما حان وقت السفر توجهنا من لندن إلى ساوث هامبتون في واحدة من الحافلات التي تنقل الركاب بين المدينتين طوال النهار والليل. وصلنا إلى ساوث هامبتون وقصدنا الميناء. كانت الباخرة هي "الملكة اليزابيث" وهي باخرة عملاقة تملكها شركة كيونارد التي تمتلك أيضاً بعض السفن الأخرى عابرات المحيطات المتميزة بالضخامة والفخامة. لم يسبق لي السفر بباخرة من قبل، ولذلك فقد كان اختيار البحر نوعاً من التطلع للإثارة والمتعة وتجربة الجديد. وقد رحبت زوجتي أيضاً بالفكرة. ومن حسن الحظ أن ابنتي كانت لا تزال طفلة، ولم تكن مؤهلة للاشتراك في اتخاذ قرار السفر بسفينة وإلا لكانت عارضته بشدة لأنها تعاني من مشكلة دوار البحر. وصلنا إلى الميناء، ودخلنا من باب واسع إلى ممرات وردحات فسيحة زينت جدرانها بلوحات جميلة، وتدلّت من سقفها ثريات متألّئة، ورصت على جوانبها مقاعد فخمة وثيرة. قصدنا مع ساع قام بإرشادنا إلى مكتب الاستقبال لتسجيل وجودنا والتعرف إلى رقم الغرفة التي سنشغلها أثناء الرحلة، وبعد التسجيل والتوقيع على

بعض الأوراق سألت الكاتب بسذاجة عن موعد ذهابنا إلى السفينة . . !
 وضحك الرجل وأخبرني أننا موجودون على ظهر السفينة ، وكنا كذلك
 طوال الوقت منذ أن غادرنا الحافلة . عجبت أن كل ذلك المبني الضخم وتلك
 الردهات والممرات والصالات والمكاتب - كل ذلك كان جزءاً من السفينة
 التي كنت أظن أننا لم نصل إليها بعد وأن ما نحن فيه كان مبنى الشركة .

السفينة " الملكة اليزابيث " هي واحدة من الإنجازات التي حققها الإنسان
 فهي نتاج عمل عملاق يدل على إمكانيات العقل البشري الذي هيا الله تعالى
 له قدرات عظيمة لينجز أعمالاً فذة . هذه السفينة تعتبر في الواقع مدينة
 متكاملة عائمة ، فهي تضم أجنحة وأقساماً وغرفاً عديدة ، وتضم أيضاً
 حوانيت ومطاعم ودوراً للسينما وبرك سباحة وأماكن للترفيه وحضانة
 للأطفال ، كما أن فيها جريدة يومية وإذاعة . وباختصار لا يشعر الراكب أنه
 مسافر ؛ بل يشعر كأنه انتقل فقط إلى بلد جديد يجد فيه كل يوم أشياء جديدة
 وأنماطاً مختلفة من البشر . إنه عالم متكامل قائم بذاته . ميزته أنه عالم
 محدود ، صغير ، لكنك تجد فيه كل نماذج المخلوقات ، ولأنه عالم متكامل
 فأنت بدون شك ترى وتحسّ بكثير من سكانه . هناك الرجل العجوز الغني
 الذي تأبط ذراع زوجته التي تقاربه سناً وهما يمشيان الهوينى كل يوم مع
 الصباح الباكر في ممرات السفينة الطويلة . وهناك المرأة التي تسافر بمفردها ،
 والتي تتفنن كل صباح في انتقاء الملابس التي تبرز فتتها ، وفي اختيار المكياج
 المناسب لوجهها بعد أن تكون قد أمضت وقتاً غير قصير أمام المرأة لهذا
 الغرض . وهناك الشاب الذي اختار السفر في الباخرة حباً في المغامرة ،
 وربما للخروج بقصة أو قصص يتباهى بها أمام أقرانه بقدرته على غزو قلوب

النساء . وهناك أيضاً العائلة المتعددة الأفراد التي يقضي قطباها - الأب والأم - جل وقتها يلملمان أطفالهما كي لا يضيعوا في ممرات السفينة العديدة . كل الأنماط والأشكال تجدها على ظهر سفينة بحجم " الملكة اليزابيث " . والسفينة بعد ذلك مقسمة إلى درجات : فهناك الدرجة الأولى التي يتمتع مسافروها بالسكن في غرف أو أجنحة فسيحة فخمة ذات فرش وثير ويتوفر لها كل ما يتبع ذلك طبعاً من المتع الدنيوية الأخرى ، وهناك الدرجات الأقل من ذلك ، كما أن هناك الكبائن الصغيرة الضيقة التي لا تكاد تتسع لأكثر من شخص أو اثنين على الأكثر ، وهذا ما كان نصيبنا من تلکم المدينة العائمة . خصصوا لي ولزوجتي ولابتنا الصغيرة كابينة كأنها الجحر ضاقت بنا ، وضقنا بها ، فكنا نجد الخلاص في قضاء أغلب أوقاتنا خارجها .

كانت توجد مساحات عامة كبيرة في الأدوار المختلفة . وقد لا أكون ذكرت أنك عندما تدخل المصعد تجد أن في السفينة ما لا يقل عن أربعة عشر طابقاً . !! كنا نذهب طبعاً إلى الأدوار والأماكن المسموح بها للمسافرين من درجتنا . أحياناً تختار زوجتي أن تبقى في غرفتها فأخرج مع ابنتي لنجلس بجانب حوض السباحة أو لأخذها إلى دار حضانة في أحد طوابق السفينة . في تلك الدار ، وهي عبارة عن منطقة ملاه للأطفال ، كنت أشاهد باستمرار سيدة معها أيضاً طفلان تأتي بهما ليلعباً مع باقي الأطفال . كنا نترك الأطفال يلعبون ، ولأننا كنا ننتظرهم كما يفعل الآباء والأمهات مع باقي أطفالهم ، فقد كان لا بد أن نتبادل الحديث نحن الكبار لقضاء الوقت . عرفت من حديثي العابر مع تلك السيدة أنها مسافرة لتلحق بزوجها الذي يعمل في الأمم المتحدة في نيويورك ، وعرفت هي أنني مسافر مع زوجتي

وابتني للدراسة في الولايات المتحدة. كنا نواصل الكلام والأولاد يلعبون، وفهمت منها أنه مضى عليها أكثر من سنة وهي بعيدة عن زوجها الموجود في أمريكا. كانت سيدة أمريكية شابة، وكان زوجها غير الأمريكي ينتظر قدومها عليه في نيويورك. كنت ألاحظ أن السيدة تتوقف فجأة عن الحديث، وتنظر حواليتها محذرة بأن زوجتي قد تهبط علينا فجأة...! كنت أؤكد لها كل مرة أنه لا يوجد ما يمنع أن تصل زوجتي لأنني أخبرها دائماً أين سأكون على السفينة، وأنه لا بأس أبداً أن تصل فجأة أو غير فجأة. وفي إحدى المرات دعنتني لزيارة غرفتها لأرى إن كان هناك فرق بين حجرتنا وحجرتها!. لبّيت الدعوة بعفوية ودون تردد، ووجدتها فعلاً تسكن في جناح فاخر لا تجد مثيله إلا في الفنادق من فئة الخمسة نجوم. ألقيت نظرة على الغرفة فإذا بي أكيل في سري كل أنواع الشوائم للأوغاد الذين أعطونا جُحراً لا يشجع أبداً على السفر بالبحر مرة ثانية. وهنأت السيدة على السعادة التي تتقلب فيها في تلك الرحلة، وعدت إلى الحضانة لأعود بطفلتي إلى أمها. لم أنس طبعاً أن أخبر زوجتي بما رأيت، ووعدتها أننا إذا تحسنت أحوالنا في المستقبل فسوف نسافر بالباخرة ولكن كما يسافر الموسرون...!!

وصلنا إلى نيويورك وعند مغادرة الباخرة لمحت السيدة صاحبة الجناح الفخم وأم الطفلين، وكان من البديهي أن أودعها وأتمنى لها إقامة سعيدة مع زوجها في نيويورك. لكن كل ما فعلته كرد على توديعي لها هو أن رمتني بنظرة استغرقت بعض الوقت لأدرك مغزاها...!!

كنت قد سجلت لدراسة الماجستير والدكتوراه مع جامعة نبراسكا في

لنكولن . ونبراسكا واحدة من ولايات الوسط الأمريكي ، وهي جزء من منطقة السهول العظمى في أمريكا الشمالية حيث تسافر من أقصاها إلى أقصاها دون أن تشاهد مرتفعاً أو حتى تلاً إلا فيما ندر . فأرضها منبسطة تماماً ولذلك فهي مثالية لزراعة القمح والذرة وغيرها من أنواع الحبوب . وتشتهر نبراسكا بمراعيها المنبسطة الواسعة مما جعل سكانها يسمونها " ولاية البيف " ، والبيف هو البقر أو بالأخص لحم البقر . والولاية حارة رطبة في الصيف وشديدة البرودة في الشتاء حيث تأتيها الرياح الباردة من الشمال فتجمد في أشهر الشتاء كل شيء تمر عليه . مكثت في تلك الولاية سنة واحدة حصلت بعدها على الماجستير ، ثم اخترت أن أتركها إلى مدينة البوكيركي ، العاصمة التجارية لولاية نيومكسيكو ، إحدى ولايات الوسط الجنوبي ، وبعض مناطقها شبه صحراوية وتذكرني ببلدنا . زاد عدد أصدقائي في البوكيركي حين قدم إليها الأخ الدكتور عزت خطاب الذي حصل فيما بعد على درجة الدكتوراه من جامعة الولاية . وكان هناك في البوكيركي أيضاً عدد من الطلبة العرب من مصر والعراق وسوريا إلى جانب اثنين من الإخوان السعوديين هما عبدالرحمن داود وإحسان جوهرى فلمبان . كان الأخ عزت متزوجاً وله أيضاً بنت واحدة ثم رزق بغلام أسماه أحمد في البوكيركي . وبعد فترة قصيرة ولد ابني نزار . أما الإخوان الآخرون فقد تزوجا وهما في البوكيركي . شكلنا نحن الأربعة عائلة واحدة متفاهمة متألّفة . لم يكن هناك الكثير لنعمله في نهايات الأسبوع لأن مرتبات الطلبة في ذلك الوقت لم تكن كبيرة بما يسمح بارتياح أماكن النزهة خارج البيت . لم يكن راتب الدارس ، سواء كان متزوجاً أو غير متزوج ، يزيد على مائتين

وخمسين دولاراً. (زيدت المرتبات فيما بعد كما خصصت علاوات للزوجة والأولاد. وللأسف لم نتمتع نحن بتلك الزيادات فقد عدنا إلى المملكة قبل أن تتم على الرغم من أنه كان لنا نصيب في السعي من أجل تأمينها). كنا نجتمع في نهاية الأسبوع في شقة أجدنا ونلعب المونوبولي، اللعبة المعروفة التي نالت شهرة واسعة جعلت من مخترعها إنساناً غنياً.

لم يكن المخصص الذي ذكرت يكفي لمعيشة عائلة مكونة من أربعة أفراد لا سيما وأن أجرة الشقة وحدها كانت عبارة عن مائة وخمسة دولارات بالكمال والتمام؛ فماذا عن باقي المرتب؟ كانت زوجتي تسرع إلى السوق وتشتري مواد غذائية بمائة دولار أخرى، أما الخمسون الباقية فكانت تصرف لشراء وقود للسيارة مع الاحتفاظ بمبلغ بسيط للطوارئ. من حسن حظنا نحن المبتعثين للدراسة العليا ممن سبق تعيينهم قبل السفر على وظائف في الجامعة - كما هو الحال بالنسبة لي، وكذلك بالنسبة للبعض الآخر ممن يعملون في الحكومة - من حسن حظنا أنه كان يصرف لنا نصف مرتباتنا من وظائفنا إضافة إلى راتب الطالب. لم يكن المرتب في تلك الأيام كبيراً فهو لم يزد في معظم الحالات عن ألف ريال ونصفها طبعاً خمسمائة. فكان حتى ذلك النصف مع راتب الدراسة لا يكفي لمن كان مثلنا مسؤولاً عن إعاشة عائلة. كلما ذكرت ذلك دعوت بالخير للأخ محمد العتيبي، ابن خالتي، الذي كنت ألقاً للاستدانة منه كل بضعة أشهر، ولم يتقاعس أبداً عن إرسال المبلغ الذي كنت أطلبه حالما يستلم خطابي. كم من الأيام اضطررت فيها إلى المشي على قدمي إلى الجامعة لأنه لم يكن لدي ما أشتري به البنزين للسيارة. المشي رياضة مفيدة على أية حال إلا إذا كان البرد قارساً

والشوارع مغطاة بالجليد . وكان يحدث في بعض الأحيان أن تنفذ مؤونتنا من الطعام وهو أمر محرج للكبار إذا كان في البيت أطفال صغار لا بد من تأمين الطعام لهم . وكنا في هذه الحالة نوحّد جهودنا لتوفير شيء يؤكل ؛ ونحمد الله فلم يحصل أن جعنا حيث كان لا بد أن نجد في مطبخ إحدى الزوجات شيئاً يقيم الأود .

كنا عندما تفرغ الثلاثات من الطعام نسرع إلى التلفون لنستحث الملحق الثقافي في نيويورك للإسراع بإرسال المرتب ، وكان حزننا شديداً عندما يجيبنا بأن المرتبات لم تصل من الجامعة ويضع السماعه . . ! كنت في تلك الحالات أغلي من الغضب ومن فداحة خيبة الأمل . وكما ذكرت لم يكن الله تعالى ليتخلى عنا ، فقد كنا دائماً نجد ما نقدمه للأولاد الصغار ولأنفسنا في أشد حالات الضيق . والغريب أن زوجتي التي نشأت وتربت في بيت الخريجي الكبير عندما كان ذلك البيت وأهله في أوج عزهم ، وكانت هي الطفلة المدللة لدى كل سكان ذلك المنزل الضخم لأنها كانت الأنثى الأولى به ، أقول الغريب أن زوجتي أم نزار كانت هي التي تهون الأمر عليّ بكلماتها الرقيقة العذبة التي تسوقها بطريقة مدعومة بالمنطق والمبررات المقنعة مما كان يجعلني في النهاية أعود إلى هدوئي لألوم النفس على سرعة انفلات الزمام وأستغفر الله وأستعيذه من شر الغضب . وحين أتحدث الآن عن حوادث مضت أجد لنفسي بعض العذر لانفعالها في تلك الأيام من جراء ضائقة طارئة لأن الرجل هو المسؤول عن شؤون عائلته والمتكفل بمعيشتهم . على الجانب الآخر تأتي الزوجة دائماً لتخفف عن زوجها وطأة هموم الدنيا ، وتظهر له الجانب المبتسم المتفائل من الحياة . الزوجة الصالحة كما

يعرف المتزوجون الذين رزقهم الله زوجات صالحات هي أجمل ما في الحياة. إنها الركيزة التي يقوم عليها المنزل السعيد والعمود الذي يحمل كل أعباء الأسرة. لا شيء في الدنيا يعادل ابتسامة زوجة تقابل بها زوجها وهو عائد من عمله، أو حين تودعه وهو ذاهب لتصرف شؤون حياته وحياة عائلته. الزوجة الصالحة هي السكن وهي الرحمة التي خلقها الله لإسعاد الزوج. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. صدق الله العظيم. كم من المرات يعود الرجل إلى بيته، وقد أنهكتة هموم العمل ومشاغله، وتكالت عليه شرور الناس والحياة، ولكن ما إن يدخل بيته، وتقابلته نظرات زوجة حانية، وتلامسه يد زوجة محبة، حتى تختفي الأحزان، ويتلاشى التعب، وترتد السكينة والطمأنينة إلى كيانه، وتعود له ثقته بنفسه وبالحياة كلها. ولا أعتقد أنني أوتيت من الفصاحة والبلاغة ما يؤهلني لأن أعبر بدقة عن مشاعري نحو زوجتي الحبيبة فيكفي إذن أن أضيف شيئاً واحداً فقط هو أنني مهما قلت في الزوجات الصالحات فيقيني أن أم نزار تبزهن جميعاً، ولا أملك إلا أن أرفع الشكر لله تعالى على ما حباني به من حبها لي وحبها علي، وأشكره وأحمده إذ مكنتني من أن أجزيها حباً بحب ووفاء بوفاء.

أمضيت مع عائلتي أربع سنوات في الولايات المتحدة وكانت فترة لا تزال ذكرها الجميلة والحنين إليها يسكن في وجداننا. لم نكن من هواة الإكثار من السفر والتنقل داخل الولايات المتحدة، ولكن ذلك لم يمنع قيامنا من وقت إلى آخر برحلة إلى هنا أو هناك. من هذه الرحلات القليلة رحلة مع العائلات قمت بها أنا والأخ عزت. كانت سفرة قصيرة لبضعة أيام.

أحب الأخ عزت أن يعود لزيارة ميتشجان، الولاية التي درس فيها عندما وصل إلى أمريكا والتي حصل من جامعتها على الماجستير. أعددنا العدة بعد أن حرص كل منا قبل السفر على دفع أجرة الشقة وتأمين مؤونة تكفي الشهر أو معظمه. سافرنا وعشنا أياماً طيبة مريحة نسينا خلالها هموم الدراسة ومتاعب الأبحاث. في العودة كان علينا أن نقضي ليلة في الطريق، وطرق أمريكا السريعة مشهورة بالموتيلات التي تقوم على أطرافها بكثرة. كان مبيتنا في واحد من تلك الموتيلات، وهي بالمناسبة عبارة عن فنادق صغيرة غالباً ولو أن بعضها يتضخم حتى يصبح أكبر من فندق وذلك على الطرق المزدحمة. الموتيل الذي نزلنا فيه لا يبعد كثيراً عن البوكيركي. استأجر كل واحد منا غرفتين واحدة له ولزوجته والثانية للأولاد. كنت قبل وصولي قد ملأت خزان السيارة بالبنزين وتأكدت أم نزار وأم أحمد أن أولادهما أكلوا شيئاً قبل النوم. عندما دخلت غرفتي مع زوجتي كان قد بقي معي من ميزانية الرحلة ربع دولار. لم نكن أنا وزوجتي قد تناولنا أي عشاء والربع دولار لا يكفي لشراء أي شيء حتى ولو كان قطعتي هامبورجر. سلمنا أمرنا لله وتمددنا على السرير استعداداً للنوم. لفت نظري على رأس السرير زر وبجانبه شق لإدخال العملات. قرأت الإرشادات ووجدت أن السرير يهز النائمين عليه إذا أدخلوا نقوداً في الشق المذكور، ضحكنا من الفكرة ومن مهارة هؤلاء الأمريكيان الذين يأتون كل يوم بجديد للحصول على أكبر المكاسب من أعمالهم. ثم تذكرت ربع الدولار الذي بقي معي. تطلعت إلى زوجتي التي قرأت أفكارى وبادرتني تقول: "أولاً نحن مرهقون من سفر الطريق، وسوف ننام دون هز، وثانياً لا يوجد معنا نقود،

وعليه أغمض عينيك ونم " . كدت أستسلم لرأيها إلا أنني أتيتها بحجج لم تستطع أن ترد عليها، وهي أن الأولاد تعشوا وناموا، والسيارة فيها من البنزين ما يكفي، وغداً نكون إن شاء الله في بيتنا، وثلاجتنا تركناها عامرة، ومعنا ربع الدولار هذا وهو لا يكفي لعشاء ولا لأي شيء آخر، فلماذا لا نسقطه في هذا الشق ونمتع أنفسنا باهتزاز ذلك السرير العجيب! وهكذا كان وغمنا إلى الصباح نحلم بالوصول إلى منزلنا في البوكيريكي .

وللدراسة في أمريكا ذكريات

هناك شيء آخر أود أن أذكره هنا، وأسجله في الواقع بشيء من المراحة والألم. ذلك أنني أثناء الدراسة، وفي سنة من السنين، قررت أن أشارك في الاجتماع السنوي لمنظمات الطلبة العرب بأمريكا. في كل جامعة أمريكية بها طلبة عرب توجد جمعية للطلبة العرب، وتجتمع كل الجمعيات في مؤتمر سنوي عام يختار القائمون عليه مدينة معينة للاجتماع. كان الاجتماع ذلك العام في مدينة بولدر في ولاية كلورادو القريبة من نيومكسيكو. قررنا -الأخ عزت خطاب وأنا- أن نحضر الاجتماع كل مع عائلته؛ لأننا اعتبرنا ذلك واجباً قومياً، ولأن مقر الاجتماع في مدينة قريبة من مدينتنا، وتوكلنا على الله، وأعددنا العدة للسفر. وقمنا قبل كل شيء بفحص السيارات اللتين سننطلق بهما إلى مدينة بولدر في كلورادو. كانت سيارتي جيدة لا بأس بها، أما سيارة الأخ عزت فقد كانت عربة هرمة من ذلك النوع الذي يغري المشتري لأول وهلة بفضل ما غطى لوحة القيادة فيها من أزارير حتى أن عصا تغيير السرعات استبدلت بأزرار مما أغرى عزت بشرائها.

بالمناسبة سيارة عزت تلك أصبحت بعد فترة تسير في اتجاه واحد فقط إذ يمكنها أن تلف إلى اليمين فقط وتأبى أن تنحرف إلى اليسار، ولذلك كان عزت عندما يعود من الجامعة إلى بيته يسير في اتجاه أمامي ثم ينحرف إلى اليمين، ثم اليمين مرة أخرى حتى يعمل شكل مربع ويصبح منزله في اتجاه

مستقيم أمامه وبدون ذلك لا يصل إليه . . ! وكان يصبر مع ذلك أنها من السيارات الفخمة النادرة . . ! نادرة قطعاً ولكن الفخامة كانت شيئاً مشكوكاً في صحته .

بدأنا رحلتنا صباح أحد الأيام متجهين إلى بولدر بكلورادو، ولا أذكر المسافة الآن بين البوكيركي وبولدر، ولكن أذكر أن سيارتي كانت نشطة بينما سيارة عزت كانت تلهث ورائي . . وكلما طلبت من عزت أن يزيد سرعته حتى لا يفوتنا الاجتماع كان يقول إن سيارته تسير بسرعة كبيرة وأنه لا يكاد يسيطر عليها عندما يكون الطريق منحدرًا . . !!

وصلنا إلى بولدر إلا أن ما لقيناه في اجتماع الإخوة الطلبة العرب جعلني أتمنى لو أننا لم نصل ولم نحضر ذلك الحدث السنوي البائس . حضر الاجتماع عدد كبير من الطلبة إلا أنه بدا لي أن هدفهم الأول النزاع والصراع بين بعضهم البعض . . ! كان شيئاً مخجلاً محزناً في ذات الوقت . ! لم يكن هناك هدف معين، ولم تكن هناك نية للوصول إلى هدف، بل كان القادمون قد عقدوا العزم على الشجار والخلاف وتصفية حسابات قديمة . . ! كانت هناك مجموعات مختلفة، وكان لدى كل مجموعة غرض معين تسعى إلى تحقيقه، ليس للنفع العام وإنما لمصلحة المجموعة نفسها . كانوا للأسف فرقاً وجماعات وكل فرقة تعمل ضد الفرقة الأخرى والكل يفتقر إلى الثقة بالكل . . !! كنت ترى وجوهاً عابسة وكأن بينك وبينهم ثارات قديمة جاءوا لتصفيتها . كان وضعاً مخجلاً ومحزناً، وكان ذلك دليلاً ناصعاً على أن الإخوان العرب لم يكونوا مستعدين أبداً لأي شكل من أشكال الاتفاق أو

الوحدة بين بعضهم البعض . وتمنيت من كل جوارحي لو أن سيارة عزت تعطلت بالطريق ولم نصل أبداً إلى بولدر . وأكتب هذا الآن وأنا أدرك أن الإخوان العرب ما زالوا على تلك الحالة نفسها من الانقسام والتشردم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

في طريق عودتنا توقفنا في بلدة صغيرة لأخذ بعض الراحة وشراء بعض ما نحتاج إليه ، وأسرعت زوجة عزت وزوجتي ومعهما أولادنا إلى أحد المتاجر الكبيرة من الذين يعلنون دائماً عن تنزيلات في الأسعار . دائماً التنزيلات موجودة . ! دخلت السيدتان المكان ومعهما الأطفال الأربعة بينما انهمكت أنا وعزت في البحث لسيارتينا عن مكان في الموضع المخصص لوقوف السيارات . عندما وصلنا إلى المتجر وجدنا زوجتينا تتفحصان البضائع المخفضة وكلها من ملابس الأطفال . كانتا واقفتين حول طاولة عليها ملابس خفضت أسعارها بشكل ملحوظ حتى لم يزد ثمن القطعة الواحدة على بضعة سنتيمات بأسعار تلك الأيام . كانت علامات السعادة والإثارة بادية بوضوح على وجهي الزوجتين وهما تقلبان البضاعة المكومة فوق الطاولة لتختار ما يصلح منها . وقفت أنا وعزت نراقبهما . وبعد لحظات -وكما هو دائماً- تطلعنا حولنا لتتأكد من وجود الأطفال . تطلعنا ، ثم أعدنا النظر ، واكتشفنا أن ابني نزار وابن عزت أحمد ، وكانت سنهما لا تزيد عن سنتين ، غير موجودين . ! طار صوابنا وسألنا والديهما وكان الجواب أن الطفلين كانا بجانبهما منذ لحظات فقط . يا للمصيبة . ! أين ذهب الطفلان؟ . اندفعت والأخ عزت نبحت في كل أركان المتجر ولم نجد لهما أثراً . وانطلقنا معاً إلى الشارع ، وذهبت في اتجاه ،

وذهب عزت في الاتجاه المعاكس ونحن ندعو الله تعالى ألا تكون نهاية الرحلة أكثر مأساوية مما شاهدناه في اجتماع بولدر . ولطف الله بنا فلم أكد أبتعد بضع خطوات عن واجهة المكان حتى رأيت رجلاً قادماً يقود طفلينا معه . . . يا للسعادة . . ! والحمد لله . سألت الرجل بعد أن شكرته كيف قرر أن يسير في اتجاه المعرض ، وكان جوابه منطقياً . قال إنه رأى الطفلين يسيران متشابكي الأيدي مبتعدين عن المحلات التجارية فقرر أنه لا بد أن ذويهما في مكان ما في الاتجاه المعاكس وعدنا بالطفلين . ولا أود هنا أن أبوح بما كانت عليه ردة فعلنا ، أو بما لاقته الزوجتان المسكيتان من عواصف الغضب بسبب ذلك الإهمال الظاهر . ولكن صدق أو لا تصدق فإنهما لم تغادرا المكان إلا بعد أن اشترتا ما اختارته لأطفالهما ، ودفعت والأخ عزت النقود صاغرين . . !

مترجم بدلاً من دكتور

هناك نقطة أود أن أوضحها هنا وهي تتعلق بتحصيلي الأكاديمي الذي لا أزال بين فترة وأخرى أسأل عنه ، فأنا عندما ذهبت إلى أمريكا كان القصد أن أحصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه . حصلت على الماجستير بعد سنة واحدة من وصولي ، وكان ذلك من جامعة نبراسكا كما ذكرت سابقاً . بعد ذلك تركت نبراسكا ورحلت إلى نيومكسيكو ، وهي من ولايات الجنوب في أمريكا والتحقّت بجامعتها للحصول على الدكتوراه ، وتتطلب الدراسات العليا للدكتوراه في الولايات المتحدة كما يعرف الدارسون أن يلم الطالب بأكبر قدر من المعرفة فيما يخص حقل اختصاصه حتى يتمكن بعد حصوله على الدرجة من أن يحاضر في أي فرع من فروع تخصصه . دعني أضرب مثلاً على ذلك : فلكي يحصل الدارس على دكتوراه في الأدب الإنجليزي عليه أن يدرس نتاج ذلك الأدب في شتى عصوره بدءاً بالأدب القديم ، فأدب العصور الوسطى وانتهاء بالأدب الحديث من شعر ودراما ونقد وقصة إلى غير ذلك . . وهذه الدراسة تستغرق ما بين ثلاث إلى أربع سنين . . وقبيل انتهاء هذه المدة ، أو عند انتهائها ، يختار الدارس بالتشاور مع أستاذه المشرف ، موضوعاً معيناً لكتابة البحث الذي ينال بعده الدرجة . . نلاحظ أن الأهمية في جامعات الولايات المتحدة تتركز على السنين التي يقضيها الطالب في دراسة الفروع المختلفة للحقل الذي اختاره قبل أن يختار موضوعاً معيناً لكتابة بحثه . عند إكمال الدارس الساعات المطلوبة وهي حوالي مائة وعشرين ساعة - كل مادة يدرسها الطالب تساوي ثلاث

ساعات - يختار بالتشاور مع الأستاذ المشرف على موضوع دراسته موضوعاً معيناً ليكون مادة الرسالة لنيل الدكتوراه .

هناك أيضاً في النهاية اختبار يسمى الاختبار الشامل ، وهو شبه عشوائي حيث يسأل الطلبة في أي شيء مما درسوه في السنوات الماضية . . وعلى الرغم من أنني أتكلم عن أحداث مضت منذ سنوات طويلة ، ولا أحاول أن أجد لنفسني أعذاراً بعد طول هذه المدة ، إلا أنني أعتقد بأن هذا الاختبار ليس أكثر من حاجز نفسي يجد كثير من الطلبة - وأنا كنت واحداً منهم - صعوبة في اجتيازه . . فقد دخلت ذلك الامتحان ، وفشلت في الحصول على علامات النجاح ، على الرغم من كدي واجتهادي وسهري الليالي لمدة أربع سنوات كنت أحصل خلالها على الدرجات المطلوبة التي كانت يجب ألا تقل عن ممتاز أو جيد جداً ، ومع ذلك فقد تقدمت إلى الامتحان ولم أجتزه . . أكرر القول إن هذه مجرد ذكريات الآن ، وإن أي أثر لمرارة ذلك الفشل قد محاه الزمن ، ولكن الصدمة كانت كبيرة في حينها . ربما كانت غلظتي أنني طوال أربع سنوات وهي مدة دراسة المواد المختلفة لم أتمتع بإجازة طويلة أبداً بل كنت أدرس أثناء الفصول الاعتيادية ، وأدرس في فصل الصيف أيضاً . . كانت صدمتي وخيبة أمني من العمق بحيث لا أعرف كيف أعبر عنها الآن . . شعرت بالحزن والأسى لأن أولئك الرجال الذين أشرفوا على دراستي طوال تلك السنوات هم الذين منحوني تقديراً أقل من الذي يؤهلني للنجاح . . وقررت في اللحظة التي ظهرت فيها النتيجة أن أحزم حقائبي وأعود إلى الوطن . وأذكر بكل العرفان والتقدير كل المحاولات الجادة والمخلصة التي بذلها الأستاذ والأخ العزيز عبدالعزيز

المنقور وكان يومئذ هو الملحق الثقافي في أمريكا كي يثني عن عزمي ويقنعني بأن أعيد الكرة إما في الجامعة نفسها أو في غيرها ، ولكنني كنت قد صممت على العودة ، ولم أراجع عن قراري حتى بعد أن هددني بأنه لن يصرف لي تذاكر السفر ! . وعدت إلى الرياض دون الحصول على شهادة الدكتوراه .

عدت إلى الجامعة طبعاً ، وهناك ابتدأت كل مشاكل النفسية بسبب ما وجدته حالاً من صعوبة الانتماء إلى مجتمع الدكاترة . إذ كيف أستطيع إقناع أحد بأن لدي حصيلة كبيرة ، بل الحصيلة كلها اللازمة لتدريس أي فرع من فروع الأدب الإنجليزي ، على الرغم من أنني لا أحمل الدكتوراه ! وحتى لو كنت حصلت على الدكتوراه فإن الرسالة التي كنت أنوي إعدادها لم تكن في صميم الأدب الإنجليزي بل هي بالأحرى تتركز على ترجمات لبعض الأعمال الأدبية العربية الشعبية القديمة والتي كان لها تأثير على بعض الأعمال الأدبية الإنجليزية الثرية والشعرية في بعض الفترات المتقدمة . على كل حال عدت بشهادة الماجستير فقط .

والحكاية ليست فقط أنني عدت من أمريكا بدون الدكتوراه ، بل ما كان سيحدث لو استمر عملي في الجامعة . . التدريس مهنة من أشرف المهن التي يمارسها الإنسان ، وهي مهنة مردودها سريع وواضح ؛ فأنت تمتلئ رضاءً وفخراً عندما ترى أبنائك الطلبة وقد أثمرت معهم جهودك ، ونقلت إلى أذهانهم ضروباً شتى من المعرفة والعلم ، ويثلج صدرك أن ينجحوا في نهاية العام نتيجة للجهود الطيبة المخلصة التي تكون قد بذلتها أنت كمدرس أثناء

العام الدراسي . ولكن تبقى هناك حقيقة لم أستطع الهرب منها ، وهي أنني كنت مدرساً من الدرجة الثانية أي بالماجستير وليس بالدكتوراه . لقد بدأ ذلك يتضح لي بعد عودتي مباشرة . لا أريد الآن أن أسوق أمثلة وحكايات أخطأت في البداية عندما حسبتني أتخيلها بينما هي ليست كذلك ، ولا أريد الآن أن أتعرض بالتفصيل لموضوع الحاجز النفسي الذي ارتفع فجأة بيني وبين زملائي القدامى ممن عادوا بالدكتوراه ، بل يكفي أن أذكر أنني عدت مدرساً تنقصه هالة الدكتوراه التي تتوج رؤوس الآخرين . كان كل من حولي وما حولي يذكرني بأنني أقل شأنًا من سواي ، وأنني لكي أقف مع الآخرين على قدم المساواة عليّ أن أحصل على تلك الورقة السحرية المسماة شهادة الدكتوراه ولا بديل عن ذلك . بدأت أستعد للعودة لإكمال المشوار في الوقت الذي واصلت فيه أداء واجباتي كمدرس في الجامعة . ولا يفوتني أن أذكر أن الجامعة صرح علمي كبير ، ولها نظامها وقوانينها التي يجب أن تتبع ، ومن هذه اللوائح مثلاً أن حملة الماجستير لهم أنظمة تختلف عن حملة الدكتوراه طبعاً فيما يتعلق بمراتب التدريس المختلفة وكذلك الترقيات ، وهذا شيء بديهي ولا اعتراض عليه ؛ لذلك قررت كما ذكرت أن أعود للحصول على الدكتوراه . كانت السنة الدراسية قد مضى أكثر من نصفها ، وكنت قد حصلت في هذه الأثناء على قبول من إحدى جامعات إنجلترا ، وبدأت أستعد للسفر في نهاية السنة الدراسية .

وتقدرون وتسخرُ الأقدار ، كما تقول الحكمة . . فقد حدث في تلك الأثناء أن مرض عبدالعزيز الماجد رحمه الله وكان هو المترجم الخاص للملك فيصل طيب الله ثراه . كان عبدالعزيز هذا رجلاً مصرياً جاء إلى المملكة

لتدريس اللغة الإنجليزية في مدارسها ، وانتهى به الأمر أن اختير للترجمة في الديوان الملكي لدى الملك سعود بن عبدالعزيز رحمه الله . وعندما تولى الملك فيصل العرش استمر الأستاذ الماجد مترجماً له ، إلا أنه كان قد كبر وانتابه الضعف . وكما عرفت فيما بعد فقد اختير عدد من الأشخاص ممن يتقنون الإنجليزية ليحلوا محل الأستاذ الماجد ، ولكن لم يقع الاختيار على أحد منهم . ولا أدري إلى الآن من الذي رشحني لتلك المهمة ، وأظن أن الديوان الملكي طلب من وزير المعارف آنذاك الشيخ حسن آل الشيخ رحمه الله أن يبحث عمن يمكن أن يقوم بهذا العمل من الجامعة . المهم أنني استدعيت إلى الديوان الملكي للقيام بالترجمة بشكل مؤقت إلى أن يشفى الأستاذ عبدالعزيز الماجد .

obeikandi.com

سفينة وسيارة يشتركان مع الجامعة الأمريكية في مسلسل سوء الحظ

مرت السنون في أمريكا بحلوها ومرها وحن موعد العودة إلى الوطن ، فحجزت لي ولأسرتي مكاناً على سفينة إيطالية من نيويورك إلى نابولي ومنها إلى بيروت ثم المملكة . ركبنا الباخرة من نيويورك مثنين أنفسنا برحلة نحظى فيها بشيء من الراحة تعويضاً عما افتقدناه في الرحلة السابقة . لم تكن الغرفة التي خصصت لنا بأحسن أو أكبر من تلك التي كانت من نصيبنا في رحلة الذهاب . كانت مكاناً صغيراً ضيقاً إذا وقفت في منتصفها أمكنني أن ألمس جداريها المتقابلين .

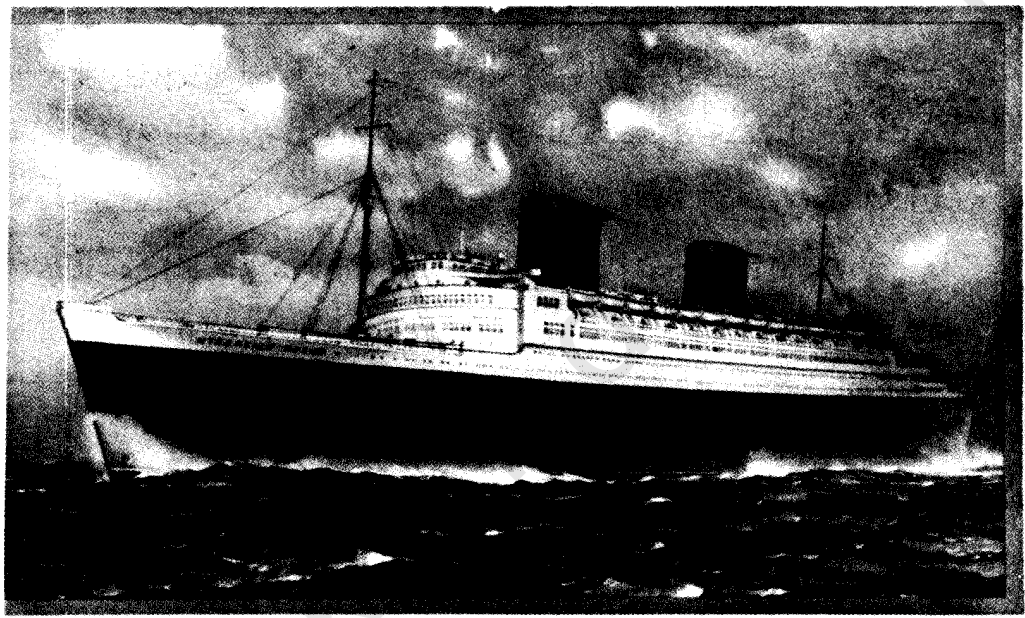
ابتدأت الرحلة في جو هادئ يبشر بسفر مريح . أبحرت الباخرة وسار كل شيء على ما يرام خلال اليومين الأولين ، وكما هي العادة في الأسفار البحرية كانت هناك تدريبات أولية على ما ينبغي على المسافر عمله في حالات الطوارئ . لم نعبأ أنا وزوجتي وأولادي بمتابعة التمارين المذكورة ظناً منا أنها عبء لا داعي له . في اليوم الثالث من الرحلة هبت زوابع وعواصف لم تكن في الحسبان ، ولا أظن أن طاقم السفينة التي كانت أصغر حجماً من الباخرة " الملكة اليزابيث " قد حسبوا لها حساباً .

ثار البحر وهاجت أمواجه بشكل غير مألوف سواء لمسافري البحر أو لطاقم السفينة . ارتفعت الأمواج ارتفاعاً مخيفاً كأنها الجبال وكان البحر بكل

جبروته يعلو ويهبط بالباخرة الضخمة وكأنها مجرد علبة كبريت صغيرة تلهو بها أصابع مارد عملاق. لم يكن أحد يظن، بما في ذلك القبطان نفسه، وكل العاملين بالباخرة أن عنف البحر يمكن أن يصل إلى الحد الذي وصل إليه. كانت الأمواج تطوح بالباخرة يمنة ويسرة حتى بدت وكأنها مجرد قشة صغيرة في مهب الريح. كنت أسمع المسافرين كباراً وصغاراً وهم ييكون كالأطفال. كان الجو مكفهرًا، وكانت السماء تزمجر بريح عاتية تضرب بسياطها المركب من كل جانب، فتميل الباخرة إلى درجة نظن معها أنها الضجعة الأبدية. كانت مواقف المسافرين متفاوتة منهم من استسلم للقضاء وفوض أمره لله تعالى دون أن يحاول عمل أي شيء، ومنهم نفر صعدوا من غرفهم إلى السطح لمشاهدة السماء والأمواج وأثار الرياح قبل أن يغيبهم البحر، بينما راح البعض الآخر يطلب طعاماً ربما اعتقاداً منهم بأن تلك هي الوجبة الأخيرة.

كنت أسمع جارين لنا، رجلاً وزوجته، ييكيان كالأطفال، وشاهدت واحدة من المضيفات تبكي وتقول إنها عملت عشر سنوات على تلك الباخرة ولم تشاهد ما تشاهده الآن من أهوال. والغريب أن الله تعالى أعطاني من القوة ورباطة الجأش ما لم أكن أعرف أنني أملكهما. كنت أقف الساعات الطويلة وسط الكابينة - وهي لحسن الحظ ذات حجم صغير كما سبق أن ذكرت - أسند بيدي ابني وابنتي وهما في الطابق العلوي من الأسرة كي لا يسقطا على الأرض، بينما أ منع برجلي حقائبنا من الانزلاق من جانب لآخر في الكابينة مع ميلان السفينة. كان الجميع يعاني من دوار البحر، وكان الجميع من الضعف بحيث لم يتمكن أحد من إخراج ما في

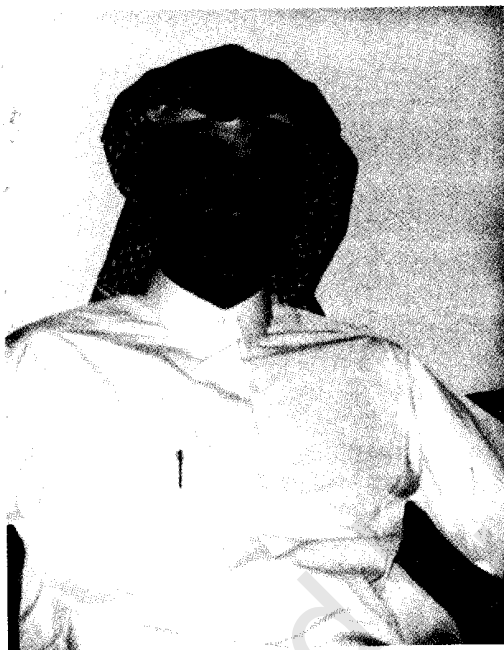
جوفه ، ولم يكن في الجوف شيء على أية حال ! كانت القادرات من المضيفات يطفن بالغرف والكبائن يلقين من فوهات الأبواب بقطع خبز ناشف هو كل ما أمكن إيصاله إلى المسافرين . والغريب في الأمر أننا مررنا بكل هذا دون أن نكون مرتدين أطواق النجاة لأننا لم نكن نعتقد أنه ستكون هناك أي نجاة إذا انقلبت الباخرة ! والطريف أن بعض المسافرين الذين كانوا يعتقدون أن الباخرة غارقة لا محالة ذهبوا يطلبون ويصرون على وجبة دسمة من القائمين على المطعم حيث إن تلك ستكون حسب اعتقادهم آخر وجبة لهم في دنيا البشر ! كان لدى قبطان الباخرة جواب واحد لكل من يسأل عن المصير ، هو : إننا جميعاً بين يدي الله تعالى وأن الإنسان في هذه الحالة ليس له من الأمر شيء . بعد يومين من هذا الهيجان الرهيب هدأ البحر وواصلت الباخرة إبحارها بسلام إلى نابولي .



الباخرة العملاقة كوين اليزابيث التي سافرت بها مع زوجتي وابنتي إلى أمريكا



هذه الصورة التقطها الأخ إحسان جوهرى لأبنائي وأبناء الأخ عزت خطاب .
وقد طلب إحسان من الأطفال أن يفتحوا أفواههم واسعة لتظهر صورهم جميلة .



ابنای نزار وایاد

بعد العودة من أمريكا

بعد الحياة بأمريكا والتعود على وجود سيارة لدي وتحت تصرفي وبعد أن انتشرت أيضاً السيارات في المملكة وكان ذلك عام ١٩٦٨ ، كان أول شيء قمت به بعد العودة هو شراء سيارة . وقع اختياري على سيارة صغيرة ولم يكن سعر السيارات في ذلك الوقت مرتفعاً كما هو الآن . استدنت طبعاً معظم ثمن السيارة - لم يكن التقسيط المريح أو المتعب قد عرف بعد - وذهبت بالمبلغ سعيداً للوكالة . اخترت سيارة بيضاء ازداد بياضها لمعاناً لوجودها تحت أشعة شمس جدة الحارقة . تسلمتها قبيل مغرب أحد الأيام وجلست خلف المقود وزوجتي بجانبني وانطلقت بالسيارة الجديدة نحو طريق المدينة كي «أمرنها» كما هو المتبع في تلك الأيام . كانت فرحتي بالسيارة كبيرة ومما زاد من الفرحه أنني كنت أحضر للسفر في اليوم التالي مباشرة إلى المدينة المنورة لحضور حفل زواج إحدى فتيات العائلة .

وصلنا المدينة ومعني زوجتي وطفلاي ابنتي وابني نزار - لم يكن إياد قد ولد بعد . وصلنا المدينة بالسلامة وتركت عائلتي في بيت الخريجي المعروف بالعنبرية والذي أزيل فيما بعد للأسف الشديد بعد وفاة عميدي آل الخريجي الشيخين عبدالعزيز ومحمد ، واقتسام إرثهما . سبب الأسف هنا أن هذا البيت العتيق استضاف على مدار عمره الطويل معظم ملوك وحكام وكبار الرجال العرب والمسلمين الذين أدوا فريضة حج أو عمرة ضيوفاً على جلالة الملك عبدالعزيز والملك سعود رحمهما الله . أعود الآن إلى متابعة حكايتي

وهي أنني تركت عائلتي في بيت الخريجي وذهبت في بعض شأني إلى مكان ما لم أعد أذكره، إنما أذكر جيداً أنني كنت أمرُّ من المناخة الكبرى في المدينة عندما توقف المرور فجأة فوقفت طبعاً، ولم أشعر إلا وسيارة من نوع الحافلات الصغيرة العامة ترجع أو يرجع بها صاحبها إلى الوراء وكأنه لا يوجد في فضاء المناخة الواسع إلا هو. ولم يجد إطلاق بوق السيارة وإطلاق صوتي بأعلى ما أملك من أوتار صوتية على السائق أن يتوقف؛ ولكن هيهات فقد بدا وكأنه يقصد سيارتي بذاتها وهذا ما حدث فعلاً، فقد عاد بسيارته بكل قوتها لتدخل مؤخرتها في الباب الأيمن لسيارتي الجديدة وتحطمه كلية. حصل هذا كله والسائق غافل لا يدري ماذا فعل - اتضح بعد ذلك أنه أطرش فلم يسمع التحذيرات وكانت سيارتي ضحية صممه. وكما هي العادة في بلادنا، وكأن الناس تنتظر شيئاً مثل ذلك كثيراً كي يتجمهروا للفرجة أو لإبداء الرأي والمشورة؛ فقد تجمعوا حولي وبدلاً من أن يلوموا السائق الأصم وينصحونه بعدم القيادة انهالوا علي بنصائحهم وسوق العبر التي تدل على فضيلة التسامح. تركوا الرجل الذي صدمني طليقاً وضيقوا دائرتهم حولي بحيث لم أجد مفراً من أن أفر بسيارتي منهم وكأنني أنا المذنب.

انتهى الزواج وتهيأنا للعودة إلى جدة. انضم إلينا في سيارتنا سيدة مصرية صديقة لآل الخريجي كما ركب معنا شاب آخر من ذوي الأرحام. كان معنا طبعاً ابنتي وابني إلا أن جدتهما رحمهما الله طالبت ببقائهما معها بضعة أيام في المدينة واستجبت لطلبها. كان العائدون إلى جدة من آل الخريجي وأرحامهم يشكلون قافلة من السيارات انطلقت تتهادى خلف

بعضها البعض على طريق المدينة جدة الذي كان تعبيده بدائياً، وكان مازال ضيقاً مليئاً بالحفر والتواءات التي انتشرت فوق سفلاته البسيطة. كنت أسير في مؤخرة الركب ولم تكن سرعة السير على ما أذكر تتجاوز المائة كيلو متر في الساعة. كان الوقت قبيل المغرب، واعتماداً على ما زلت أذكره أنني ملت دون قصد إلى يمين الطريق أكثر مما ينبغي فسقطت عجلة السيارة الأمامية في واحدة من الحفر التي تكثر على جانبي الطريق. ما إن سقطت العجلة في الحفرة إلا وانفجرت في الحال وتفتت إلى قطع عديدة فقدت على أثرها السيطرة على السيارة التي صارت تتخط يميناً وشمالاً وكأنا أصابها مس من الجن، ثم انقلبت مرات عديدة قبل أن تستقر على جنبها في الجانب المعاكس من الطريق. كان لطف الله عظيماً إذ لم تكن هناك سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس، وثانياً إن السيارة لم تكمل قلبها وتستقر على بطنها أو ظهرها إذ استقرت على جنبها. كانت زوجتي ممددة خارج السيارة بلا حراك ولو أكملت تلك السيارة نصف انقلاب آخر لهرستها تماماً، أما أنا فقد وجدت نصف جسمي الأعلى داخل السيارة بينما رجلاي تتدليان خارجها. وبقيت السيدة المصرية والشاب السعودي داخل السيارة.

نحن قوم نؤمن والحمد لله أن كل ما يقع للإنسان مقدر عليه إن كان خيراً أم شراً ولكن هل كانت سيارتي تلك شؤماً علي؟! إن كانت شؤماً فكيف أفسر بعد إرادة الله سبحانه وتعالى - نجاة جميع ركابها على الرغم من أن السيارة نفسها لم يبق فيها قطعة لم تنح أو تنكسر؟ المهم عاد إلينا جماعتنا بعد أن شاهدوا الغبار المتصاعد على أثر الانقلاب، وحملونا بسياراتهم وكان من نصيبي أن أنضم إلى الأخ الكريم أحمد العبد لله

السليمان في سيارته السبور الأنيقة . عندما وقع الحادث كنا لا نزال قريين من المدينة المنورة إلا أن الخال الشيخ سليمان الخريجي وهو خال زوجتي قرر أن نستمر في طريقنا إلى جدة ، لأن الإصابات لم تكن ولله الحمد كبيرة والعناية الصحية بجدة أفضل منها بالمدينة المنورة .

وصلنا بعد بضع ساعات إلى جدة وكنت طوال الطريق أتكلم وأتحدث بشكل عادي مع الأخ أحمد وكأنه لم يحدث لي حادث كبير . عندما وقف بسيارته أمام باب المستشفى اللبناني وفتح بعضهم باب السيارة ينتظر مني أن أخرج بقيت ساكناً في مكاني أنظر إليه . خرج الأخ أحمد أيضاً من السيارة ودار حولها يخبرني أننا وصلنا المستشفى . عندما أخبرته أنني لا أستطيع أن أحرك عضلة واحدة من جسمي بدا للحظات أنه لم يصدقني خاصة وأني طوال الطريق وأنا أتحدث معه لم أشتك من أي آلام . ولكن عندما رأى الصدق في عيني طلب من ممرضي المستشفى أن يحملوني إلى الداخل .

في تلك الليلة في المستشفى اللبناني حدث شيء غير عادي لم أستطع نسيانه بعد كل السنين التي مرت عليه . حملني بعض ممرضي المستشفى ووضعوني فوق نقالة ودفعوني إلى عنبر عام للمرضى قريب من ركن الاستقبال . أما زوجتي فقد تجمع حولها أهلها وذووها وعلى رأسهم خالها سليمان الخريجي وهيئوا لها أفخم غرفة في المستشفى . نسيني الجميع وهم في غمرة فرحتهم بنجاة ابنتهم مع أنني أنا نفسي لست غريباً إلى الدرجة التي ينسوني فيها . إنما كيف ولماذا نسيني جماعتي في ذلك المساء الحزين فإنني ما زلت غير قادر على تفسيره . إنني لا أقول هذا الآن من قبيل العتب أو اللوم

لأن المسألة على ما أظن لم تكن أكثر من مجرد خطأ غير مقصود في فرضية لم تكن صحيحة إذ ربما ظن كل واحد أن الآخر قد قام بالواجب نحو المريض الآخر، إلا أن أحداً لم يخطر بباله أن يتأكد إن كان ذلك حدث فعلاً. هكذا بقيت إلى الصباح مسجى على نقالة في عنبر عام ولحسن حظي أن آلامي وأوجاعي لم تبدأ في التفاعل مع ما حصل لجسمي إلا قبيل الصبح حيث بعدها تنبه الممرضون إلى أنني ما زلت في العنبر العام وأسرعوا بنقلي في الصباح إلى غرفة مجاورة لغرفة زوجتي .

كان من نصيب زوجتي أن نقلت بعد الحادث إلى سيارة الأخت أسماء العبدالله السليمان شقيقة الأستاذ أحمد السليمان الذي استقبلني بسيارته . والسيدة أسماء التي توفيت منذ حوالي ستين وأسأل الله تعالى لها الرحمة الواسعة وجنة الخلد إن شاء الله هذه السيدة النبيلة التي أخشى مهما قلت فيها أن تكون شهادتي مجروحة لما أحمله لها من حب وإكبار وتقدير وما لا تسعفني مفرداتي البسيطة أن أعبر عنه تجاه هذه السيدة الكريمة ذات القلب الكبير والخصال الفريدة أجدها والله نموذجاً راقياً فريداً نبيلاً لما يجب أن يكون عليه الإنسان ذكراً أم أنثى . إن أسماء العبدالله هي الأخت الروحية الشقيقة لي ولزوجتي ؛ إنها درة عائلة السليمان . إنها المثل الأمثل لما يجب أن تكون عليه سيدة كل ما فيها ينطق بالارستقراطية النبيلة والأخلاق الفاضلة والقلب الحنون الكبير الذي لم يتسع فقط لأفراد عائلتها العديدين الذين أقامت من نفسها عليهم الحارس الأمين الذين يراعهم ويعني بشؤونهم يستووي بذلك من هم أكبر سناً منها أو أصغر ، بل تعداه إلى ذوي الأرحام والأصدقاء وإلى كل من جاءها ينشد عوناً أو نصيحة . لم تكن يرحمها الله

تبخل على أي كان بمال أو جهد، تساعد هذا وهذه وتمسح دمة تلك ، وذاك ، وتواسي القلوب الحزينة التي تلجأ إليها تنشُد اللمة الحانية والكلمة المشجعة كل من جاءها وجد عندها ضالته مهما كانت ووجد في عذوبة لسانها واستعدادها دائماً لعمل الخير ما يمسخ عنه وعنهما ما ألم بالنفس من هموم الدنيا . كانت رحمها الله توأم الروح لأم نزار ، وكان غيابها المفاجئ صدمة عنيفة سوف يبقى أثرها مؤلماً حزيناً مهما طال الحياة بزواجتي وببي أيضاً . لم نكن نعتبرها قريبة فقط فهي ابنة خالتنا ولكننا فقدنا بفقدتها أختاً وصديقة ورفيقة ستبقى ذكراها حية في قلوبنا على مدى السنين والأيام التي كتب الله لنا أن نعيشها بعدها .

لقد رفع قلبها الرقيق الراية البيضاء بعد معاناة ليس فقط من المرض الذي ألم به ولكن مما عاناه من عذاب وألم كانا هما أصلاً سبب وهنه ثم استسلامه إثر زواجين لم يكتب لهما النجاح . ارقدي يا أسماء في جنة الخلد فأنت الآن بين يدي غفور رحيم كريم وقد لقيت إن شاء الله من سعادة ونعيم الآخرة ما عوضك عن كل ما لاقيتيه من شقاء هذه الدنيا الفانية .

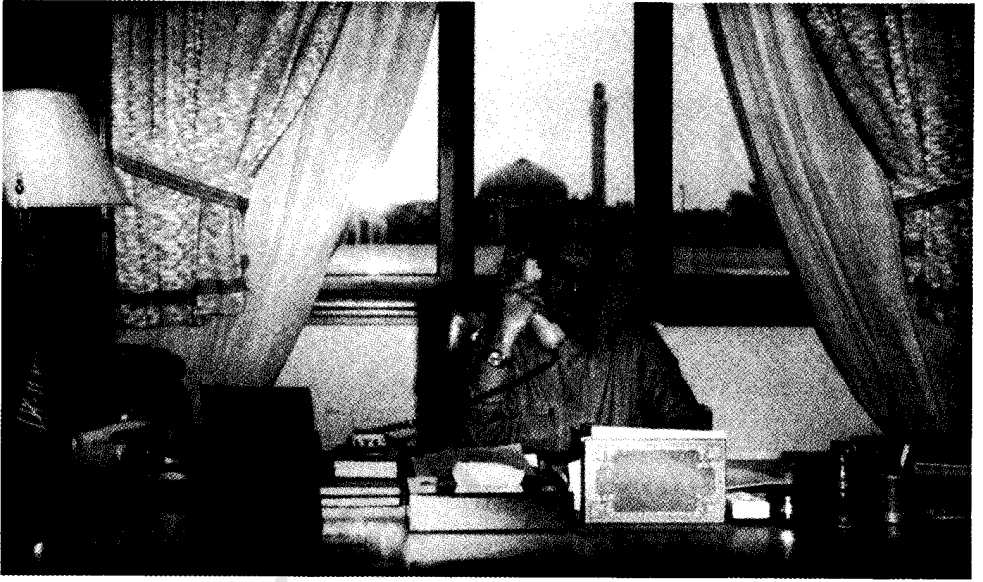
بعد أن منَّ الله علينا بالشفاء بقيت مشكلة السيارة التي أصبحت بعد الحادثة أشبه بقطعة حديد لا يعرف لها شكل ، ومع ذلك فقد سحبت إلى ورشة للتصليح وبشيء أشبه بالأعجوبة أعادوها لا كسيارة تماماً ولكن شبه سيارة . لم يستطع فنيو الإصلاح أن يقيموا الاعوجاج الذي حدث (بالشاسيه) فبقيت تسير بانحراف واضح . شيء آخر حدث ولم أكتشف سره إلى الآن . وهو لماذا اختار أصحاب الورشة ذلك اللون الأزرق الفاتح

لطلاء السيارة! إنه لون يمكن أن تختاره لحوض حمام المنزل ولكن قطعاً ليس لسيارة تسير في الشوارع ولكن المثل الذي يقول: «ما حيلة المضطر إلا ركوبها» كان فعلاً ينطبق علي حرفياً؛ وقد عاشت تلك السيارة بعد تلك الحادثة سنتين أو ثلاث وهي تتحامل على نفسها كالحمار العرجاء تسير قليلاً ثم تتوقف لتلتقط أنفاسها قبل أن تعاود الزحف إلى أن توقفت نهائياً ولكن بعد أن أعطت كل ما لديها بعد تلك الحادثة البشعة.

عدت إلى الرياض وإلى عملي بالتدريس في الجامعة. وكان أول عمل قمت به هو استئجار شقة واسعة وأنيقة في موقع مميز من الرياض بمبلغ أربعة آلاف ريال سنوياً. وبالنسبة للأثاث فقد اشترت طاقماً جيداً من الكراسي بألف وخمسمائة ريال. أما تبريد الهواء فكان يعتمد على المكيف الصحراوي، وكنت وباقي الزملاء نتفاخر فيما بيننا بعدد ما يملكه الواحد منا من مكيفات. ونأتي إلى المطبخ. . . وهنا شيء لا أزال أذكره بكثير من الفخر، فقد قمت بنفسني بصنع المطبخ كاملاً لزوجتي. . .! لم أكن نجاراً طبعاً، ولكن وجدت من تجربتي في أمريكا أن الشخص يستطيع أن ينجز أعمالاً كثيرة متنوعة لو قرر بعزم أن يقوم بها. اشترت منشاراً يعمل بالكهرباء، واشترت ألواحاً من الخشب "الأبلكاش". وقصصتها قطعاً حسب المقاسات المطلوبة، واشترت شاكوشاً وعلبة من المسامير، وثبت قطع الخشب في الحائط منجزاً بذلك مطبخاً معتبراً. ولكن قد يبالغ المرء في ثقته بنفسه فيجرب القيام بأعمال فوق طاقته فيلقى ما لا يسره. ومن ذلك ما حدث لي عندما حاولت أن أثبت بنفسني الستائر التي أعدها لنا أحد الخياطين مبتدئاً بأكبر ستارة عملاً بالحكمة القائلة: "ابدأ بالصعب أولاً".

صعدت السلم ومعى الشاكوش والمسامير المطلوبة لأبدأ بتثبيت أول مسمار في المكان المحدد له في الجدار، ولا أدري ما هي الحركة التي صدرت عني إذ وجدت نفسي أسقط فجأة وأنحشر بين درجات السلم، وما زاد الأمر تعقيداً أن ظهري كان تجاه السلم وكانت يداي ورجلاي متداخلة مع الدرجات بحيث لم أعد أستطيع الحركة. زيادة على ذلك كله فقد انزلق السلم قليلاً إلى أسفل دون أن يسقط كلية.

ناديت زوجتي لتقذني، وجاءت مسرعة إلا أنها بدلاً من أن تعمل أي شيء لمساعدتي انتابتها نوبة من الضحك لم تستطع معها أن تفعل شيئاً، ولكن حتى تلك المصيدة المباغثة لم تثبط عزمي على عمل أشياء عديدة بنفسني في كل بيت سكنته. وما زلت إلى الآن أحاول أن أقوم بعمل أشياء سهلة بسيطة في المنزل بنفسني، وهذا ما اعتبره فضيلة أتمنى أن يتمسك بها أبناء الجيل الحاضر. ولا تقل لي إن الوقت اختلف، وأن هناك الآن من يقوم عنك بكل شيء تريد عمله، فهذا غير صحيح أصلاً، لأن على الشاب أن يسير حياته بنفسه، ويعتمد بعد الله تعالى على جهوده الشخصية مهما كان في مقدور أبيه مثلاً أن يساعده ويقف إلى جانبه. وما يزال الناس من الشعوب المتطورة يقومون بأنفسهم بكل الخدمات التي تحتاج إليها منازلهم من إصلاحات وصيانة في شؤون الكهرباء والسباكة وإصلاح الأعطال البسيطة في السيارات وغير ذلك، وهذه ظاهرة صحية دون شك. وفي ديننا الحنيف الكثير من الوصايا والحث على العمل الذي رفع إلى مصاف العبادة نفسها. وعندما يقوم الرجل بالأعمال الصغيرة التي يحتاج إليها منزله فحري به أن يكون أميناً وحريصاً على أن يؤدي الأعمال الأكثر أهمية التي تشكل عمله الرئيسي.



في مكنتي بالديوان الملكي

obeikandi.com

من ذكريات العمل في المراسم الملكية

عندما عرف بعض الأصدقاء القلائل جداً أنني أحاول تسجيل بعض ذكريات لي تبقى لأبنائي ليعرفوا به شيئاً عن حياة أبيهم ، وعن الوقت الذي نشأ وعاش فيه ، عندما عرفوا ذلك طلبوا ألا أترك فترة عملي في المراسم الملكية دون أن أسجل عنها شيئاً . كان جوابي ولا يزال أن هناك رجالاً كثيرين أجدر مني وأعرف بما يجب أن يكتب ، وأن تجاربهم وحياتهم في الدواوين الملكية لا شك أكثر ثراء وخبرة من حياتي . أنا لم أعمل في المراسم لفترة طويلة عملاً غير الترجمة من العربية إلى الإنجليزية والعكس ، ولذا فأنا أقتصر هنا على تسجيل بعض الذكريات التي لها علاقة بعملية كترجم .

تقوم الترجمة أساساً على الموهبة التي تنصلق مع طول المراسم والممارسة . ولا يكفي أن يتحدث الإنسان لغة أجنبية مثلاً ليكون مترجماً جيداً . وقد عرفت قصصاً عن أناس يتقنون لغة أجنبية إتقاناً جيداً ومع ذلك أسقط في أيديهم عند جملة قيلت وطلب منهم ترجمتها . ولا أقول هذا انتقاصاً من قدر أحد لأن الموقف وهيبة الحاضرين وشخصياتهم تقمع أحياناً قدرة المترجم على السيطرة على النفس والاحتفاظ بهدوء الأعصاب .

أذكر جيداً أول مرة ترجمت فيها للملك فيصل رحمه الله كان الكل يشجعني ويشد من أزري . وأذكر بصفة خاصة المرحوم السيد عمر السقاف الذي كان وزيراً للدولة للشؤون الخارجية ، فقد ظل قريباً مني يدلي لي

بنصائحه، ويؤكد لي أنني سوف أنجح في التجربة، وأن المسألة لا تحتاج إلا إلى شيء من الإقدام وتمالك النفس والثقة بها أمام الملك. وقد حظيت بالتشجيع أيضاً من الشيخ محمد النويصر رئيس الديوان الملكي الآن. والشيخ محمد لا يطلب منك أن تشجع وتثبت وجودك بل هو يأمرك أن تنجح فيما تعمله...! لا يوجد في قواميس الشيخ محمد كلمة فشل أو يأس. هكذا وقفت أمام الملك فيصل في أول تجربة لي بالترجمة. كانت المناسبة تقديم أوراق اعتماد سفير جديد. ترجمت كلمة السفير ثم ترجمت جواب الملك عليه وكنت أقوم بهذا كله وأنا شبه غائب عن الوعي؛ وأرجو أن أستطيع نقل شعوري هنا للقارئ، كما أرجو أن يكون أحد ممن يقرأ هذه الصفحات قد مر بمثل تلك التجربة. كان الموقف بلا شك رهيباً بالنسبة لي وأنا أقفه لأول مرة فلم يسبق لي أن وقفت إلى جانب ملك في غرفة واحدة بل إنني لم أكن قد شاهدت ملوكاً إلا في الصور. مع ذلك هأنذا أجد نفسي فجأة في غرفة واحدة مع ملك، وأي ملك، إنه الملك فيصل نفسه، ومن حوله كبار رجال ديوانه وكانوا صاحب السمو الملكي الأمير نواف بن عبدالعزيز، مستشار جلالة الملك فيصل الخاص، الدكتور رشاد فرعون رحمه الله المستشار الخاص للملك، السيد عمر السقاف رحمه الله وزير الدولة للشؤون الخارجية، الشيخ محمد النويصر وكان يومها رئيساً للمكتب الخاص ونائباً لرئيس الديوان، السيد أحمد عبدالوهاب رئيس المراسم الملكية آنذاك، واللواء عبدالله البصيلي رئيس الحرس الملكي في ذلك الوقت.

انتهت المقابلة بسرعة لحسن الحظ إذ إن مراسم تقديم أوراق الاعتماد لا

تستغرق أكثر من بضع دقائق . والدقائق الأولى هي التي كانت عسيرة لأنها الأولى في حياتي ك مترجم ، ولأن من ذكرتهم كانوا حاضرين وشاهدين على ما سوف أنجزه . كنا جميعاً أيضاً وقوفاً حسب ما تقتضيه مراسم المناسبة . بعد الكلمتين الرسميتين المتبادلتين بين الملك والسفير غادر بعض الحاضرين المكتب وبقي بعضهم . ما بقي بعد ذلك كان سهلاً إذ استطعت أن أسيطر على انفعالي ، وأن أترجم الحديث الذي دار بين الملك والسفير دون صعوبة . انتهت المقابلة وخرج السفير ، وخرجت لأتلقى تهاني الحاضرين .

كان سروري عظيماً بإنجازي هذا ، وعدت إلى الجامعة وأنا أصبح في سعادة غامرة . كان معنى نجاحي في الترجمة للملك فيصل هو أنني سوف أوفر على نفسي العودة إلى إنجلترا أو الولايات المتحدة لإكمال الدراسة لنيل الدكتوراه . فإذا كان الديوان يريدني مترجماً للملك فلا داعي للدكتوراه . بقيت مدرساً بجامعة الملك سعود بقية ذلك العام الدراسي ١٩٦٧-١٩٦٨ م ، وكنت أذهب إلى الديوان الملكي كلما كانت هناك حاجة إلى خدماتي . في نهاية العام الدراسي نقلت خدماتي نهائياً إلى المراسم الملكية . كانت معظم ترجمتي مع الملك فيصل رحمه الله ، وإن كنت قد ترجمت أيضاً للملك خالد رحمه الله ، ولخادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز أمد الله في عمره .

عندما نقلت إلى المراسم الملكية وكان ذلك عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) كان الملك فيصل في أوج دعوته للتضامن الإسلامي ، وكان لذلك كثير السفر إلى

البلدان الإسلامية شارحاً لرؤسائها مضامين دعوته لجمع الكلمة الإسلامية . كان لا يأتي من سفر إلا ويشد الرحال إلى سفر جديد . بعد عملي بفترة قصيرة كان لدى الملك رحلة إلى ماليزيا وإندونيسيا والصين الوطنية واليابان وبعض الدول الأخرى . وبطبيعة الحال كان اسمي من ضمن الأسماء المرافقة . كانت أول مرة أسافر فيها في المعية الملكية ، وكانت الرحلة هي التي ستقرر في الحقيقة إن كانت لدي المقدرة على الترجمة أم لا . . كنت في غاية القلق والتوتر حيث لا أدري كيف ستكون النتيجة ، وكيف ستكون تأديتي للعمل . وكنت كلما اقترب موعد السفر أزداد توتراً وعصبية . لم يزر النوم جفوني في الليلة الأخيرة قبل السفر بل بقيت أتقلب في فراشي أحاول أن أتصور ماذا سيكون عليه الحال عندما أجابه بالامتحان الحقيقي لمقدرتي على أداء العمل الذي كلفت به . ولكي يصل الملك إلى ماليزيا في وقت مناسب من اليوم فقد كان عليه أن يغادر الرياض في مساء اليوم الذي قبله ، وعلى ذلك كانت ليلة أخرى قضيتها في الطائرة على مقعد أطلع من خلال النافذة الصغيرة التي تعلوه إلى الظلام الذي يلف الطائرة .

وصلت الطائرة الملكية إلى ماليزيا ، وبعد مراسم الاستقبال توجه الزائر الكبير ووفده إلى مقر إقامتهم لأخذ شيء من الراحة قبل موعد حفل العشاء الذي يقام للملك الضيف مساء اليوم نفسه . كانت لدي فرصة للحصول على ساعة نوم إلا أن النوم أبى إلا أن يستمر في مقاطعتي استعصى . في المساء توجه الملك وكبار أعضاء الوفد السعودي إلى القصر الذي أقيم فيه حفل العشاء . وعندما بدأت مراسم العشاء أخذت مكاني على كرسي خلف الملك ، وأخذ مترجم ماليزي مكانه أيضاً خلف ملكه . بعد العشاء أخرج

الملك الماليزي خطاباً كان قد أعدّه مسبقاً وألقاه ترحيباً بالملك الضيف ورفاقه . وأخرج المترجم ترجمة للخطاب مكتوبة وألقاها . وجاء دور الملك فيصل رحمه الله ليرد على كلمة المضيف . كانت عادة الملك ألا يعد كلماته مسبقاً بل يرتجل الكلمة المناسبة في وقتها . وأخذ الملك يلقي كلمته وأنا أترجم بعده كل بضعة جمل إلى أن انتهت الكلمة وانتهى العشاء ، وودع الملك مضيفه وركب السيارة الرسمية التي أقلته إلى مقر إقامته . كنت طبعاً أركب السيارة الملكية نفسها لأترجم بين الملك وبين الوزير الذي يرافقه حيثما ذهب . كل هذا وأنا لم أبادل بعد كلمة واحدة مع أي من أعضاء الوفد السعودي حتى أعرف كيف كان أدائي . كنت متوتراً قلقاً أعد الدقائق كي أنفرد بأحد الإخوان لأسأله . ومما زاد من توتري أن أمراً بسيطاً جداً حدث في السيارة ونحن عائدون من مكان الحفل إلى قصر الضيافة .

لم أكن قد عرفت وقتها بعض العادات والصفات التي يتميز بها الملك فيصل ، والتي كان منها مثلاً أنه لا يحب لأحد أن يتدخل فيما لا يعنيه . . فعندما ركبنا السيارة كان موضعي منها في مقعد صغير في تلك المقاعد التي توضع في السيارات الطويلة - الليموزين - مواجهة للمقاعد الرئيسية . ويبدو أن مكيف السيارة لم يكن يعمل كما يجب وكان هوائه يأتي دافئاً وليس بارداً كما هو المفروض . . مد الوزير المرافق يده وحرك بعض الأزرار الموجودة على لوحة المكيف . ولا أدري كيف بدا لي أنا أيضاً أن أحاول لمس الأزرار لعلني أفلح في جعل المكيف يرسل هواء بارداً . بعملتي هذا انطبقت عليّ قاعدة الملك فيصل ، وهو تدخلني فيما لا يعنيني . . فما كان منه إلا أن تتم بكلمات لم أفهمها تماماً ، ولكن من النبذة التي تكلم بها أدركت أنه ما

كان يجب عليّ أن أمد يدي أبدأ . . لم أفهم وقتها الموقف على هذا الشكل ، فكما ذكرت لم أكن قد عرفت من طبائع الملك فيصل ما عرفت بعد ذلك ، بل كان تفسيري للموقف أن ترجمتي لكلماته كانت كارثة . وبدأت في قرارة نفسي أندب حظي التعس وآمالي التي لم تعمر طويلاً . رحت أعد الدقائق لأصل إلى نهاية الرحلة القصيرة لأعرف من بقية أعضاء الوفد كيف كان مجهودي في الترجمة . عندما وصلنا إلى مقر الإقامة وأصبحت طليقاً ، وقبل أن أبادر أي أحد بالسؤال ، فوجئت بمعظم الذين كانوا في الحفل ، سواء منهم الذين يعرفون الإنجليزية أو الذين لا يعرفونها ، قد تجمعوا حولي والكل يبادرني بالتهنئة والتعبير عن إعجابهم اللامحدود بنجاحي الباهر . لقد تركوا لأنفسهم العنان للتعبير بكلمات المديح والإعجاب التي كانت تتدفق من أفواه الجميع دون حساب . . الحمد لله . . كانت تلك اللحظات من أسعد ما مر عليّ في حياتي ، وشعرت وقتها أنني أستطيع أن أعيش باقي أيام الأسبوع دون لحظة نوم .

كانت رحلة ماليزيا واحدة ضمن عدة رحلات شملت الزيارة في تلك السنة . توقف الملك فيصل رحمه الله في طهران حيث قابل الشاه الراحل في المطار قبل متابعة الرحلة إلى ماليزيا . ومن ماليزيا انطلقت الرحلة الملكية إلى إندونيسيا ثم الصين الوطنية ثم اليابان . في الواقع انتهت تلك الرحلة بالدوران حول العالم حيث غادر الملك ، ومعه مرافقوه ، اليابان متوجهاً إلى الولايات المتحدة ومنها إلى فرنسا فالعودة أخيراً إلى جدة . وقد أصدرت الخطوط الجوية السعودية في تلك المناسبة شهادات لمرافقي الملك بأنهم داروا حول الأرض على متن طائرة سعودية .

مما يثير الانتباه في اليابان تمسكهم الشديد بقواعد البروتوكول، فكل خطوة صغيرة أو حركة محسوبة بدقة ولا يمكن تجاوزها. عند وصول الراكب الملكي إلى المطار كانت الترتيبات موضوعة بتفاصيل دقيقة بحيث يعرف المستقبلون والضيوف أماكن وقوفهم ولا يحيدون عنها. وقد كان الامبراطور الراحل هيروهيتو في استقبال الملك، ولو أنه حسب قوانينهم لا يخرج إلى المطار لمقابلة الضيف، بل يستقبله في قصر الضيافة عند وصوله إلى هناك. عند الاستقبال كان موظفو المراسم اليابانية يرشدوننا بدقة إلى ما يجب أن نفعله وأين نقف وهكذا. اقتصر السلام على الإمبراطور على أعضاء الوفد الرسمي فقط.

أقام الإمبراطور حفل عشاء كبير لضيفه ومرافقيه. كانت مظاهر الأبهة والفخامة تسيطر على الجو العام. كانت صالة الطعام من أكبر ما شاهدته حينذاك. دعي إلى الحفل الملك رحمه الله ومرافقوه الرسميون، كما كان هناك أفراد عائلة الإمبراطور وكبار رجال حكومته والسفراء ورجال الأعمال وغيرهم. كما قلت كان الجو العام مهيباً، وعلى الرغم من أن اليابان كانت المحطة الأخيرة في رحلة الشرق الأقصى، وأن الأمور سارت بالنسبة لي على ما يرام في البلدان التي سبقت، إلا أنني عندما وقفت بعد العشاء أترجم كلمة الملك فيصل أرتج علي لسبب لعله يكون واضحاً مما سلف ذكره. كنت مدعواً إلى مأدبة العشاء طبعاً بصفتي عضواً رسمياً في الوفد المرافق، فجلست إلى المائدة ولم تكن لدي أي شهية للأكل لأنني كنت أنتظر أن أقوم إلى مايكروفون وضع في أحد أطراف القاعة لأترجم كلمة الملك التي سيلقيها بعد العشاء. كان الأشخاص الجالسون أمامي وعلى جانبي من

المائدة يتحدثون معي أحاديث لم أعد أذكر منها إلا كلام واحد منهم كان يتحدث لحم البقر الياباني ويعلن في زهو عن ثمن قطعة الأستيك الموجودة في الصحن أمامي والتي لم أقربها . ! لم أكن بحالة تسمح لي أن أمتع بقطعة لحم البقر التي وضعت أمامي ؛ كان كل تفكيري محصوراً في الترجمة التي سأقوم بها بعد قليل .

انتهى العشاء وألقى الإمبراطور كلمته وجاء دور الملك وكنت قد وصلت إلى المايكروفون . وبالرغم من كل تصميمي على ألا أرتكب أية غلطات أو أفقد رباطة جأشي وأن أعني جيداً ما يقوله الملك إلا أن كل ذلك ذهب أدراج الرياح عند أول جملة ترجمتها . فقد بدأ الملك بمخاطبة الإمبراطور ثم الإمبراطورة ثم ولي العهد الياباني ثم رئيس الوزراء ثم الوزراء وهكذا حسب ما يقتضيه العرف الدبلوماسي في مثل تلك المناسبات . وتوقف الملك رحمه الله ليتيح لي فرصة الترجمة . أحسست في جزء من الثانية أنني على وشك أن أغيب عن الوعي - كان ذلك جزءاً من الثانية فقط - وعندما تمالكت نفسي لم أستطع أن أزيد على قول كلمتين فقط هما سيداتي سادتي ! . . . وانتظر الملك أن أقول شيئاً آخر ، ولما لم ييدرمني شيء أخذ يلقي باقي كلمته ؛ وأحمد الله أنني تمالكت بعد ذلك أعصابي وترجمت باقي الكلمة .

مما لاحظته في اليابان في ذلك الوقت أن مترجميهم الذين يتكلمون العربية كانوا ينطقونها بطريقة كان يصعب فهمها على الملك ، ولهذا فقد كنت أجلس لأفهم ما يقوله المترجم الياباني وأنقل كلامه " العربي " إلى

الملك ، ولا أقول هذا لأنتقص من مقدرة مترجميهم ، فقد تكون مجرد صدفة أنه في ذلك الوقت لم يكن عندهم مترجم يتقن نطق العربية .

والحديث عن اليابان مهما قيل فهو مكرر ومعروف فهذا شعب خرج محطماً منهاراً منكسراً من حرب طاحنة ، وسقطت على مدنه القنابل الذرية ، ولكنه بقي شعباً حياً صمد لويلات الحرب ، وتغلب على كوارثها ، والآن بز العالم أجمع بمخترعاته وصناعاته ، وأظنها حقيقة ما يقال عن بعض الشعوب من أن لها عقولاً تعمل مثل الآلة الحاسبة بدقتها وتفصيلها . والشعب الياباني واحد من تلك الشعوب . فالياباني يصر على أن يعرف تفاصيل أية عملية يقوم بها ، ودماغه مستعد لتلقي ومعالجة جزئيات قد لا نجد نحن العرب مثلاً أهمية كبرى بها . وقد أخبرنا ابن خلدون في مقدمته أن العقل العربي لا يحب عادة الدخول في تفاصيل أي شيء بل هو يميل إلى التعميم ومعالجة الأمور من ظاهرها دون الدخول في صميمها ؛ ولهذا فقد لاحظت عندما كان يزورنا أحد كبار الرسميين اليابانيين مثل ولي عهدهم أو رئيس وزرائهم أن السفير الياباني ومسؤولي المراسم عندهم يبدوون في الاتصال بنا قبل الزيارة بمدة ثلاثة أشهر تقريباً ، ويصرون على أن يتكلموا معنا أو يقابلونا كل يوم تقريباً خلال تلك الفترة . وأعترف أنني وزملائي كنا نعجب من إصرارهم على الدخول في مناقشات حول أمور صغيرة سبق كما نتصور نحن أن عالجتها معهم قبل ذلك واتفقنا على ما يجب عمله . ولكن هكذا هو العقل الياباني الذي أنجز ما أنجز بحيث أصبح معجزة القرن العشرين وكل الدلائل تشير إلى أنه سوف يستمر معجزة في القرن القادم .

أسعدني الحظ قبل بضعة أيام من الانتهاء من تسجيل ذكرياتي هذه حين استمعت إلى المحاضرة القيمة التي ألقاها صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير عن حياة أبيه الملك فيصل رحمه الله بمناسبة مرور عشرين عاماً على انطلاق مؤسسة الملك فيصل الخيرية التي أصبحت الآن وفي هذا المدى القصير من عمر المؤسسات العملاقة تنافس أكبر المؤسسات المثيلة لها في العالم بما حققته من إنجازات باهرة. تكلم الأمير خالد أمام جمع غفير غصت بهم القاعة الكبيرة، جاءوا من أنحاء المملكة ليسمعوا ما يمكن أن يقوله ابن الملك الشهيد عن أبيه العملاق. وحديث كهذا يجد دائماً آذاناً صاغية لأن فيصل بن عبدالعزيز كان رجلاً غير عادي، والحديث عنه لا بد أن يكون هو الآخر غير عادي. ولا أقصد هنا فقط ما يقوله الناس والتاريخ أيضاً عن الملك كرجل دولة وسياسة فهذا ربما يعرفه الكثيرون، وإنما الذي أقصده هنا هو الجانب الإنساني من حياة ذلك الرجل الفذ، خصاله كإنسان وكأب، وشخصيته المتميزة، وسلوكه الأكثر تميزاً.

عرفت الملك فيصل عن كثب كما أوضحت عندما بدأت الترجمة له في عام ١٩٦٨ م. وشرحت كيف كان الموقف في تلك المقابلة الأولى، وكيف أعانني الله وتماسكت وأكملت المهمة. كان فيصل رجلاً مهيباً وكان النبل وهالة الملك يشعان من عينيه اللتين ما كان أحد ممن يعملون معه يجروء على النظر إليهما مباشرة، ومع ذلك فقد كان جم التواضع يسكن داخله رجل بدوي بسيط. ولكن من أين لزائر أجنبي أن يعرف ذلك وهو الذي يرى أمامه رجلاً حملت ملامحه كل جلال الملك؟ قدم سفير جديد أوراق اعتماده أمامه، والسفراء يقدمون أوراقهم عادة وقوفاً أمام الملك الذي يكون

هو أيضاً واقفاً وبجانبه أركان ديوانه . بدأ الرجل يقرأ كلمته ولكنه أخذ يتلجلج وأخذت يده ترتعشان بشكل كان من الصعب عليه أن يركز على ما حواه خطاب اعتماده . كان الحاضرون يبتسمون في وجهه محاولين التخفيف مما أصابه من رهبة الموقف ولكن هيهات . . ! وفي مرة أخرى كنت أترجم بين الملك وأحد زائريه ، فإذا بالزائر قد أخذته الرعدة ، واهتزت يده التي كانت تمسك بفنجان شاي ، واندلق شيء من الشاي على يده وملابسه قبل أن أسارع بإشارة من الملك فأتناول الفنجان منه .

تلك المهابة والأرستقراطية الرفيعة كانت جزءاً واحداً فقط من مكونات شخصية الملك فيصل ؛ أما فيما عدا ذلك فهو مثل باقي أبناء الملك عبدالعزيز يتحلى بدمائة الخلق والبساطة والتواضع . كان من عادته أن يتغدى ويتعشى في الديوان الملكي مع الناس ، وكان يفعل ذلك كل يوم . عندما التحقت بالديوان كنت ، عندما يكون الملك بجدة أتغدى على مائدته مثل غيري من الموظفين الذين لم يكن لهم بيوت ولا عائلات بجدة . كنا جميعاً نتغدى على مائدة الملك الصغيرة ، فيجلس هو على رأس الطاولة ونحن حولها كيفما اتفق . لم يكن الملك في ذلك الوقت (١٩٦٩-١٩٧١م) قد تحول إلى حالة الصمت التي تميز بها فيما بعد . سمعت كما سمع غيري أن الملك فيصل لم يكن في أي وقت من حياته من الذين يتكلمون كثيراً وكان أيضاً مثل ذلك عندما عرفته لأول مرة ، إلا أنه في أواخر حياته أصبح قليل الكلام جداً . كان مثلاً عندما يسافر في رحلاته الخارجية يتخذ مقعده في أول كرسي بطائرتة ويجلس هكذا لساعات طويلة دون أن يتفوه بكلمة واحدة . في الوقت الذي أتحدث عنه عندما كنا نتناول غداءنا بمعيتة كان يأكل قليلاً ثم يبدأ

بسرد بعض الحكايات والوقائع التي مرت به أو سمع عنها . كان يقصها بذلك الصوت الهادئ الوقور الذي تميز به . كان بعض تلك الحكايات مرحاً لدرجة أننا نحن الجالسين معه على المائدة نفجر بالضحك بأصوات عالية لم نكن نستطيع أن نكتمها . وكنت أعجب من ذلك الملك العظيم الذي يجلس على مائدة صغيرة مع مجموعة من الموظفين الصغار ويقص عليهم حكايات تضحكهم . لقد أودع الله تعالى في صدر ذلك الإنسان قلباً رحيماً رقيقاً ، وعندما يكون القلب من ذلك النوع يصبح مثل ذلك السلوك الإنساني الراقى هو الشيء الطبيعي .

تهذيب النفس عملية صعبة جداً لا يقدر عليها إلا فحول الرجال . والملك فيصل استطاع أن يطوع نفسه للقيام بالأعمال الجليلة الكبيرة التي كتب له أن يحققها . كان خاصة في السنين الأخيرة من حياته يسير على برنامج دقيق محدد لا يحيد عنه قيد أثملة وكان ذلك ولا يزال محل إعجاب كل الذين عرفوه وحيرتهم أيضاً وإلا كيف يمكن لأي إنسان أن يكون قادماً من رحلة مرهقة شاقة ، وقد طار لساعات طويلة ، ثم عندما يصل إلى بلده ويكون الوقت وقت عمل يتوجه إلى المكتب بدلاً من أن ينشد الراحة في مسكنه ؟ كنت أشعر في مثل تلك الحالات - وأنا قد سعدت وتشرفت بالسفر مع الملك فيصل في كثير من رحلاته الخارجية - بالسعادة حين لا يكون هناك زائر يتكلم الإنجليزية منتظراً في المكتب .

كنت أترجم لسفير ذات مرة وكانت المناسبة أيضاً تقديم أوراق اعتماد . كان ذلك في بداية عملي وقد سبق أن قصص تلك الحادثة في مجلة

اليمامة . وقف الجميع وبدأ السفير يلقي كلمته . فجأة لفت نظري شيء يتدحرج على السجادة بشكل دائري ثم يستقر قريباً من مكان وقوف الملك . والدائرة في مثل المناسبة المذكورة تكون صغيرة نوعاً ويكون عدد الحضور قليلاً . خيل إلي أنني إنما تخيلت أن شيئاً ما قد تدحرج ، ولكن لم تكبد الخاطرة تمر حتى رأيت شيئاً آخر يتدحرج ! . . كان قرشاً معدنياً . وعندما سقطت قروش أخرى وراءه اكتشفت السر الذي جعل العرق يتصبب من جبهتي . . كانت القروش تسقط من جيبي إلى الأرض وتقوم بحركتها تلك وتستقر في منتصف الدائرة . كنت أحمل القروش في جيبي عندما كانت لها قيمة في ذلك الزمان . اتضح أن الجيب كان مخروماً . وهذا ليس كناية عن الكرم بل كان مخروماً حقاً ولو أنني لست بخيلاً . كان الملك وكل الحاضرين ينظرون إلى القروش وهي تتهاوى وراء بعضها وسط الدائرة ثم تستقر على أحد جانبيها . ولحسن الحظ أن ذلك حدث عندما كان السفير يقرأ خطاب اعتماده وهذا عادة يكون مكتوباً ومعداً وتكون ترجمته معي . أكملت الترجمة ثم ترجمت كلمة الملك . هل تدرون من الذي طلب مني أن أجمع قروشي ؟ إنه الملك فيصل نفسه ! .

يصادف أحياناً أن يشهد المسافر إلى بلدان أجنبية ، أ وحتى عربية ، مواقف لا تخلو من الغرابة والطرافة . من مثل تلك المواقف ما اتفق لي أن شاهدته في موريتانيا أثناء زيارة الملك فيصل رحمه الله لها ، وكنت وقتها ضمن الوفد المرافق . كما جرت العادة أقام رئيس الدولة عشاء رسمياً للملك ومرافقيه . كان المكان فسيحاً وفي الهواء الطلق ، وقد نصبت طاولة صغيرة نسبياً للملك ورئيس الدولة وبعض كبار الرسميين من الجانبين ، أما نحن

الباقين فقد أجلسونا حول صوان كبيرة وضعت عليها الذبائح وتوابعها . وجلس حول كل صينية عدد يتراوح ما بين الستة والثمانية فوق طنافس تستخدم عندهم بدلاً من المقاعد أو الكراسي ، وهي مستديرة الشكل وترتفع قليلاً عن الأرض . . انتهى العشاء ، وقام الشعراء يتبارون في إلقاء قصائد المديح والترحيب ، وكان عددهم كبيراً جداً حتى إنني ظننت وقتها أن كل الحاضرين كانوا شعراء . ولم يكن مكنم الغرابة في ذلك بل في شيء آخر لا علاقة له بالشعر أو النثر . فبعد انتهاء الجميع من تناول الطعام فوجئنا نحن السعوديين بأن الحضور من أهل البلد أخذوا يستلقون على ظهورهم أو جوانبهم وكل واحد منهم يتوسد فخذه الآخر أو صدره هكذا بكل بساطة وعفوية .

زار الملك فيصل رحمه الله عدة دول إفريقية في عام ١٩٦٩م وكان ذلك إبان دعوته إلى التضامن الإسلامي . في أحد البلدان الإفريقية التي زارها أراد رئيس الدولة أن يطلع ضيفه على الجهود التي يبذلها في سبيل الدعوة إلى التضامن الإسلامي ، فكان أن اتجه بالموكب من المطار مباشرة إلى ناد في العاصمة قال إنه يقوم على نشر الدعوة الدينية وتبصير الناس بشؤون العقيدة الإسلامية . وصلنا إلى النادي المذكور وكان الوقت ليلاً . وفوجئ الملك ومن معه من الوفد الرسمي - وكنت أنا المترجم - بمجموعة من النساء يقفن بفناء النادي وقد أخذن يضربن على الدفوف ويرقصن ويغنين بعض الآيات القرآنية من قصار السور . أخذ الجميع بالمنظر بينما كان الرئيس يقف بجانب الملك فيصل شامخاً في زهو واضح طالباً مني أن أترجم للملك ما تغنيه النساء . كنت أنظر بطرف عيني إلى بعض أعضاء وفدنا وهم يحاولون أن

يكتموا نوبات الضحك التي انتابتهم . أما أنا فلم أذكر أنني في كل حياتي بذلت مجهوداً أكبر وأصعب من المجهود الذي بذلته في تلك اللحظة كي لا أنفجر بالضحك . ومع كل ذلك بقي الملك رحمه الله هادئاً وقوراً لم يبد عليه أنه رأى شيئاً غير عادي ، بعد فترة قصيرة من عودة الملك إلى المملكة كانت مجموعة من المرشدين الدينيين السعوديين في طريقهم إلى تلك الدولة الإفريقية .

ومرّ عليّ موقف آخر لا يقل غرابة عن سابقه ، وكان ذلك أيضاً في دولة إفريقية أخرى من الدول التي زارها الملك فيصل رحمه الله ضمن جولته تلك . كان اليوم آخر أيام الزيارة الملكية ، وكان الوقت قبل المغرب ، ولم يكن لديّ ما أعمله فبقيت في غرفتي بالفندق . رن جرس الهاتف في غرفتي ، وكان المتكلم موظف الاستقبال في الفندق ، اتصل ليخبرني أن رجلاً من رئاسة الجمهورية يريد أن يراني . نزلت إلى بهو الفندق عن طريق الدرج حيث كانت غرفتي في الطابق الأول فلا حاجة لاستعمال المصعد . قابلني الرجل الذي جاء ليراني عند منتصف الدرج ، وكان يحمل على رأسه " قفة " من الخوص كتلك التي كنا نستخدمها لوضع الخضراوات والفاكهة حين نشترها من سوق الخضار . عندما رأي أنزل القفة من فوق رأسه ووضعها على درجة السلم وسألني إن كنت أنا رجل المراسم . فلما أجبته بالإيجاب ناولني القفة قائلاً إن بداخلها أوسمة للوفد السعودي . وقفل راجعاً دون أن ينتظر جوابي أو يردّ على أي استفسار قد أوجه له . أخذت القفة فوجدتها مملأة بأوسمة صغيرة موحدة وضع كل وسام منها في علبة من الكرتون الهش . وضعتها بدوري أمام موظف الاستقبال وطلبت منه أن

يعطي واحدة من تلك العلب لكل سعودي يدخل أو يخرج من الفندق! . .

كان الملك فيصل رحمه الله في زيارة للصين الوطنية، تايوان، في نطاق جولة في جنوب شرق آسيا. كانت المرة الأولى التي أرى فيها تلك المنطقة من العالم، ولعلها كانت أيضاً كذلك بالنسبة للملك رحمه الله ومعظم مرافقيه. بعد أن استقر بنا المقام في فندق الضيافة في تايبيه وهو فندق فخم كان يستخدم كدار للضيافة بالإضافة إلى كونه فندقاً. كما ذكرت كانت المرة الأولى التي أزور فيها تلك البلاد، وقد شد انتباهي منذ اللحظة الأولى لوصولنا إلى المطار ذلك الشبه العجيب بين صيني وآخر حتى يخيل إلى المرء أن الناس نسخة مكررة. ولازمني هذا الانطباع عندما رأيت المزيد منهم في الشوارع وفي الفندق، وصرت أتساءل بسذاجة كيف يفرق هؤلاء الناس بين بعضهم بعضاً وهم على هذا القدر العجيب من التشابه. وازددت حيرة إلى حيرة عندما رأيت مجموعة من الفتيات وقفن خلف حاجز الاستقبال، وقد ارتدين زياً موحداً، وكنَّ من فئة عمّرية واحدة، فكان التطابق في الشكل بينهن كاملاً. عندها صرت أرثي في قرارة نفسي لحال مدير الفندق وأنا أتصوره وهو يريد أن يكلف فتاة بعينها القيام بعمل ما فيخطئ ويكلف أخرى ولا يكتشف ما وقع فيه من غلط إلا بعد فوات الأوان.

حمدت الله وشكرته إذ خلق بني قومي على صور شتى تتميز بعضها عن بعض إلا ما كان من شبه بين الأخوة وإلى حد أكثر وضوحاً بين التوائم. ولكن اغتباطي بهذا التميز لم يدم طويلاً، إذ استوقفتني إحدى فتيات الاستقبال على استحياء لتسألني عن أمر قالت: إنه أشكل عليها وهي ترقبنا

عند الدخول والخروج منذ أن نزلنا في الفندق . كان سؤالها لي : " كيف تستطيعون أن تفرقوا بين واحد وآخر منكم وأنتم على هذه الصورة من التشابه؟! " .

تصبح الترجمة كابوساً مزعجاً عندما يكون الاجتماع كبيراً، ويكون بعض الحضور على إمام طيب باللغة المترجم عنها، إذ يأخذ بعضهم في التدخل لتصحيح ما يعتقدون بأن المترجم قد أخطأ فيه . كان ذلك يزعجني جداً خاصة وأن المتبرعين بتصحيح ترجمتي لم يكونوا يأتون بشيء جديد اللهم إلا إظهار معرفتهم بلغة أجنبية . في موقف مثل هذا، أثناء رحلة قام بها الملك فيصل رحمه الله إلى بلد ما، عقدت جولة من المفاوضات، وكان السفير السعودي موجوداً بطبيعة الحال، فأخذ يتدخل في كل جملة حتى ولو لم يأت بمعنى أو معان تختلف عما أقوله . وفي النهاية اضطرت إلى أن أتخلى عن الترجمة كلية ودعوت السفير لتكملتها . في أول عهدي بالعمل في الديوان الملكي زار المملكة مسؤول أمريكي وترجمت له مقابلة مع الملك . عند انصرافه شد على يدي بحرارة وقال : " كانت ترجمتك ممتازة ولا عجب فالذي ترجم لثلاثة ملوك لا يستغرب منه أن يتقن عمله . " وانصرف مسرعاً . ولا أدري إلى الآن كيف اعتقد ذلك الرجل بأنني ترجمت لثلاثة ملوك مع أنني في ذلك الوقت كنت لا أزال شاباً حديث العهد بالديوان . ربما سمع الرجل قبل مجيئه بالمرحوم عبدالعزيز الماجد الذي ترجم فعلاً بعض الوقت للملك عبدالعزيز ثم ترجم للملك سعود وأخيراً للملك فيصل رحمهم الله جميعاً .

الترجمة كما قلت موهبة ولكن مهما كان المترجم ماهراً فهو يقدر للضيف الذي يراعي أطوال جملة، ويدرك طوال الوقت أن هناك شخصاً يترجم ما يقوله فتجده يتكلم بحساب ولا يسهب حتى يستطيع المترجم أن يلم بكل ما يقوله .

ومن الذكريات التي لا أنساها أن زعيماً إفريقياً هو اليوم خارج السلطة كان إذا بدأ يتكلم لا يسكت خاصة وأن لغته الإنجليزية سيئة للغاية . كان الملك فيصل رحمه الله في زيارة لبلده . وحل يوم الجمعة خلال الزيارة فتوجه الملك ومرافقوه لأداء صلاة الجمعة في أحد المساجد . وبعد أن انتهى الإمام من الخطبة ، وانتهينا جميعاً من الصلاة ، قام صاحبنا وبدأ خطبة جديدة . وبحكم عملي قمت ووقفت بجواره أنتظر أن يتوقف عن الكلام لأترجم ما يقوله . وتكلم وتكلم حتى كدنا جميعاً نظن أنه لن يتوقف . وأخذ أعضاء وفدنا يشيرون إليّ بأن أطلب منه السكوت حتى أستطيع أن أنقل حديثه إلى العربية ، ولكن إذا كنت قد أبدت أية إشارات واهية فإنه لم ينتبه لها أو لم يود أن ينتبه . أخيراً أمرني الملك شخصياً أن أطلب منه السكوت حتى أتمكن من ترجمة ما قاله . ولكنه عندما صمت لم أنبس بينت شفه ! فقد أضاع من ذهني كل ما كان قد قاله ، ضاع في غمرة اهتمامي بإشارات أعضاء وفدنا الذين كانت عواطفهم نحوي واضحة وانزعاجي من استرساله في كلام بدا أنه إكمال لخطبتي الجمعة اللتين ألقاهما إمام المسجد ! .

سافرت مرة ضمن وفد في رحلة قام بها خادم الحرمين الشريفين حفظه

الله إلى إيران زمن الشاه محمد رضا بهلوي . كان الملك فهد وقتها ولياً للعهد، وكان من ضمن البرنامج الذي وضعه الإيرانيون لنا غداء عمل . وغداء العمل هذا عبارة عن وجبة غداء عادية ولكن تتخللها أحاديث هي ضمن المحادثات التي تجري بين الطرفين، وقد تكون مكتملة لمحادثات سابقة . كان الحاضرون يعدون على الأصابع . هناك أولاً خادم الحرمين الشريفين أعزه الله وصاحب السمو الملكي الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية، ثم السفير السعودي في طهران آنذاك الأخ الصديق إبراهيم بكر وأنا . ومن الجانب الإيراني كان الشاه الراحل محمد رضا بهلوي ورئيس وزرائه وسفيره لدى المملكة في ذلك الوقت المرحوم الأستاذ جعفر رائد الذي ترك إيران بعد ثورة الخميني، وأصبح من الكتاب الموقين في القضايا الإسلامية عامة . لم أكن معهم لأنني مدعو ولكن لأنني المترجم . إلا أن الإيرانيين رأوا، تقديرًا لضيقتهم الكبير، أن أجلس على الطاولة فوضعوا أمامي الصحون وباقي معدات الأكل . كنت يومها لا أزال جديداً على المهنة ولم أتعلم بعد كل أصولها وقواعدها . ظننت لسذاجتي أنني مدعو فعلاً للطعام، وإلا فلماذا وضعوا أمامي الصحون والملاعق، وأجلسوني على السفرة وليس خلف الجالسين كما يجلس المترجم عادة . .!! وابتدأ تقديم الطعام، وحاولت أن أبدأ الأكل مثل الباقين . وهنا تكلم الشاه فوضعت ملعقتي جانباً لأترجم ما قاله . وبعد أن انتهيت من الترجمة عدت إلى ملعقتي مرة أخرى لأتناول شيئاً مما أمامي، وعندها كان "الأمير" فهد قد بدأ بالرد على ما قاله الشاه فوضعت الملعقة مرة أخرى في مكانها لأشعر في الترجمة من جديد . وتكررت الكلمات والردود حتى وجدت أنه من

المستحيل أن أتناول طعاماً في مثل ذلك الحال ، وأن عليّ أن أنتظر حتى أعود إلى دار الضيافة .

أود أن أقول وأنا على وشك أن أنهى هذه المذكرات أنني كنت محظوظاً في عملي بالديوان الملكي . والعمل مع الملوك والحكام لا شك أنه شرف كبير لا يناله إلا السعداء . وأستطيع أن أقول جازماً إنه ما من أحد تتاح له فرصة ليعمل في المواقع العالية هذه إلا ويغتنمها ، خاصة إذا عرفنا أن ملوكنا رحم الله من لاقى ربه منهم وأطال عمر مليكنا خادم الحرمين الشريفين فهد ابن عبد العزيز قد خصهم الله بقدر وافر من الطيبة والرحمة والحنو على من يعملون معهم . وما أكثر الهفوات والغلطات التي نرتكبها ، ومع ذلك فهي تقابل بالصفح والتسامح . رحم الله الملك خالد بن عبدالعزيز فقد كانت طبيته لا حد لها وكان يعتبر نفسه أباً ليس فقط لمن يعملون معه بل للجميع .

أما خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز فيكفي أن أقول عنه إنه الإنسان الذي لا تفارق الابتسامة والسماحة وجهه ، ليس فقط نحو ضيوفه الكبار بل مع كل الذين يعملون معه وتحت مظلته . إنه الإنسان صاحب القلب الرحيم الذي لا يعرف عن ضائقة ألمت بأحد أو مكروه أصاب قوماً سواء في مملكته أو خارجها إلا سارع بما يحمله فؤاده من حنان ورحمة نحو الجميع إلى التفريغ عن المبتلين الذين مهما كانت سعادتهم بالخروج من معاناتهم فهي لا تعادل سعادة صاحب العطاء .

سافرت مرات عديدة مع الملك فهد ، وكنت أشعر دائماً ، كما يشعر كل مرافقيه ، أنه لا يميز نفسه عن رفاق السفر إلا عند المناسبات الرسمية التي

لا بد أن يكون لها طقوسها الخاصة ، وكان ذلك يزيده علواً ورفعة في أنظار كل من هم في معيته ، وأعرف أنه حفظه الله ما احتد على إنسان ، أو وبَّخ موظفاً ممن يعملون في كنفه على تقصير أو غلط ما ، إلا وسارع في أقرب فرصة إلى إبداء رضاه عن ذلك الإنسان بكلمات رقيقة أو مداعبة خفيفة تثلج صدره وتسري عنه .

أذكر هنا حادثة طريفة تعطي مثلاً على حلم الملك فهد وسماحة نفسه . كنا في الطائف ذات صيف وكان خادم الحرمين الشريفين حفظه الله ولياً للعهد آنذاك ، وكان الملك خالد رحمه الله مسافراً خارج البلاد . في تلك الأثناء زار المملكة أحد القادة العرب وأعد له الاستقبال الرسمي المعتاد ، ثم في المساء كان حفل العشاء الرسمي الذي أقامه خادم الحرمين الشريفين . وفي اليوم الثاني ، وقبل الظهر ، قام الملك فهد حفظه الله بزيارة الضيف في قصر الضيافة حيث جلس الاثنان معاً لتكملة ما بدأه في الليلة السابقة من محادثات . كان الطهارة قد أعدوا الطعام ورتبت المائدة على افتراض أن الضيف والمضيف سيتناولان طعام الغداء في قصر الضيافة . علاوة على ذلك فقد أكد لي رئيس مراسم الضيف أثناء وجود القائدين أن الزائر أعجبه جو الطائف وأنه سيقضي يوماً وليلة أخرى عندنا وبالطبع رحبت بهم باسم ولي أمرنا . كنت قبلها قد بدأت أعد لسفر الضيف بعد الغداء مباشرة ، ولأن السفر يكون رسمياً كاملاً مثل القدوم فقد أبلغت أمين عام مجلس الوزراء أن يخبر أصحاب المعالي بالبقاء بمكاتبهم بمجمعهم حتى أخبرهم عن الوقت الذي يذهبون فيه إلى المطار إلا أنه عندما أخبرني رئيس مراسم الضيف أن رئيسه سوف يبقى عندنا ليلة أخرى أسرعت لأخبر الوزراء هاتفاً أنه لن

يكون هناك سفر للضيف في ذلك اليوم .

وانتظرنا انتهاء المباحثات . وعندما خرج الزعيمان ، وأسرعت أمامهما نحو صالة الطعام ، فوجئت بالملك فهد يخبرني أنهم متجهون إلى المطار . وضحك الاثنان عندما فتح موظفونا أبواب السفارة . أسرعنا طبعاً إلى السيارات ، وفي المطار كان هناك شخص واحد للمشاركة في التوديع ، وهو صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز الذي كان قد وصل لتوه إلى الطائف للمشاركة في المباحثات . وما إن تحركت طائرة الضيف حتى ناداني الملك فهد حفظه الله ، فاقتربت منه ووجدت علامات الغضب واضحة على معالم وجهه . وكنت شبه متأكد بأنني أعرف سبب غضبه ، وكان السؤال الذي انتظرته هو : لماذا لم يحضر الوزراء للتوديع ؟ وشرحت له ما حصل وأنه إن كان اللوم يقع على أي أحد فعلياً أنا لأنني أنا الذي طلبت إليهم عدم الحضور للمطار حسب إفادة رئيس مراسم الضيف . وهذا الملك حفظه الله وابتسم عندما عرف الحكاية .

أما أعمال خادم الحرمين الشريفين كرجل دولة فهو في الواقع رائد النهضة الحديثة في المملكة العربية السعودية ، وهو المسؤول الأول عن إنشاء صناديق التنمية الزراعية والصناعية والعمرانية ، وهو المسؤول عن الطفرة التعليمية منذ كان وزيراً للمعارف ، كما أنه هو الذي وضع حجر أساس شبكة المواصلات الحديثة بالمملكة . ولا يمكن لإنسان أن يكتب عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ، حتى لو لم يقصد من وراء ذلك أن يؤرخ لأعماله كرجل دولة سياسي محنك ، لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك

دون أن يذكر القرار الحاسم القوي والمصيري الذي اتخذته عند غزو العراق لدولة الكويت ، لقد هب الملك فهد عندما أدرك أن النار التي أشعلها صدام بالخليج سوف يمتد لهيبها إلى أبعد من حدود الكويت . لم يتردد في أن يأمر بتعبئة إمكانات المملكة لدرء الخطر القادم ، وأتبع ذلك بدعوة الدول العربية والإسلامية وكذلك الدول الصديقة كي تساعد في حماية المنطقة من خطر كان يعلم الله إلى أي مدى سيمتد أواره لو لم يحسم الملك الأمر باتخاذ قراره التاريخي الذي أنقذ الكويت والمملكة وباقي دول الخليج من خطر محقق . إن تلك الخطوة الجريئة بعيدة النظر هي من المهمات الجسام التي لا يقوى على الاضطلاع بها سوى عظماء الرجال ممن ربطوا مصائرهم بمصائر بلادهم ، وكانوا أهلاً للمسؤولية عندما وقعت المسؤولية على أكتافهم .

تقوم المراسم الملكية بتنظيم مواعيد خادام الحرمين الشريفين وصاحب السمو الملكي ولي العهد خاصة فيما يختص بالضيوف الأجانب واستقبالهم والعناية بهم . ومن هذا المنطلق فقد كنت ولا أزال أشرف بخدمة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني . ولقد أسعدني أنني رافقت سموه في البعض من رحلاته التي قام بها إلى بلدان عربية وإسلامية وأجنبية .

وأول شيء يلحظه من يعمل مع صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله هو احترامه وتقديره لكل إنسان تجمعه به الظروف خاصة من الضيوف الأجانب الذي يحثنا دائماً نحن رجال المراسم على أن نعمل كل ما في وسعنا لجعل زياراتهم مريحة ومنظمة ليسهل عليهم إنجاز المهام التي أتوا من

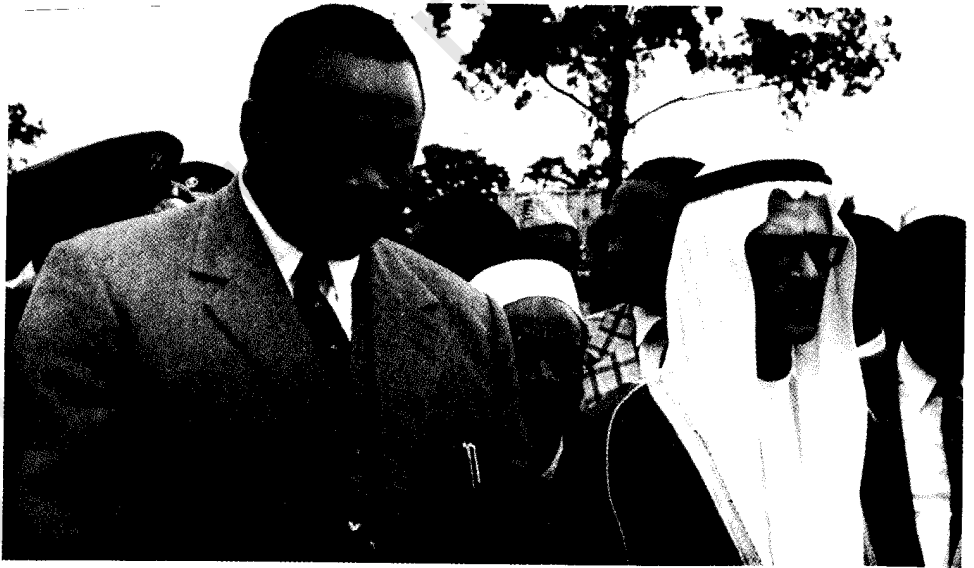
أجلها . والواقع أن الإنسان القريب من سموه يتعلم دروساً كثيرة وقيمة أولها الالتزام التام بواجبات العمل والدقة في أدائه ، وليس آخرها الإخلاص والجدية في كل ما يؤدي من عمل كبيراً كان أم صغيراً .

وإذا تكلم المرء عن صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز فلا بد أن يقع في حيرة شديدة حيث لا يعرف من أين يبدأ ولا كيف ينتهي . إن هذا الرجل الهاش الباش الذي لا تفارق الابتسامة وجهه والذي تقابله ، وأنت المشوق إلى لقائه ، فيجعلك بدمائة خلقه وتواضعه تشعر بأنه هو نفسه في أشد الشوق إلى مقابلتك . تتحدث إليه فيتجه نحوك بكل جوارحه ، ويستمع إلى كل ما تقوله وكأنه ما من شيء آخر يشغله مع أنه يضطلع بأعباء جسيمة ينوء تحت ثقلها فحول الرجال . أما إذا تحدث فإن حديثه طلاوة ووقعاً خاصاً ومحبباً للأذن والنفس معاً حتى أن السامع يود ألا يتوقف . وما أكثر الناس الذين يقصدون الأمير سلطان وهم على يقين بأنهم لن يرجعوا من عنده خائبين . يذكرني صاحب السمو الملكي دائماً ببيت الشعر الذي يقول :

تراه إذا ما جئته مهلهلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله



خلف المرحوم الملك فيصل في أول اختبار حقيقي للترجمة في ماليزيا،
والذي هنأني عليه كل أعضاء الوفد السعودي .



أقوم هنا بالترجمة لكلمة ألقاها الرئيس الأوغندي السابق عيدي أمين
أثناء زيارة الملك فيصل لأوغندا .



الملك خالد رحمه الله عند استقباله للملك خوان كارلوس ،
بعد أن تسلم عرش أسبانيا



لحظة استراحة من عناء إحدى الرحلات الداخلية ويرى معالي الشيخ
محمد النويصر وأنا والأستاذ عبدالرحمن الحمودي



كان لي شرف الترجمة لخادم الحرمين الشريفين لسنين طويلة قبل وبعد أن تولى العرش



خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز حفظه الله يستقبل أحد الضيوف ،
ويرى معالي رئيس المراسم الملكية الشيخ محمد بن عبدالرحمن آل الشيخ .



في أحد استقبالات صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس
مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني



مع صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز، النائب الثاني
لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران.

obeikandi.com

أقول عن نفسي

ذكرت سابقاً أن هدفي ليس أن أؤرخ لنهضة المملكة ولا أن أتكلم عن ملوكها ورجالها، فأنا أعرف أنني غير مؤهل لذلك، وأن هناك كثيرين ممن يملكون القدرة على الكتابة بشكل أفضل عن ملوكنا وبلادنا ونهضتنا. كما أنني لم أتكلم كثيراً عن أهمية عمل المراسم حتى لا أتهم بإعطاء هذا القسم من العمل الحكومي أهمية خاصة، ولكن لا بد من الاعتراف بأنه عمل دقيق جداً وحساس جداً، ولا سيما أن المرجع الأعلى هو الملك نفسه. وطبيعي أن نكون نحن العاملين في هذه الدائرة قلقين ومتوترين و "مكشرين" طوال ساعات عملنا وخاصة عندما تكون هناك زيارات لرؤساء دول أو اجتماعات قمة أو غيرها من المناسبات المهمة. أو ربما أبدو أنا فقط مكشراً كما يصير على اتهامي بعض المسؤولين. وهي تهمة لا أنكرها ولكن لها ما يبررها. فأنا من ذلك النوع من الناس الذين يظهر على وجوههم ما يتفاعل في كيانهم. ولما كنت واحداً من المسؤولين عن إعداد زيارات رؤساء الدول والحكومات الأجنبية إلى المملكة واستضافتهم وإعداد برامج زياراتهم حسب التوجيهات التي أتلقاها فإنه من الطبيعي أن لا يطفح وجهي بالابتسام طوال الوقت. ولا أتفلسف الصعداء إلا عندما تنتهي المناسبة وأتأكد أن كل شيء سار على ما يرام.

أنني -كما يقولون- أبدو دائماً "مكشراً" . . . ! وأقول لهؤلاء -وأرجو أن يقرؤوا ما سأقول- إن "التكشيرة" هذه هي نتاج المتطلبات الثلاثة التي لا

غنى للعامل في المراسم عن استيفائها: التحفظ، والتيقظ، والتأهب. وليست هذه المتطلبات مجرد حلية بل هي جزء لا يتجزأ من حياة مسؤول المراسم لا تفصل عنه، ولا ينفصل عنها، لا في نهار ولا في ليل.

ومع ذلك فأنا أعترف هنا بأن رجل المراسم يجب أن يكون قدوة من حيث مقدرته على التعامل مع الأشخاص والأحداث، وأن يشرق وجهه دائماً بالابتسام، كما ينبغي عليه أن يكون حاضر البديهة، حسن التصرف، هادئ الأعصاب؛ لأنه يتعرض أثناء أداء عمله إلى مواقف محرجة تتطلب منه السيطرة على أعصابه كلية عند المواقف المحرجة. وفي كل ذلك يجب ألا تفارق الابتسامة وجهه، وهذا ما لم أتمكن طيلة عملي هذا أن أتقنه، أقصد الابتسامة وليس الصفات الأخرى التي أعرف أن لدي منها على الأقل حداً أدنى. هناك أناس مثلي تظهر انفعالات نفوسهم على وجوههم، هكذا خلقهم الله وأنا خلقتني واحداً من هؤلاء. لا أريد طبعاً أن أجعل من أمر بسيط مثل هذا شأناً كبيراً ولكن "التكشيرة" التي يتهمني بها بعض المسؤولين توقعني فعلاً أحياناً في مواقف محرجة، فعندما أنظر إلى شخص ما وأنا مقطب الجبين فلا يجب أن أستغرب لو تساءل عما يغضبني ويجعلني أنظر إليه شزراً. وقد واجهت فعلاً مواقف كهذه.

الحقيقة أن هناك عيوباً أخرى أعاني منها ولا أجد الآن حرجاً. وقد قاربت مدة خدمتي على الانتهاء. من الإفصاح عنها، وهي ليست خفية ويعرفها كل أصدقائي ومن يتصلون بي؛ منها أنني لا أحسن استخدام ما يسمى باللغة الدبلوماسية مما يعني أنني ألجأ إلى الصراحة وعدم المواربة في ما

أريد أن أعبر عنه ، بمعنى أنني قليل المجاملة حتى لقد قيل لي : إن مثلي هو آخر إنسان يصلح لمثل العمل الذي أشغله . أما كيف مكثت فيه طوال هذه السنين التي مرت فذلك سر لا أعرف كنهه على وجه اليقين ، ولكن يمكنني القول حدساً إنه لا بد أن لديّ بعض المزايا الطيبة التي تعوض عما ينقصني في مجال المجاملات .

كنت في صغري مثلاً ولداً " شقياً " وهذه حقيقة لا أجد حرجاً من الاعتراف بها ، وأستعمل كلمة " شقياً " هذه بمعناها العامي المتعارف عليه بلغة أهل المنطقة الغربية ، أي أنني كنت إلى حد ما حاد المزاج أثور لأسباب ربما كانت تافهة وإن لم أكن أظنها وقتئذ كذلك . كانت الوالدة رحمها الله تعاني من " شقاوتي " تلك ، وتعاقبني إذا تماديت فيها . كنت أثور بسبب أمور لو مر مثلها بغيري لما أثارت ثائرتي . كنت إذا طلبت شيئاً ولم أحصل عليه أغضب إلى الحد الذي يقودني أحياناً إلى ارتكاب أعمال تتصف بالعنف كأن أكسر بعض ما تصل إليه يدي ، أو أخرج إلى الشارع وأبدأ في قذف باب المنزل بالحجارة . وكانت تلك الأعمال الصبائية غالباً ما تنتهي بعلقة ساخنة من يد الوالدة رحمها الله . لا بد أنه كانت هناك أسباب لهذا العنف ، وإن كنت لا أعرف ما هي بالضبط .

كنت أسمع أحياناً أنني منحوس الطالع ! بمعنى أن شيئاً سيئاً قد حصل عند ولادتي ، وأن آخر مثله قد وقع عندما بلغت من العمر كذا ، وهكذا . أقول إنه ربما كانت تلك النظرة لي والاعتقاد بأنني أتيت إلى هذه الدنيا جالباً في ركابي الحظ التعس لمن حولي هي التي جعلتني أميل إلى بعض العنف

في طفولتي ، وهذا تفسير أحب أن أؤكد أنه يحتمل الخطأ والصواب .
ولعل ذلك هو ما جعلني مستعداً لأن أبذل الغالي والرخيص مقابل
الظفر بمعاملة كريمة أجدها فيها الحنان والعطف ، ومستعداً من الناحية الأخرى
لأن أثور كالريح العاصفة ، ولو في قرارة نفسي ، عندما لا تكون المعاملة
كذلك . كنت قد ذكرت أن أختي الكبرى صارت بمثابة الأم لي بعد وفاة
والدتي ، وأزيد على ذلك فأقول إن الرجل يجد له أمّاً في كل أنثى تسقيه من
نوع حنانها . فلا عجب إذن أن تصبح خالتي أمي ، وأن تصبح حماتي أمي ،
وهما فعلاً جديرتان بكل المعايير بأن تكونا كذلك .

في زيارتي لسوريا كانت سعادتي تبلغ أقصى حدودها عندما أرتقي بين
أحضان خالتي رحمها الله التي كانت عندئذ ما تزال تقيم في دمشق مع
زوجها عبدالله العتيبي رحمه الله وبقية العائلة . كانت خالتي تظهر لي من
الحب والرعاية والعطف ما أعجز عن وصفه ، ولو أوتيت ألف قلم ولسان .
كنت أشعر بأنني في حضنها الدافئ قد بلغت مرفأ الأمان حيث السكينة كلها
والسعادة كلها . كانت تستقبلني وكأنها أمضت حياتها في انتظار تلك
اللحظة ، تغمرني بكل أنواع الدلع والعطف ، ومنذ اللحظة التي أحط فيها
بقدمي في بيتهم في الميدان بدمشق كانت قائمة الطعام مثلاً تعدل لتوافق
رغباتي . ولا أنسى وهي تتبعني كل صباح في المنزل من مكان إلى مكان
وتكرر سؤالها : "منصورة أيش بدك تاكلي اليوم يا حبيبتي؟" هكذا كانت
تدلّني تعبيراً عما تكنه لي من حب . كانت كلماتها العذبة تلك تساوي
عندي أحلى ما في الدنيا . حقاً ليس في الدنيا ما هو أعذب من أن يجد

الإنسان نفسه محاطاً بالحب والاهتمام ممن هم حوله . وهكذا فقد كنت أنتظر في كل مناسبة متاحة أن أشد الرحال إلى دمشق لأعيش في كنف خالتي أياماً أحلق فيها في سماء عالية من البهجة والرضا بما تغدقه عليّ من حبها وحبها .

أذكر الآن كيف كانت تغمرني السعادة عندما أقبل رأس خالتي أم زوجتي ، وكم كانت تغمرني الغبطة والامتنان وأنا أراها ترفع يديها إلى السماء داعية لي من صميم فؤادها بأن ييسط الله في رزقه لي ، وأن يزيدي علواً وينصرني على أعدائي وكل من يريد بي شراً . تلك دعوة أحنُّ إليها ولا أملُ سماعها مهما تكررت ، ومن حسن حظي أن خالتي لا تسأم تكرارها بصدق وحرارة ، ولا أشك للحظة واحدة أن حماتي قد خصصت لي مكاناً مكيناً في قلبها كالذي جعلته لأبنائها وبناتها . المشكلة الوحيدة التي أواجهها كلما زرت خالتي هي ما تعانيه معدتي بعد أن أضطر إلى تذوق كل أنواع الأكلات وغرائب المكسرات والمحمصات التي تحيط نفسها بها طوال الوقت ، وهي تجلس معظم ساعات النهار في كرسيها المفضل ، وتصر على زوارها أن يتذوقوها حتى لو لم يكن الوقت وقت أكل ، ولا تقبل من أحد كلمة عذر ، بينما هي نفسها تكاد تعيش دون طعام . وفي كل مرة لا يجدي اعتذاري مهما سقتُ من أسباب ، وحينما أتطلع إلى زوجتي لتنجدني بكلمة من عندها أجدها تبتسم في شماتة ظاهرة .

إنني إنسان - وأنا هنا أكرر نفسي - تنقصني اللباقة في علاقاتي العامة ، أو بمعنى آخر إنني أسمى الأشياء بأسمائها ، أو بمعنى ثالث إنني صريح ولا

أحب المجاملة الزائدة والنفاق . إذا أحببت شخصاً لا أتردد كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن أصارحه بحبي له . ولكن المشكلة أنني أيضاً إذا لم أحب إنساناً فإنني أصارحه كذلك بحقيقة شعوري نحوه . تنصحني زوجتي دائماً أن أجمال الناس ، وأن أبتسم لمن يتسمون لي ، وأن أخفي ما يعتمل في قلبي . . وأنا أرفض هذا المنطق ، وأبرر رفضي بأن الابتسامة ، وأعني بها هنا العلاقة عموماً ، لا جدوى منها إذا لم تكن أصيلة صادقة صادرة من القلب . ثم إنني أدرك في الوقت نفسه أن الطبع غلب التطبع ، على حد التعبير الشائع . وأنا في هذا لا أتفق مع شاعرنا الكبير المتنبي الذي بدا في أحد أبياته وكأنه لا يرى غضاضة في أن يلجأ المرء عند الضرورة إلى أن يدهن ويصانع ويجامل :

ولما صار ود الناس حباً جزيت على ابتسامٍ بابتسامٍ

ومع ذلك فأنا أدرك أن المتنبي على حق وأنني على خطأ ! .

من العيوب الأخرى التي أعاني منها عدم تذكر أسماء الشخصيات الكبيرة الرسمية وغير الرسمية التي عليّ أن أقوم بتقديمها للزوار الرسميين من رؤساء الدول والحكومات . ذلك نقص فيّ لم أستطع أبداً للأسف معالجته . وكثيرة هي المرات التي كنت أقدم فيها إلى الضيف شخصاً مرموقاً ثم أجد أنه غاب عني اسمه ! كنت أحياناً أنطق باسم مختلف ، وأحياناً أغمغم وكأنني أنطق اسماً ، والإحراج واحد في كلا الحالين .

وما أكثر المرات التي جاءني فيها أمثال هذا الشخص عاتين أو منتقدين فلا أملك إلا بعض كلمات ضعيفة أسوقها على سبيل الاعتذار وأنا أعرف

أنهم لن يقتنعوا بها . وليست قدرتي على تذكر الوجوه والملامح بأفضل منها على تذكر الأسماء .

كنت أعرف رجلاً أمريكياً كان يمثل شركة كبيرة لها مكتب في الرياض . استمرت العلاقة لعدة سنين . لم أكن أراه كل يوم طبعاً ولكنني أقابله أحياناً في مجال العمل وفي مناسبات اجتماعية . هذا الرجل تزوج وسافر مع زوجته لقضاء شهر العسل ، وكنت ممن حضروا حفل زواجه بالرياض . بعد حوالي شهر دعنتني الشركة إلى مقرها في مناسبة ما . جلست في السهرة أتحدث إلى رجل يجلس بجانبني حديثاً طويلاً ومتشعباً . أخيراً لا أدري ما الذي أدخل في ذهني أن أقول إنني أغبط فلانا الذي تزوج حديثاً ، وهو الآن لا يزال يتقلب ويسبح في العسل . نظر الرجل إليّ بدهشة حائرة ، ولما استفسرت عما يدهشه ، أجاب إذا كان فلان لا يزال يسبح في العسل كما تقول فمن أكون أنا إذن؟ في موقف كهذا ماذا يمكن للشخص أن يجيب ليخرج أو يخفف من وقع المأزق الذي سقط فيه . كيف يمكنني أن أبرر مثل ذلك الخلط الرهيب؟ المشكلة أنني لست سريع البديهة حتى أدعي مثلاً أنني إنما كنت أمزح أو أنني لجأت إلى السخرية الدرامية التي نجدها في روايات جين أوستن مثلاً . لم أفتح فمي بكلمة واحدة بل أخذت أنظر إلى الرجل بشيء من البلاهة جعلته يرثي لحالي وينفجر في نوبة ضحك مفتعلة مؤكداً أنها كانت فعلاً نكتة مبتكرة! وحكايات أخرى كثيرة بعضها أسوأ من هذه ولا أود الاستطراد حرصاً مني أن لا يتحول كتابي هذا إلى سرد اعترافات ويبقى كما أردته أن يكون تسجيلاً لبعض ذكريات وعلامات في حياتي رأيت أن أقدمه للقراء وخاصة الشباب منهم لعلهم يجدون فيه ما يستحق جهد القراءة .

obeikandi.com

بين الأحفاد والأصدقاء

لدي من الأبناء ثلاثة، بنت وولدان، أصغرهم إياد الذي ولد في المملكة بعد أن رجعت من الولايات المتحدة. عندما عدت من أمريكا، ولفترة بعدها ليست بقصيرة، كانت ابنتي وابني نزار يتحدثان الإنجليزية بشيء من الطلاقة خاصة ابنتي التي كان لها من العمر آنذاك سبع سنوات بينما كان نزار في الرابعة من عمره. مكثا هكذا لفترة، وحتى بعد أن هجرا الإنجليزية بقيت لديهما كلمة واحدة لم يتخلصا منها وهي (دادي) التي تعني بالإنجليزية أبي أو (بابا). كانت الابنة والابن الكبير يدعوانني (دادي)، وبما أن الصغار يقلدون ويتعلمون مما يسمعون فقد نشأ إياد أيضاً يدعوني (دادي). والابن الأصغر في العائلة يتجاذبه في الحقيقة تياران متباينان تماماً، فهو بسبب صغر سنه يكون الأكثر قرباً من والديه، أما بالنسبة لإخوته الكبار فلا يكون ذلك صحيحاً دائماً، إذ هو أحياناً الجانب الأضعف الذي يعجز عن حماية نفسه ضد اعتداءات إخوته الأكبر منه. ولم يكن إياد ولا إخوته ليشذوا عن ذلك الطبع، فقد كان الصغير غالباً الضحية المغلوب على أمره عندما تحدث المعارك بينه وبين نزار. واحد من أسباب الخلاف كان لفظة (دادي) تلك. فإياد نشأ يسمع هذه الكلمة فراح يستعملها هو الآخر من باب التقليد، إلا أن نزاراً وأخته أنكرا عليه استخدام كلمة لم يكتسب حق استخدامها بالعيش في أمريكا كما فعلاهما. ويظهر أن الصغير بعد أن تكرر التلميح وأحياناً التصريح بذلك، وكان شديد الاعتزاز بنفسه وآرائه، وجد فعلاً من السخف

استخدام كلمة أجنبية ، وأنه لا يليق بمثله أن يترك لغته العربية من أجل لفظ أجنبي لا يعني له شيئاً ، فقرر أن يدعوني (بابا) ، ثم حوّل بسرعة إلى (أبوي) وما لبث إخوته الكبار أن نحووا هم أيضاً نحوه .

تربطني بأولادي وزوجتي وأسرتي عموماً والحمد لله علاقات حميمة قوية ، ونحن أسرة متحابّة متماسكة بكل معنى الكلمة ، وعلاقتي بأخي وأخواتي وأبنائهم تعتبر بكل فخر مثالية . يستطيع كل رجل أن يقول مثل ما أقول ويكون صادقاً ، ولكنني أزعّم أن الحب الذي يجمعني بأهلي يبقى متميزاً . معروف مثلاً عن الحموات في بلادنا ، على عكس بعض البلدان الأخرى ، أنهن يحبن أزواج بناتهن كثيراً ، وعلى الرغم من صحة هذا الافتراض فإن أختي أم عبد الرزاق الخريجي تعلن في كل مناسبة أنني أقرب إلى قلبها من الجميع بما فيهم أزواج بناتها ، أما أختي أم خالد الخربوش فمنذ كانت طفلة وهي على أتم الاستعداد لأن تخوض أشرس المعارك دفاعاً عني لو سمعت ولو كلمة واحدة عني لا ترضيها ، والحمد لله على ذلك ، ومن نافلة القول أن أؤكد أنني أبادلهم جميعاً حباً بحب .

الحديث عن العواطف الجميلة التي أودعها الله في صدورنا نحو ذوينا ، وأودع مثلها في صدورهم نحن ، ذكرتي بحادثة تتعلق بابني إياد . كان من عادته وهو طفل أن يقفز في سريره فرحاً وسعادة وتنطلق ضحكاته عالياً عندما يراني .

ذات يوم عدت من المكتب ، وكنا في ذلك الوقت في الطائف نقيم في شقة في حي الشرقية . دخلت المنزل وكانت زوجتي في المطبخ وإياد في

سريره في الصالة، وكان عمره آنذاك لا يزيد عن سنة واحدة. لم يأت بأي من الحركات التي يقوم بها عندما يراني بل لم يبتسم، وإنما كان ينظر إليّ بعينين ذابلتين حزيتتين. أدركت رأساً أن هناك شيئاً غير عادي، فناديت زوجتي وأخذت إياداً بين يدي، ولم أكد أحمله حتى غاب عن الوعي، وشخصت عيناه إلى أعلى، واختفى سوادهما، ولم يعد يُرى إلا البياض. كان الموقف أكثر إيلاً مما تستطيع الشجاعة أن تحتمله، لذلك انهرت أنا أيضاً، وأخذت يداي ترتجفان وهما يحملان الصغير. كنت على يقين أن الطفل يموت وأنا أحمله. وبسلوك آلي سلمته لوالدته التي كانت بجانبني، وهي الأخرى في حالة يعلم الله بها، وانطلقت أعدو خارج الشقة أبحث عن طبيب. ولحسن الحظ كان صاحب العمارة نفسه طبيباً وزوجته ممرضة ويسكنان الشقة المجاورة. أسرعت المرأة جزاها الله خيراً إلى بيتنا وساعدتنا بخبرتها الطبية في إخراج إياد من غيبوبته، وبعدها أتى طبيب آخر - غير زوج الممرضة - يسكن في العمارة أيضاً وأكمل العلاج. وإلى يومنا هذا لا أعرف كنه ذلك المرض المفاجئ الذي انتاب الطفل.

لقد كبر إياد الآن، وأنهى تعليمه الجامعي ولله الحمد مثلما فعلت أخته وأخوه من قبل. وقبل أن أختتم ذكرياتي هنا عن الأولاد أذكر أن إياداً كانت له طريقة فريدة عندما كان طفلاً في شرح شكواه وإقناعي بعدالة قضيته في الصراع الذي كان يدور دائماً وأبداً مع نزار الأخ الأكبر. كنت أعود مثلاً من رحلة عمل طويلة وما إن أدخل من الباب حتى يبادرني ليس بالسلام، بل بالشكوى من أن نزار اعتدى عليه. كانت طريقته في إقناعي بصدقه هي أن يبدأ بضرب نفسه بقوة لا تقل عما لاقاه من نزار. كنت أسرع فأوقفه عن

الاستمرار في معاقبة نفسه بتلك الطريقة المبتكرة للشكوى ، وأعدده بأنني سأقتصر له من أخيه المعتدي . وحدث ذات مرة أنني لم أركز انتباهي على ما كان يشكو منه ، إذ ربما كنت مشغولاً بأمر ما ، فلما رأى أن شكواه ذهبت سدى رجع إليّ ووقف أمامي منتصب القامة ، ربما ليبدو أطول مما كان ، ورشقني بنظرة حملها ما يستطيع من جدية ووقار وقال : " بكرة لما أنا أكبر وأنت تصغر سأوريك " ! كان ذلك تهديداً مبتكراً من طفل في الخامسة لم أستطع حياله أن أغالب رغبة جامحة في الضحك ، وأصبحت بعدها كلما أردت أن أسمع منه الكلمة أتعمد أن أتجاهل شكواه .

حكايات الأطفال وقفشاتهم ونواديرهم وتعليقاتهم أجدها من بين أجمل وأحلى ما يُسمع منهم مباشرة أو رواية عن طريق الكبار . فالأجوبة التي ترد أحياناً على الأسئلة الأطفال بعفوية لذيذة وردود أفعالهم لما يواجههم في حياتهم الغضة تشيع في ذويهم وفي السامعين مرحاً وسعادة لا يستطيع كلام الكبار في كثير من الأحيان أن يثير ما يماثله في النفوس .

لا يوجد ألطف من طفل يعبر دون سابق إعداد عن مشاعره تحت ظروف معينة يتعرض لها . تراه عندئذ يعطي رأيه بجدية وإخلاص وبراءة يعجز الكبار عن الإتيان بمثلها . إن براءة الأطفال وطهر سرائرهم وعفويتهم كلها صفات محببة إلى نفوسنا نحن الكبار لأنها صفات لم تفسد مع تقدم السن وما يتبع ذلك من تجارب ومعرفة . وكم أتمنى أن يتصدى أحد أدبائنا لإصدار مؤلف متكامل عن عالم الأطفال ، ليس للحديث عن تربيتهم ومرضهم ومعاونة ذويهم فهناك الكثير من هذا ، وإنما لتحليل أفكارهم وتعليقاتهم

وفلسفتهم الخاصة بهم . عندما كنت في أمريكا كان هناك رجل أذكر أن اسمه آرت لينكلتر كان له برنامج يتكلم فيه عن الناس ومشاكلهم والمفارقات التي تقع لهم ، وكان دائماً يبدأ برنامجه بمقابلة أطفال والحديث معهم وسؤالهم عن أشياء معينة في حياتهم . وكانت الأجوبة دائماً طريفة والتعليقات أكثر طرافة عندما يطلب منهم أن يصفوا أو يعلقوا على شيء ما .

وكانت هناك مواقف أخرى حدثت لي مع ابنتي وابني نزار وهما في سن الطفولة . فقد عاقبني الاثنان ! وسأشرح : كنت جالساً ذات مرة - وكنا في أمريكا - أتحدث مع زوجتي . وكانت البنية تلعب حولنا في غرفة جلوسنا الصغيرة التي كان المطبخ جزءاً منها ، وفجأة ودون استفزاز من ناحيتي أو من جانب والدتها ، وبدون أي سبب معلوم ، لم أشعر إلا بقدر ثقيل من الصلب يهوي على رأسي . . ! كان صوت الارتطام من القوة لدرجة أن رنيناً طويلاً متصلاً - من القدر لا من رأسي - مكث لبضع ثوان يرسل ذبذباته في أرجاء الغرفة . أخرستني المفاجأة وعقد لساني الألم الحاد ، فلم أفتح فمي بكلمة بل رحت أنظر إلى الطفلة وهي لا تزال تنوء بحمل القدر الثقيل بيديها الاثنتين بينما راحت زوجتي تداري نوبة من الضحك انتابتها ولم تستطع السيطرة عليها . لم أعاقب الطفلة طبعاً لأن العقاب في حالات الغضب خطأ كبير لا يجوز ارتكابه . وجاء نزار بعد مدة ليكمل الحكاية ! فقد كنت أيضاً جالساً أتحدث مع زوجتي (اختلف المنزل فقط) وفجأة هوت على رأسي - وكان الصلح قد بدأ يتسلل إليه - قطعة خشب ذات حراشيف يمكن أن تغرس بسهولة في جلدة الرأس . حصل ما حصل كما في الحادثة الأولى من الصدمة وما تبعها ، والتفت فرأيت نزاراً واقفاً خلفي ولا تزال الخشبة في يده

يهزها وكأنه يتأهب لضربة أخرى . أخذت أفكر في سبب يمكن أن يكون قد حفز الولد على توجيه تلك الضربة إلى رأسي العاري فلم أجد لذلك سبباً . ومع ذلك لم يكن في نيتي أن أعاقبه ، لكن والدته ، من باب الاحتياط ، اختطفته وهي تغالب الضحك ، وجرت به بعيداً .

كنت بدأت الحديث عن قفشات الأطفال وتعليقاتهم وتعابيرهم ولم يدر بخلدي أنني سوف أقع ضحية لمزاحهم العملي . وسؤالي الذي لم أجد جواباً له إلى اليوم هو لماذا أنا وليس أمهم ؟ وتبقى حكايات الأطفال كثيرة ومتعددة وحلوة منها مثلاً ما يرويهِ ابن أختي خالد الخربوش عن طفل له اسمه محمد على اسم جده اللواء محمد الخربوش الذي تقاعد بعد أن كان آخر منصب له هو قائد منطقة المدينة المنورة العسكرية . محمد الصغير هذا له ألف حكاية وحكاية وكلها طريفة وحلوة . كان مرة مع والده خالد في السوق لشراء بعض الخضار والفاكهة . حمل خالد ما اشتراه ومضى نحو سيارته طالباً من ولده الذي كان له من العمر آنذاك حوالي ست سنوات أن يتبعه . سار محمد وراء أبيه وقد حمل على ظهره الصغير كيساً كاملاً من البطاطس دون أن يلحظه أبوه طبعاً . ! ولما التفت الأب ليتأكد أن ابنه خلفه فوجئ بطفله يحمل الكيس . ولما استفسر منه عن السبب الذي دعاه إلى أخذ الكيس أجاب بكل براءة أن أمه تحتاج إلى البطاطا لتطبخها لهم ، وما دام الأمر كذلك فلا بأس إذا أخذ الكيس ولم يدفع الثمن ولا استأذن أباه . كل هذه الأمور ليست بذات أهمية في نظره لأن ما هو مهم لديه أن أمه في البيت وتحتاج البطاطا لكي تطبخها له ولأبيه . . ! وحكاية أخرى عن محمد هذا فقد اشترى أبوه له ولأخيه الأصغر ألعاباً وهدايا قبل حلول عيد الفطر ،

ويبدو أن محمداً عاين المشتريات وفكر في أن لا يدع المناسبة تمر دون أن يجيئها لمصلحته شخصياً. وهل هناك ما هو أفضل من بيعها وقبض ثمنها؟! حمل محمد الهدايا كلها التي كلفت والده حوالي ثلاثمائة ريال ونزل بها إلى الشارع أمام بيتهم في ينبع حيث يعمل أبوه في إحدى شركات الزيوت التابعة لوزارة البترول. رصّ البضاعة أمامه ودعا صبية الجيران لشراؤها. ولم يكذب الأولاد خبراً فقد كانوا أكبر سناً منه ويدركون قيمة البضاعة المعروضة. . ولم يستغرق البيع وقتاً طويلاً لأن التخفيضات كانت أكبر من أن تقاوم، وطلع محمد إلى أمه فخوراً بأنه باع الهدايا بمبلغ مقداره سبعة عشر ريالاً كاملة! . . واحد ممن سمعوا القصة علق على الحادثة بقوله إن "عبقرية" هذا الطفل المبكرة في شؤون البيع والتسويق تنبئ بمستقبل اقتصادي باهر. .!

وحكايات أخرى كثيرة عن الطفل محمد بن خالد الخربوش مما جعله يتميز عن أقرانه بسلوكه ونواذره الغريبة. سألت بعض الأصدقاء والأقارب إذا كان لديهم حكايات طريفة عن صغارهم، أو إذا كانوا يتذكرون سلوكاً معيناً غير عادي ميز الصغار في طفولتهم، وكانت إجابات أغلبهم أنهم لا يذكرون شيئاً مميزاً جديراً بالتذكر.

أما محمد بن خالد الخربوش فقد انهالت عليّ نواذره من جده وجدته وأبيه وأمه، كل منهم يذكر عنه قصة أو طرفة غير عادية.

من نواذره الكثيرة حكايته مع شجرة المنجة الضخمة التي كانت لجار لهم في ينبع حيث يعمل والده. كانت تلك الشجرة قد تفرعت أغصانها وامتدت

حتى اعتلى بعضها السور وتدلى فوق حديقة منزل خالد الخربوش . وكان جار الأسرة كريماً فعرض على جيرانه أن يكون لهم كامل الحق في قطف حبات المنجة التي نمت على ذلك الجانب من أغصان الشجرة المتدلية فوق حديقته . وما إن علم الصغير محمد بذلك حتى استدعى أخاه وقاما بقطف جميع الحبات التي سمح الجار بقطفها سواء الناضج منها أو الفجّ مستعينين ببعض الكراسي للوصول إلى مبتغاهما . وحمل الصغيران ما قطفاه إلى الشارع ، وأمام باب المنزل فرش محمد حنبلاً قديماً وجده ملقى في ركن من المنزل ترمى فيه الأشياء القديمة ، ورصّ عليه حبات المنجة بعد أن عزل الناضج عن الفجّ ، ثم عرض بضاعته تلك للبيع بأن حدد سعر الحبة الناضجة بريالين والأخرى بريال واحد . وكان أول زبائنه أولاد الجار صاحب شجرة المنجة . !! رجع لأمه ذات يوم وقد ظهرت على وجهه نقطة دم صغيرة فلما استفسرت منه عما حدث قال إنه تشاجر مع زميله لأن كلاّ منهما أصرّ أن يكون مكانه في حافلة المدرسة في المقعد المجاور للشباك ! سألته أمه إن كان ذلك هو المقعد الوحيد الخالي في الحافلة أجاب ببساطة أن الحافلة كانت خالية إلا منه ومن الزميل الذي تشاجر معه وأن كلاّ منهما أصرّ أن يجلس على نفس المقعد دون غيره .

قصة أخيرة عن ابني نزار عندما كان في الروضة . يبدو أن بناء مدرسته كان يرتفع إلى ثلاثة أدوار ، وكان صغار الأطفال في الدور الأرضي . وجاء نزار ذات يوم يخبرني أنه الآن في الصف الأول في المدرسة وأنه في السنة القادمة سيتقل إلى الصف الثاني في الطابق الثاني ، ثم في السنة التي تليها سيتقل إلى السنة الثالثة في الطابق الثالث وفي السنة الأخيرة سوف

يصعد إلى السطح حيث يكون ذلك هو التخرج . هيا له عقله الصغير آنذاك أنه في كل عام يصعد إلى طابق أعلى من الذي قبله حتى يصل إلى السطح ويكون عندئذ قد غطى العلوم كلها! . . لا نشعر نحن الآباء كم هو عالم الأطفال ممتع إلا بعد أن يكبروا، وصدق الله حين يقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

كبر الأولاد الآن وتزوجوا والحمد لله ، وأصبح لدي أحفاد من ابنتي وابني نزار وتخرج إياد في الجامعة . وتمضي بنا الحياة إلى نهايتها المحتومة ، ترفعنا في مشاويرها وتضعنا ، وتضرب بنا يميناً وتضرب بنا شمالاً ، لا نملك من أمر أنفسنا شيئاً ، ونخضع لما قُدر لنا وعلينا ، والسعيد من قنع بما كتب له ورضي به . لكن الحياة تبقى دائماً وأبداً ميدان كفاح نصارعها وتصارعنا ، نغلبها وتغلبنا ، نولد صغاراً ضعافاً لا حول لنا ولا طول ، ثم نكبر وتفتح عيوننا وعقولنا على ما حولنا ، ثم ندخل في خضم صروف الدهر نظن في البداية أننا غالبون لا محالة . تلك فترة الشباب والفتوة التي نعتقد ونحن نعيشها بأن الله تعالى خلقنا لتخليص العالم من الشرور ، ولوضع كل الأمور في مساراتها الصحيحة . ونحاول ونصارع ونتلقى الضربات تباعاً إلى أن تعيدنا إحداها إلى صوابنا ، ثم تبدأ طموحاتنا وتطلعاتنا تتواضع حتى تتوارى خلف أسوار النفس ، وتقبع حبيسة داخل حنايا الضلوع . . . والسعيد من استطاع إصلاح نفسه ومن يلوذ به . ويمتد العمر ، وتهدأ النفوس الصاخبة ، وتستريح الهمم المتوثبة ، ويصبح الجهد نشاطاً ألياً يؤدي بعناء ومشقة ، حتى المتطلبات الشخصية تتقلص وتنحصر في أشياء قليلة تبدو لصاحبها وكأنها مرثاة صامته تنعى العمر الذي تسرب أغلبه وكنا عنه

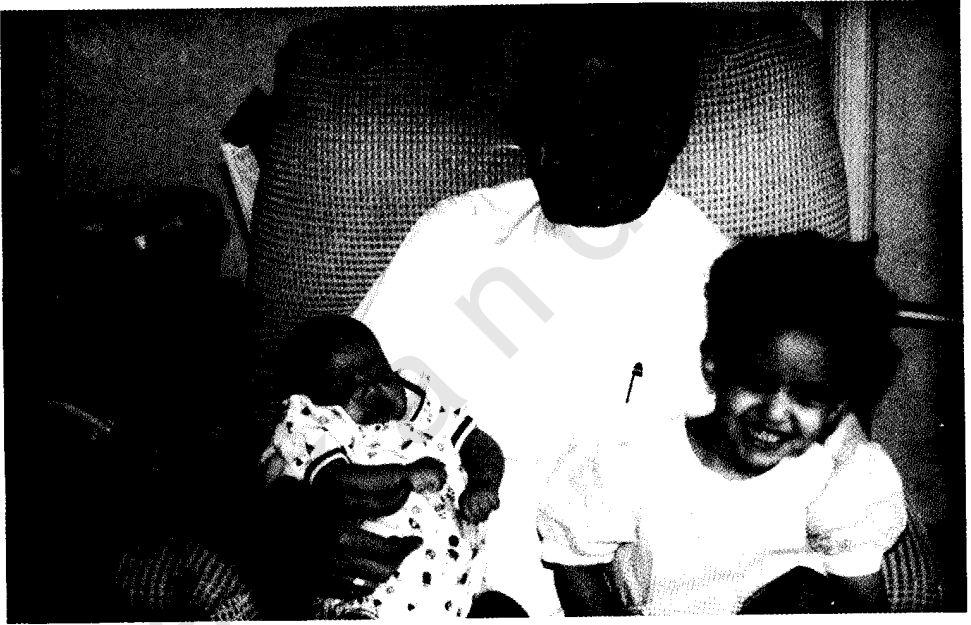
غافلين .

وها قد جاء الوقت الذي يسعدني فيه الآن أن أُلجأ إلى كرسيّ المفضل أسترخي عليه لأقرأ كتاباً ، أو لأطلع على ما لدي من صحف ، أو لأشاهد برامج التليفزيون . يسعدني أيضاً أن أسمع صراخ أحفادي بين آن وآخر ، وأن أراهم حولي يتنافسون على من يحصل على المكان المفضل في حضني . لكن مظاهر الشيخوخة التي تغزو الإنسان لا تنسى أن تشمل معها سعة الصدر والصبر إذ إنهما أيضاً يتقلصان ويذويان ، ولهذا فلا تمضي دقائق إلا وقد ضقت ذرعاً بالصغار فأبعدهم عني ، لكن ضيقي بهم لا يطول فلا ألبث أن أفتقد مرحهم وصراخهم ومنافستهم على أقرب مكان لي . ولا أدري فلعلنا حين نصل إلى سن معينة نصبح أكثر تفاعلاً مع أحفادنا وأكثر تقبلاً لمشاركتهم بعض نشاطاتهم ، والدلائل على ذلك كثيرة في آداب الأم المختلفة وفي واقع الحياة البشرية . وكم من قصص قرأناها وأفلام شاهدناها يظهر فيها الجد ولا تسلية أو متعة له إلا مع حفيدة أو حفيد . والشيء المؤكد أننا عندما ننجب أطفالنا نكون في أوج الشباب وفورة الاندفاع مع تيار الحياة ، يسيطر على سلوك معظمنا العنف والقلق النفسي ، وتتميز أيامنا بالسعي الحثيث لإثبات الوجود ، وإيجاد موطئ لأقدامنا في وسط التيارات المتلاطمة ، ولا نتورع ونحن نخوض معارك الحياة القاسية أن نقسو أحياناً على أبنائنا بطريقة لا نجد لها فيما بعد تفسيراً . وكلما تذكرت الآن أنني عاقبت أبنائي يوماً ما ، حتى ولو كان العقاب له أحياناً ما يبرره ، ازدادت حباً لأطفالهم وحباً عليهم .

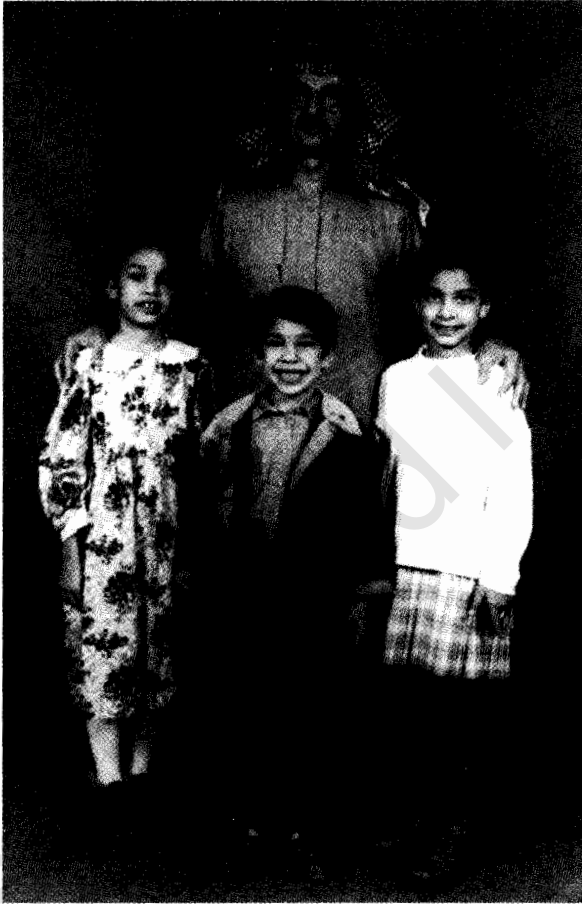
عندما يتخطى الرجل الستين يصبح أكثر ميلاً إلى اختصار أو هجر كثير من نشاطاته التي اعتاد عليها طوال سنين عديدة، وتتقلص طبقاً لذلك مساحات حقوله الاجتماعية. وليس ذلك بمستغرب إذ إن الإنسان يسعى في مراحل حياته المختلفة وراء أهداف متعددة يكون سعيه في فترة الصبا والشباب نشاطاً متهوراً أحياناً، دؤوب لا يمل ولا يكل في سني قوته وعنفوانه، لا يميز دائماً بين ما ينفع وما لا ينفع. وتدور الأيام وتمر السنين وفجأة نصحو على حقائق جديدة لم نكن ندرك أنها كذلك إلا بعد أن نصبح نحن موضوعها. الحقيقة هذه هي غزو السنين ونداء الزمن الذي لا مفر من تلبيته. أذكر هنا أغنية لفيروز وأنا من عشاق فيروز العتيدين، تقول فيها باللهجة اللبنانية:

سألونا وين كنتو ليش ما اكبرتوا انتو
بنقول لهم نسينا
واللي نادى الناس تاكبروا الناس
راح ونسي ينادينا

أذكر أيضاً قول قيس بن الملوح وهو يتحسر على أيام شبابه الذي ولى:
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى الآن لم تكبر ولم تكبر البهم
من لنا بمن يشغل الزمن عنا لعله ينسى أن ينادينا ويمر بيده الثقيلة على
ملاحنا وكياننا ويترك أثارها المدمرة.



مع أصغر أولاد ابني هيا ومنصور نزار الخريجي



مع الأحفاد: نورا، سارة، خالد أبناء نبيل العوفي

من ناحية ثانية نجد أن من رحمة الله تعالى بعباده أن الإنسان عموماً تتغير أيضاً رغباته وميوله مع سني عمره . لقد وصلت الآن إلى سن أصبح أحب شيء إلي هو ، بعد القيام بواجبات عملي الرسمي ، تقسيم وقتي الزائد بين أحفادي وأصدقائي . وكما ذكرت آنفاً فإن أجمل لحظات حياتي هي عندما يحوط بي أحفادي وينادونني بأحب كلمة إلى قلبي وهي " جدي " . لم أسعد بكلمة سمعتها في حياتي مثلما أسعدتني وتسعدني هذه الكلمة عندما أسمعها من الصغار . آخر طرفة حول هذا الموضوع حدثت منذ أيام قليلة حيث كنت ألعب مع منصور الصغير ابن ولدي نزار . منصور يبلغ من العمر أقل قليلاً من سنة ولا أدري ما الذي جعلني أقول بعد أن حملته بين يدي وقبلته إنني سوف أقدم له ألف ، ريال مكافأة إذا نطق بكلمة جدي وألفاً أخرى إذا خطى أولى خطواته . سمعت جدته -زوجتي- وأمه هذا . حدث بعد أن أعلنت ذلك أن انشغلت ببعض شأني لمدة لا تزيد عن دقيقتين ورجعت إلى الغرفة لأجد الجدة والأم تطالبان بالألف الأولى . احتجيت طبعاً ولكنهما وكأنا بطريقة سحرية طلبا من الطفل أن يقول جدي فنطق بشيء أصرتا هما على أنه كلمة " جدي " ودفعت الألف الأولى صاغراً . وفي اليوم الثاني فقط جاءني أبوه يقول إن منصور بدأ يمشي وكان جوابي أنها مؤامرة علي دون أدنى شك . إلا أنهم أحضروا منصوراً وأوقفوه على مسافة متر مني وطلبوا إليه أن يتحرك نحوي . لم يفعل الطفل بل نظر إلى أبيه الذي كان يحثه على التوجه نحوي ثم جلس . ولكنني لا أشك أنني سأدفع ألفاً أخرى قبل أن يجف مداد هذه الكلمات .

العامل الثاني الذي يعطيني ذلك الشعور بالسعادة ورضى النفس

والأمان أيضاً هم أصدقائي الذين أمضيت معظم سنوات حياتي معهم وبصحبتهم . هذا على الأقل ما لمستته في هذه السنوات الأخيرة ولو أن لي أصدقاء أكثر من مختلف الأعمار . ولكن يبقى هناك ذلك الشعور المريح المشبع بالألفة والتقارب والذكريات المشتركة والحنين إلى الماضي بكل قسوته أحياناً وكل ساعات الهنيئة أحياناً أخرى والمعاناة التي تقاسمناها مع زملائنا في المدارس والتي لها طعم أكلة مفضلة عندما نتذكرها الآن ، وفي الحياة عامة والآمال التي تطلعنا إليها وحققنا بعضها وفشلنا في بعضها الآخر . تنصهر كل هذه المشاعر الإنسانية في بوتقة صداقة حميمة تربطنا بزملاء الرحلة أثناء الدراسة وتستمر بعد ذلك في مشوار الحياة وخضم الكفاح ومشاركة الآمال ومقاسمة القنوط والإحباط . وما أسطره هنا هو بعينه ما سيقوله أي واحد من أولئك الأصدقاء لو أراد أن يقيم العلاقة التي أتحدث عنها . فلا يفتأ الدكتور أحمد خالد مثلاً يردد على مسامعنا بيتاً من الشعر هو :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

هذه العلاقة وتلك الصداقة التي ربطتني ببعض زملائي أنظر إليها كما ينظر البخيل المقتر إلى كنزه يرعاه ويلمسه دون أن يفرط فيه بدائق واحد . لاشيء عندي يعادل تلك الرابطة المتينة التي تربطني بعدد من زملاء الدراسة ورفقاء حياتي . أفتقدتهم إذا لم أرهم وأجالسهم على الأقل مرة في الأسبوع بل غالباً ما يحدث أن أسعى إليهم مرات في الأسبوع الواحد . أتطلع بحب ولهفة إلى اليوم الذي نحدده معاً لاجتماعنا في منزل أحدنا . وسواء كنا اثنين

أو أكثر فإن الحديث دائماً عذب والذكريات عطرة ولا نمل عندما نكون اثنين فقط من تكرار أحداث متشابهة مرت بحياتنا . فأنا والدكتور أحمد خالد البدلي مثلاً تكلمنا عن بدايات حياتنا : عن تيمنا وفقرنا ومعاناتنا عشرات المرات . وقد نقول الشيء نفسه مرة بعد مرة دون أن يفقد الحديث حلاوته . ولا غرو فأنت تستطيع أن تستمع إلى أحمد يحكي عن طفولته وما قاساه لساعات طويلة وتتمنى ألا يتوقف لأن الله تعالى وهبه مقدرة فائقة على الحديث بأسلوب يشد المستمع له وكأنما قيد بسلاسل غير مرئية ، ولا عجب في ذلك فأنت لا تتوقع أقل من ذلك من أستاذ يتربع على كرسي الأدب الفارسي في جامعة الملك سعود إضافة إلى المكان الرفيع الذي اكتسبه بجدارته في عالم أدبه العربي .

أما عندما يكون الدكتور منصور الحازمي موجوداً ، وهو لا يفترق عنا إلا إذا كان مسافراً ، وقد كثرت سفراته بعد أن ترك الجامعة وصار عضواً في مجلس الشورى ، بعد أن برز كأديب وناقد كبير تبحث عنه النوادي والتجمعات الأدبية . أقول عندما يكون الدكتور منصور موجوداً فإن الأحاديث غالباً ما تأخذ الطابع الفكاهي لأنه لا يستطيع الصبر كثيراً على حديث جاد دون أن يكسر حدته بواحدة من قفشاتة التي برع فيها . وفي الواقع عندما يجتمع منصور وأحمد في أي مناسبة فإن الآخرين يكونون هم المستفيدون . فهذان الصديقان اللودان سواء كان حديثهما جاداً أو هازلاً فالموضوعات نفسها تبقى دائماً جادة مفيدة مثرية بسبب ما يتمتعان به من معلومات غزيرة وعلم واسع . ولطالما سعدت أيما سعادة بجداولهما حول موضوع ما ، إذ بينما أتعلم منهما دوماً شيئاً جديداً في عالم الأدب أو

التاريخ أو غيرها فأنا أيضاً لا أكف عن الضحك من القفشات والنكات التي يتبادلونها والتي تنتهي دائماً بأن يهدد أحمد بأنه في يوم ما سيطالب برد اعتبار من جراء هجوم منصور المستمر عليه .

بقي لنا - ولا نزال والحمد لله - سنين طويلة زادت على الثلاثين عاماً ونحن تقريباً نعيش معاً . تقاسمنا طوال تلك السنين آمالنا وآلامنا وشكى كل منا للآخر ما اعترض حياته من محن وعقبات وشاركه ساعات فرحه وكل مناسباته السعيدة . وطبعاً كبرنا معاً . وأنا دائماً أنظر إلى أحمد البدلي ومنصور الحازمي وعزت خطاب لأرى مدى ما اعتراني من هرم وغزاني من شيب . كنا منذ حوالي عشرين عاماً وقبلها ما إن نجتمع مرة إلا ويذكرنا منصور أننا شبننا وعلينا أن نعد العدة للتقاعد وما بعد التقاعد والركون إلى دور المسن الذي لا يرجى منه شيء . كان لا يمل من تكرار ذلك الوعيد بينما لم نكن يومئذ قد بلغنا الأربعين . والآن بعد أن تخطينا هذا السن بعدد كبير من الأعوام وابيضت عوارضنا وما بقي من شعر فوق رؤوسنا سكت منصور ولم يعد يتطرق إلى حكاية السن . لعله وجد أنه لم تعد هناك فائدة ترجى من التحذير بعد أن اجتزنا المرحلة التي كان يحذرنا منها .

عند وصول القارئ إلى هذا الجزء من الكتاب يكون قد مر على ذكر الصديق الدكتور عزت خطاب أكثر من مرة . عزت هو صديق طفولتي وهو الذي رافقني أو رافقته في كل مراحل الدراسة من بعد الابتدائية ، إذ إننا درسنا في مدرستين ابتدائيتين مختلفتين في المدينة المنورة هو في المنصورية وأنا في الناصرية . أما بعد ذلك فقد كانت مسيرتنا واحدة شديدة التشابه في

كل شيء تقريباً . فكلانا درس الأدب الإنجليزي وكلانا تخرج في جامعة القاهرة نفسها . والتحقنا نحن الاثنين بعد التخرج بجامعة الملك سعود كمعبدین ثم ابتعثنا معاً إلى جامعة ليدز بإنجلترا وبعدها إلى أمريكا وانتهينا أيضاً بنفس الجامعة بأمريكا بعد أن حصل كلانا على الماجستير من جامعتين مختلفتين . كما أن علاقة أسرتنا أيضاً حميمة وعميقة وصداقة أولادي وزوجتي لأولاد عزت وزوجته لا تقل قوة وثباتاً وصفاء عن صداقتي به . وعزت الآن هو أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة الملك سعود وهو طبعاً واحد من أفراد مجموعتنا الصغيرة . ومشكلته فقط أنه وهو أستاذ الأدب الإنجليزي يجد صعوبة كبيرة عندما يكون النقاش محتدماً بين منصور وأحمد أن يدلي بدلوه في موضوعات أصبح بعيداً عنها بعض الشيء بعد أن أمضى سنين حياته غائصاً في مسرحيات شكسبير وأشعار وردزورت وملتون وتي . أس . أليوت وروايات دكنز وجين أوستن . ولكن ما إن يحصل عزت على فرصة للكلام حتى يسرع ويخرج من جيبه آخر قصيدة كتبها بالإنجليزية يتغزل فيها بتلك الغادة اليابانية الحسنة التي كلفت بمرافقته والعناية به في إحدى زيارته الأكاديمية لطوكيو . !

هناك والحمد لله أصدقاء آخرون كثيرون يعجز حيز الكتاب أن يأتي على ذكرهم جميعاً . كلهم أحباب وأعزاء أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأخ حسين سجينى الذي تقاعد حديثاً من عمله كوكيل لوزارة التخطيط والذي تحول حديثنا لعدة لقاءات بعد إحالته للتقاعد عن فلسفة نهاية خدمة الموظف وعما إذا كانت سن الستين مثلاً أو خدمة أربعين عاماً تشكل قاعدة ثابتة لا يمكن مراجعتها للتقاعد . وأي إنسان يرى حسين

سجيني يجد أمامه رجلاً لا يزال حديث العهد بسن الشباب ولا يزال قادراً على العمل والعطاء لسنوات طويلة وباستطاعته أن يخدم بلده لسنين كثيرة أخرى . لكننا سرعان ما نقرر أن ذلك هو قانون الخدمة المدنية وعلينا القبول به ولعل من الحكمة الترحيب بالتقاعد ليتفرغ المتقاعد لإشباع أي هوايات لديه أو ليقوم بأي نشاطات منعه أعباء الوظيفة من القيام بها . ولا يحتاج حسين سجيني إلى تذكير من أي أحد منا بأنه وإن كان هو أول مجموعتنا تقاعداً فإن الدور لا ريب قادم وسيشمل الجميع وعندها سوف نتوقف عن الكلام عن فلسفة التقاعد ونجد في البحث في شؤون مستقبلنا الذي يبدأ بعد الستين! . . ورحم الله من قال : لو دامت المناصب والمراكز لغيرنا لما وصلت إلينا . والحمد لله أولاً وآخراً .

obeikandi.com

المحتويات

١١	الهجرة إلى الشمال
١٧	في الكتاب
٢٣	يتيم بأحضان خالي
٣٥	طفل المهمات الصعبة
٥٥	الموت يطرق باب المنزل الصغير
٥٩	الشهادة الابتدائية
٦٧	الناطور
٨١	عاشق وحافي القدمين
٩١	نسمات الأمل تهب من الجنوب
٩٩	رحلة العودة
١٢٩	طيبة الطيبة . . . آخر المشوار
١٥١	في مدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة
١٦٩	في أرض الكنانة
١٩٩	نبع الحنين لا يجف : عودة إلى القريتين
٢١٣	طالب الجامعة
٢١٧	مرة ثانية يخفق القلب . . ويخفق
٢٣١	بعد التخرج . . البحث عن المرتبة الرابعة

- ٢٣٧ الرياض بين الأمس واليوم
- ٢٥١ من الرياض إلى المدينة . . على متن شاحنة
- ٢٦١ طالب الدراسات العليا
- ٢٧١ إلى أمريكا - بعد دبلوم ليدز
- ٢٨١ وللدراسة في أمريكا ذكريات
- ٢٨٥ مترجم بدلا من دكتور
- سفينة وسيارة يشتركان مع الجامعة الأمريكية
- ٢٩١ في مسلسل الأحرار
- ٢٩٧ بعد العودة من أمريكا
- ٣٠٧ من ذكريات العمل في المراسم الملكية
- ٣٣٧ أقول عن نفسي
- ٣٤٥ بين الأحفاد والأصدقاء

obeikandi.com